

فضيلة الأستاذ الشيخ
صالح أحمد الشافعي محمد محمد أبو خليل الكبير

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمـد لله الذى يمنح عطاءه لمن أسلم قياده إليه، ويهب رضاءه لمن قصـده وتوكل عليه، ويجتذب إلى سـاحة قربه من أناب ورجع إليه.

سبـحانه أقام فى كل عـصر كوكـبة من أحبـابه يدلُّون الخلائق عليـه؛ فهم أولياؤه وعـارفوه، يدعون إليـه على بصيرة الإيمـان، ويحررون العقـول من رِبْقة الشيطان، فـهم الهداة المهتدون، والورثة المحـمديون من أحبهم شـرب من راحهم فاسـتراح، وعلى باب ربه أقام وأناخ. فـمن شرب من رحـيق وداده اهتدى، ولم يعـرفه الردى، فـقـد نصـره الله على سائر الـعدا، ومن حـاد عن طريقـهم ضل واعتدى، ومن يضلل الله فلن تجد له وليا مرشدا.

وصلاة الله تعـالى وسلامه على سـيدنا محـمد الذى تحلى بكمال العـبودية وانتسب بها شرفا لمولاه، فكان إمام أهل الحب والشوق، ومعراج الوصول، وغذاء الأرواح، وشبكة الأنوار التى تنير الأشباح، وعلى آله الأجلاء، وأصحابه مصابيح الاقتداء، وجميع العترة الذين هم على الهدى أدلاء.

وبعد:

فقـد رغب كثيـر من أبنائنا وإخواننا فى السلـوك إلى الله عز وجل أن نخط بمداد الحب والمدد سِفْرًا يكون زادًا لهم وعونا على تفهم الطريق إلى الله من الناحية الفكرية والتنظيرية بعد أن أكـرمهم الله بفهمه مذاقـا نورانيا فى قلوبهم، بما أكرمنا الله به من العطاء المحمدى والنور السـرمدى، وقد كنا نؤثر كتمان الأسـرار المذاقية دون كتابة للسطور، والاكـتفاء بنقشها فى الصدور، لولا أننـا استخرنا الله الوهاب لكل ذلك، فى تسجيل مايعن لطالب الوصل من أحوال ومقامات ومشاهد وأسرار وأنوار؛ ليَحْيـا من اهتدى عن بينة وليكون برهانا صادقا يُقْنع الحيـارى التائهين فى بيداء المعاصى والغفلات.

والله أسأل أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم، وأن يفيد الأمة الإسلامية بأنوار خير البـرية صلى الله عليه وآله وسلم، حتى تتوج بالعـزة والتمكين، وتبلغ مقام الإحسان وشفاعة النبى العدنان ﷺ فى كل وقت وآن. آمين.

معرفة الله هى الحكمة الأساسية من وجودنا:

إن أول شىء واجب على المكلف: المعرفة. والمعرفة تعنى الحب والشوق لمن أهداك نعمة الوجود. فمعرفة الله تعالى فريضة من أقدس الفرائض على كل من أفاض عليه ربه نعمة الوجود.

فالله تعالى قد خلقنا فى هذا الوجود لنعرفه ونحبه ونقدسه ونشكره على آلائه، ونرضى مستبشرين بقضائه الذى هو فى حقيقته: رسالة من الحبيب لحبيبه، وكيف لا؟! ونحن صنعة الله تعالى، الذى أحبنا محبة الصانع لصنعته، ودليل ذلك الحديث القدسى: «**ولأنا أرأف بعبدى من الوالدة على ولدها**».

وفى القرآن الكريم يقول الله سبحانه: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾**﴾ [**الذاريات**]. قال حبر الأمة سيدنا عبدالله بن عباس رضى الله عنهما: معنى (إلا ليعبدون): أى إلا ليعرفون.

إذ أن أول شىء قد فرضه الله سبحانه على عباده هو: معرفة الله.

وقد حدث ذلك من يوم أن كنا فى عالم الذر، حين قال الله تعالى:

﴿**... أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ... ﴿١٧٢﴾**﴾ [**الأعراف**]. وهذه المعرفة المفروضة ليست لحاجة المولى إليها فهو الغنى الحميد، فليس محتاجا لخلقه، فقد خلقهم من العدم، ولذلك فهو غنى عنهم وعن عبادتهم، ولكن عباده فى أمَسِّ الحاجة إليه دائما.

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾**﴾ [**فاطر**]. ولكى ينعم عليهم بأجل نعمة فقد تعبدهم بالمعرفة المذاقية القلبية؛ إذ هى أهم من المعرفة العلمية العقلية، حيث قد تَعَبَّدهم بالذكر وسائر العبادات وفضائل الأعمال، على أساس من توحيده سبحانه، والإيمان برسله وباليوم الآخر، وذلك ليجزيهم أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله.

الفرق بين المعرفة العلمية والمذاقية:

لاشك أن الفرق بينهما كالفرق بين الأرض والسماء، فقد قال الإمام الغزالى رحمه الله: فرق بين أن يعلم الإنسان حد الصحة والشبع، وبين أن يكون صحيحا وشبعان.

ولقد قال علماء السلوك: «من ذاق عرف ومن لم يذق لم يعرف».

كما قال أحد العارفين بالله سبحانه: «نحن فى لذة لو علم بها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف» فلاشك أنها لذة الأنس بجمال الله وجلاله التى هى المعرفة المذاقية، والتى عناها القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ... (١٢٥)** ﴾ [**الأنعام**] فقال الصحابة:

يا رسول الله: مامعنى الشرح؟ فقال ﷺ: «**هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب**».

ولقد كانت الرسالة المحمدية مسك ختام الرسالات السماوية، ولذا فقد جعل الله سبحانه الاقتداء بسيدنا رسول الله ﷺ أمرا ملزما مفروضا يحتمه مقصد الهداية إلى الله، قال الله سبحانه: ﴿ **... وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ... (٥٤)** ﴾ [**النور**] وقد قال عز وجل: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)** ﴾ [**الأحزاب**].

ألا وإن هذا التأسى والاقتداء يقتضى أن يتأسى المؤمن به ﷺ فى الأقوال والأفعال والأحوال.

فكان اعتناء السادة الصوفية بجانب الأحوال؛ لأنها الطريقة الوحيدة لإصلاح البواطن، فالظاهر فرع عن الباطن وبصلاح حال الباطن يصلح الظاهر وليس العكس؛ وذلك لكى تكون بواطن المؤمنين متفقة مع ظواهرهم، فلا يجوز للمسلم أن يعتنى بالظواهر، ويترك البواطن، فقد ذم الله الكافرين إذ قال الله تعالى: ﴿ **... لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ... (١٧٩)** ﴾ [**الأعراف**].

فالمولى سبحانه يعلمنا ضرورة الاهتمام بالتربية القلبية؛ حيث يقول سبحانه: ﴿ **... وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ (١٩٧)** ﴾ [**البقرة**] ويقول الرسول ﷺ: «**ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب**».

موقع التصوف من الدين:

للدين مقامات ثلاثة: ١ ـ الإيمان، ٢ ـ الإسلام، ٣ ـ الإحسان.

وبذلك يجب على كل مسلم ألا يخاطر بدينه، وألا يقامر على عقيدته تحت أى مسمى أو ادعاء؛ لأنه حينما ينكر التصوف الإسلامى فإنما ينكر مقاما من أهم مقامات الدين ألا وهو مقام الإحسان، فهذا أمر من البداهة بمكان. لأن الإحسان هو لب الدين وجوهره، فإنه كما ثبت فى الحديث الصحيح: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

وهذا ماينشده مَن سُمُّوا بالصوفية، أو العارفين بالله، أو أولياء الله. أو المتصلين بالله، أو المتحققين بنور الإيمان، أو من يأخذون الدين بقوة العزائم وليس بالرخص والتأويلات، أو أرباب الأحوال والمقامات والإلهامات والمكاشفات، أو أهل الزهد والورع، أو أحباب الله، أو الصديقين. أو رجال الله؛ الذين عناهم القرآن بقوله سبحانه: ﴿ **رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ** ... (٣٧) ﴾ [**النور**]. أو أهل المواجيد والأذواق، أو أهل التحقيق.

فالتصوف فى حقيقته ليس شيئا دخيلا على الدين بل هو جوهره وسره وثمرته. فرجاله هم العلماء بالله، المفردون الله بالعبودية، الموحدون المخلصون دون شائبة شرك أو رياء، فهم السابقون المقربون. الذين عناهم الرسول ﷺ بقوله: «**سبق المفردون، قالوا وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرا والذاكرات، ألقى الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا**».

خطورة التهجم على التصوف ورجال الله:

منذ اشتعال الحروب الصليبية وحسمها لصالح المسلمين، وانكشاف الميادين عن أبطال محاربين للمعتدين، منحهم الله تعالى القوة الخارقة، والشجاعة النادرة التى قلبت الموازين ورفعت هامات المسلمين بالنصر المؤزر على كافة دول الغرب الصليبى ثم معارك التتار من أمثال: سيدى أحمد البدوى، وسيدى إبراهيم الدسوقى وسيدى أبى الحسن الشاذلى وغيرهم من رجال الله ومن هم من آل بيت رسول الله ﷺ. والحرب الفكرية لم يخمد أوارها حتى الآن. بالتشكيك المزرى فى هؤلاء الأبطال، وفى منهجهم الذى وصلوا إلى الله به. ومعاهد الاستشراق التى يقوم عليها يهود قد تخصصوا فى الملل والنحل، لا دأب لهم ولا نشاط إلا بمحاولة بث الكراهية والعداء لأولياء الله المسلمين الكاملين، ومما يندى له الجبين أن يرفع علم المعاداة لأولياء الله بعض من ينتمون لهذا الدين بدعوى تخليص الدين من الشرك والوثنية والقبورية والرجوع إلى التوحيد الخالص!!. كبرت كلمة تخرج

من أفواههم إن يقولون إلا كذبا. ولايرددون إلا زفرات الحقد الدفين لدى أعداء الملة الحنيفية الذين يريدون الحيلولة بين الأمة وبين أهل القدوة الحسنة فيهم لتصير كغثاء السيل فتظل لقمة سائغة لأعدائها.

فإلى كل مسلم ومسلمة فى أرجاء المعمورة نُهْدى هذا الكتاب المنصف الذى يكشف وجه الحقيقة لكل ذى عينين. ويزيح ضبابا قد تراكم على كثير من العيون تحت مسميات إسلامية ما أنزل الله بها من سلطان. فَضْرِبَ الدينُ باسم الدين على يد المستشرقين والمستغربين والسذج المحرومين من محبة الله وتوفيقه وما ظلمهم الله ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

فالشريعة أيها الأخ المؤمن: أن تعبده، والطريقة: أن تقصده. والحقيقة: أن تشهده. فالحقيقة التى يمنحها الله تعالى لأوليائه: هى التى تعطى للشريعة معناها السامى العميق؛ لأن الشريعة: أمر بالتزام العبودية لله وحده، والحقيقة: هى مشاهدة الربوبية أى مشاهدة عظمة الله تعالى فى كونه، وتجلى أسرار أسماء الله تعالى وصفاته على قلب العارف فيغدو مشاهدًا لآلاء الله ومراقبا لجنابه الأقدس، ولذلك يقول أبو على الدقاق رضى الله عنه: (إياك نعبد): حفظ للشريعة، و(إياك نستعين): إقرار بالحقيقة. فالشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره تعالى، والحقيقة شريعة من حيث إن المعارف به سبحانه والعطاءات اللدنية قد وجبت بأمره أيضا.

فمن وقف على أحكام الشريعة (كتابا وسنة) أدى العبادات على الوجه الصحيح، ومن أكثر من ذكر الله تعالى مستشعرا عظمته بعد أن فعل المأمورات وترك المحظورات فقد تصوف، فصفا قلبه من الكدر، وامتلأ من الفكر، فذاق محبة ربه فأنس به ﴿ ... وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ... ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة]. اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك، وحب عمل يوصل إلى حبك آمين.

حاجة الناس إلى التصوف

التصوف:

علم تزكية الأخلاق وتطهير القلوب مما يشوبها ويدنسها، وتحلية الأسرار بوصف التوحيد الكامل.

وقد أمرنا الله تعالى بالتقوى، وهى لاتخرج عن أمرين: أعمال القلوب، وأعمال الجوارح، ولن يستقيم ظاهر العبد إلا باستقامة باطنه، كما قال ﷺ: «**والله لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه**».

وإن للباطن تموجات كتموجات البحر لن ينجو منها إلا عبد أخذته جذبة العناية إلى ساحل السلامة من أول أمره، أو أبصر علة باطنه وقدر خطرها فأتى الأمر من بابه وتوجه إلى ربه تَوَجُّهَ الصادقين وقال: ﴿ **إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ۝٩٩ ﴾ [**الصافات**] فإما أن ينشله الله من ورطته بلا واسطة، وإما أن يدله على بعض عباده من أرباب الأحوال الشريفة، والمقامات المنيفة، الذين يداوون أمراض الأرواح بنظرة أو كلمة، ويعالجون ظلمة القلب بشعاع، فهؤلاء وإن قال الناس قد مضى عهدهم، لكن والله لن يخلو الوقت منهم أبدا حتى يأتى أمر الله، كما تشهد بذلك السنن الصحيحة.

وقد قالوا: جِدَّ صادقا تجد مرشدا، وإن أمر هؤلاء لايغنى عنه حفظ علوم الأولين والآخرين، وكيف يغنى المريض حفظ اسم الدواء عن الطبيب الذى يعرف مقداره وتركيبه وما يماثله عند فقده؟ هذا لايصح عقلا، بل كيف يكون حال العبد فى الصلاة يقف بين يدى الله وقلبه مصروف عن ربه مقبلا على الدنيا، والحق ينظر إلى سره فيراه مصروفا، وإلى نفسه فيراها خارجة عن طاعته، وإلى هواه فيراه إلى غيره، وفى الحديث: «**إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

فكيف حال هذا مع الله وهو بين يديه بحيث يراه ويسمعه؟

فهل تشك أنه لم يصل إلى السلامة، ولم يسلك سبيل الاستقامة؟!، إنى أعتقد أنه عبد ممقوت، ثم انظر إلى رجل جازع على مصابه، فار من قضاء الله وقدره، أو ضعيف اليقين لايذعن بوعد ربه، فاقد التوكل، عظيم الحرص فى الدنيا، وقل لى كم لابَسَ هذا من المخالفات؟، وكم قارف من السيئات، ثم انظر إلى آخر لاتنظر عينه إلى الموت، أماتت الغفلة شعوره الدينى، وأعدمت إحساسه الوجدانى، أقبل على الجمع والادخار، والاستئثار والاستكثار، لايهز قلبه تذكار دار القرار، ولايزعجه خوف الواحد القهار، وانظر ما قدر إيمان هذا وإسلامه؟.

وتأمل حال عبد يتمنى زوال نعم إخوانه حسدا ويكره خيرهم، وهذه صفة الأكثرين من أهل اليوم، وانظر تطاحنهم على الدنيويات، وتفانيهم على

الرياسات، واستهتارهم فى سبيل الشهوات، بوصف أخرجهم عن مناهج الهدى، وأوردهم موارد الردى، حتى طرحوا الدين ظهريا، وطبق حالهم على ماتعلم من دينك واحكم بعد بما تشاء!!.

انظر إلى هؤلاء جميعا، وتأمل أحوالهم وما ران على قلوبهم من ران الغفلة تَرَى أنهم أحوج إلى الدواء من أرباب الأمراض الظاهرة القاتلة، إذ أنّ علة الجسم القاتلة بمجرد الموت يسلم العبد من خطرها، وعلة الدين لايسلم منها أبدا وهى بعد الموت شره الذى إليه يصير، وندامته التى لامحيص عنها ولامفر منها، أفيقضى العقل بالسكوت على هؤلاء وترك علاج قلوبهم ومداواة عللهم وأمراضهم؟ أم يجب عليهم شرعا وعقلا على الفورية البحث عن الدواء الحاسم ولو خرجوا عما ملكت أيمانهم؟

ولقد كان السابقون بمجرد العثور على الطبيب الدينى الحاذق يخرجون له من إرادتهم مستسلمين لإرادته واختياره، فتركوا الوجود ينقل إلى القرون المتأخرة جميل آثارهم وسيرهم، وعاطر الثناء عليهم.

أجل: إن سلوك طريق القوم حاجة ملزمة لمن أراد النجاة فى الآخرة، ولعلك عرفت مما ذكر آنفا شيئا من مقاصدها المقصورة على دواء القلوب وإراحتها من خطورة أمراضها الجالبة لأسباب العناء والشقاء فى الحياة وبعد الممات، والله تعالى يقول: ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)** ﴾ [**الشعراء**] أى من الأمراض الروحانية، كالجهل بالله، والأخلاق الفاسدة، وأى مطلوب أعظم وآكد فرضية عند الله تعالى من عمل القلب الذى يجب تصحيحه وتخليصه مما يؤخره عن القبول عند الله جل وعلا؟

إذًا من الفروض الأولية: إصلاح القلب واستعمال الدواء المريح لعلته ومرضه، حتى يهتدى العبد إلى إخلاص النية التى لايقبل عمل العبد إلا بها، وإفراد الوجه لله وبالله ليكون عبدا لربه بالمعنى المراد منه، وعلى وفق مانطق به الكتاب والسنة، وحتى يعرف معنى ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... (١٠)** ﴾ [**الحجرات**] فيجب على المسلم أن يحب كل مؤمن، لافرق بين عربى وعجمى، ويتمنى للمؤمنين كل خير، ويكره لهم كل شر، ويعينهم على مايريدون ويطلبون، واضعا يده فى يد كل من دعاه منهم إلى مقصده ومايريد، فكيف يكون الإسلام وكيف يبلغ من القوة والمنعة لو أن المسلمين اتفقت كلمتهم، واتحدت وجهتهم؟.

إن الإسلام إذ ذاك يكون الدين السائد، والمسلمون هم السادة، وتالله لن

يجد عبد هذا من نفسه إلا بعد إعطائها الدواء، ومجاهدتها بردها عن غيها وتحليتها بصفات المتقين المؤمنين الكاملين. وإنى لأرى دعاتنا اليوم يدعوننا بلسان الكتاب والسنة دعوة علمية قولية خالية من العلاج والتقويم، ولو أنهم - والله - دعوا إلى الكتاب والسنة بطريقة الرياضة والتهذيب، وبالتلقى عن أرباب المعارف الصادقين، لأحيوا العصور الأولى وأعادوا للإسلام مجده، وللمؤمنين عزهم، وإن أردت دليلا على ماذكر لك فانظر إلى أبى ذر الغفارى رضى الله عنه حين قال لبلال: ياأسود، فلما شكاه للنبى ﷺ وضع خده على الأرض وحلف ألا يرفعه حتى يطأه بلال بقدمه، وإلى أبى هريرة حيث استخلفه ﷺ على المدينة فى تبوك، فخاف العجب فجمع حزمة من الحطب وحملها على ظهره وسار فى الطريق بين الناس وهو يقول: طرقوا للأمير. وإلى سيدنا عمر حيث انتهره أبى بن كعب لما توعد أبا موسى الأشعرى بالضرب إن لم يثبت حديث الاستئذان فقال له أبى: يا ابن الخطاب لاتكن عذابا على أصحاب رسول الله ﷺ، وهو يتصاغر لأبى ويقول له: ما أردت إلا التثبت.

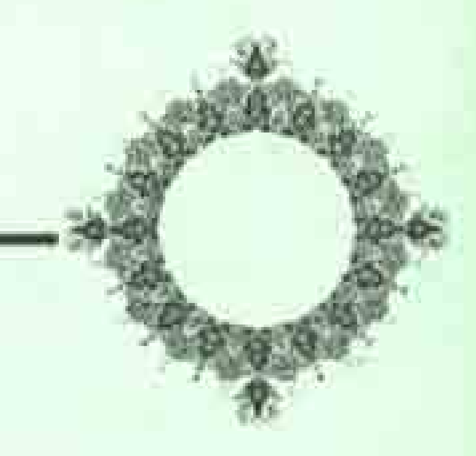
أو إلى حاتم الأصم حين مات عدوه بسقوط السقف عليه فقال: الحمد لله، فقيل له: إنك نهيتنا عن الشماتة بالعدو، فمالك حمدت الله عند مصابه، فقال: حمدت الله لما وجدت قلبى غير شامت. وإلى سيدى أحمد الرفاعى حيث كان له عدو يمر عليه يوميا فيشتمه ويبالغ فى سبه، وهو لايزداد إلا حلما عليه وإغضاء عنه حتى تاب الله على ذلك الرجل وبايع الشيخ على الطريق.

وغير هؤلاء كثير، ثم طبق مانحن عليه اليوم من التقاطع والتدابر، وتمنى نزول الشر بإخواننا فى الدين، حتى أضعف الإسلام يد التفرقة وذهبت عزته. بل لعَمَى القلوب ومرض الأرواح ربما صادق المسلم الكافر وعادى المسلم، وهو الموجود اليوم حتى لقد صارت ميولهم واتجاهاتهم ومعاملاتهم كلها للكافرين لا المسلمين، ولو أن أمثال هؤلاء صاحبوا أهل الله، وذاقوا حلاوة الإيمان، وعرفوا معنى الأخوة لآثروا إخوانهم بأرواحهم وأموالهم، فإن سلوك طريق المقربين يذيق العبد حلاوة الإيمان، ويعرفه قدر الدين وخطر المخالفة، ومعنى عبوديته، ويكشف له عن مخازى نفسه الأمارة وعيوبها، فيفرض على نفسه مخالفتها، ويسعى فى دوائها.

إذًا فالطريق إلى الله حاجة ضرورية لعزة الإسلام والمسلمين **﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)﴾** [النحل].

المؤلف

الفصل الأول



التصوف (مَعْنًى ونَشْأَةً وحُكْمًا)

١ ـ معنى التصوف:

الواقع أن «التصـوف» لفظة لها دلالة لغوية فى المعـاجم العربية ومفـرداتها، لأن مادة هذه الكلمة ـ ص و ف ـ لها وجود فعلى فى لغتنا العربية، وذلك إن دل فإنما يدل على أن هذه الكلمـة «عربية الأصل» وليست من الكلمـات الوافدة على هذه اللغة.

مهما كانت مـوجودة فى لغات أخرى أو أماكن واستخدامـات متباينة؛ لأن الاشتراك اللـفظى لايعنى احتكاراً للفظة «ما» فإن الألفـاظ قوالب لمعان مخـتلفة، فالمهم مـراعاة المدلول والمضـمون والمعنى، وأن يكون وفق سـمات خـاصة وأنماط مستـقلة. فكلمة «دين» مثلا لفظة مشـتركة بين جميـع الديانات، فلا يجوز لنا أن نتركـها لأنها تطلق على الدين اليهـودى أو المسيحى أو خلاف ذلك، فـالله تعالى يقول: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... (١٣) ﴾ [الشورى] ومعلوم ضرورة: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ... (١٩) ﴾ [آل عمران]. ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ... (٨٥) ﴾ [آل عمران] مع أن الديانات جمـيعهـا قد اشتركت فى الأصول العقدية، واختلفت فى تشريعات الفروع التى تتناسب مع كل جيل وظروفه وطبيعة تفكيره.

ونظرا لاتفـاق العلماء عـلى ضرورة وجـود علاقـة بين التـعريف اللغـوى والاصطلاحى فـإن التعريفـات الاصطلاحيـة للتصـوف يجب أن تنشأ بينهـا تلك العلاقة الحميـمة الواضحة، أما إذا جاءت التعريفات الاصطلاحيـة بعيدة كل البعد عن المعانى اللغوية فـهذا يعنى التلفيق وعدم الموضوعـية والتجنى على العلم وأهله والتصوف ورجاله والإسلام وملته.

تجنى المستشرقين ومن تبعهم من أدعياء الإسلام:

يحاول المستشـرقون ـ وأعظمهم من اليهود ـ إرجاع كلمـة «تصوف» وحياته الروحـية فى الإسـلام إلى مـصـدر أجنبى بحت «هندى أو يونانى أو نصـرانى أو زرادشتى فارسى أو يهودى. . . إلخ».

وبعض المستـشرقيـن يحاول أن يُخَدِّرَ الفكر ليـضمن الصيـد فى الماء العكر فيظهرون بمظهر الاعتدال، فيقولون: إن العامل الأول فى وجود التصوف: إنما كان القرآن وحيـاة الرسول ﷺ ومنهما اسـتمد التصـوف بذوره الأولى، ويقولون: ثم كانت الثقافة الأجنـبية بعد ذلك من: هندية أو يونانية، أو فارسية، أو مـسيحية ـ هى التى أثَّرت فيه وجعلته يتطور، وهى التى أمـدته بالآراء بما زعموا أنه بعيد عن روح الإسلام وطبيـعته، وكأنهم فى حـزن عميق لبعـده عن روحِ الإسلام، ولكنه السم المدسـوس فى العسل؛ لكى يقـضوا على التـصوف الذى دوَّخهم رجـاله فى حـروب سابقـة، والذى يربى النفوس علـى الإيمان الحق، ويفـتح العقـول على الاهتمـام بالصالح العام ومافـيه نفع المسلمين؛ انـطلاقا من حديث شريف يضـعه الصوفيـة أمامهم: **«من سعى فى حـاجة أخيـه قضيت علـى يديه أم لم تقض كان كمن اعتكف فى مسجدى هذا سنتين»**.

ولذلك فهـم يشجعـون أدعيـاء الدعوة ومـحتكرى الإسلام ادعـاء لذواتهم والمتبـاكين على السلطة وعبدة الأغـراض الخاصة والحقـدة على ذوى الجاه والمال؛ لأنهم يعرفونهم سلفا أنهم عباد الدنيا والمصـالح الذاتية المبرقعة بالمظهر الإسلامى، والذين لا همٍّ لهم إلا القيل والقال وتفـسيق المسلمين ورميهم بالزندقـة وخصوصا الصفوة من أهل القدوة الحسنة!!.

وصدق رسـول الله ﷺ حينمـا قال: **«سيكون فى آخـر الزمان قـوم حُدَّاثُ الأسنان سـفـهاء الأحـلام يقـرأون القـرآن لايرتقى حناجـرهم مفـتـونون مـفتـونة قلوبهم»**.

المعنى اللغوى للتصوف:

لقد تعددت الآراء لدى مـؤرخى الفكر الإسلامى حول حقيـقة المصدر الذى اشتقت منه كلمة «صوفية، وتصوف».

أ ـ أخذ الشيء قهرا: من ذلك قول العرب: أخذته قهرا، إذا[١] تبعته ولحقته فأخذت برقبته، أو لم آخذ بها ولكن جذبته من صوفه، أو شعره المتدلى فى قفاه، فالصوفى يمسك بدينه، حيث يمسك برقبة نفسه، ويأخذها قهرا إلى الله ويلزمها ذلك حتى تُمرَّن، وتصبح العبادة لها عادة محبوبة مألوفة[٢].

ب ـ العطاء بلا مقابل: ومنه قول العربى: أعطاه بصوف رقبته مجانا بلا ثمن.

جـ ـ الانقطاع للعبادة وخدمة بيت الله.

د ـ العدل عن الشيء الضار: ومن ذلك قولهم: صاف السهم عن الهدف: عدل عنه، وأصاف الله عنى شره: إذا أماله، وصاف عن الشر إذا عدل عنه.

هـ ـ الكثافة والكثرة: من ذلك قولهم: صاف الكبش صوفا: كثر صوفه فهو أصوف وهى صوفاء.

إذًا فالتصوف على ذلك هو: قهر الرغبات، والميل عن الشهوات، والإخلاص لله فى العقيدة والعبادة والمعاملات، مع التزام الطاعة كافة الأوقات، انقطاعا عن كل ماسواه، مع الأخذ بإصلاح ما أمر الله[٣].

وبناء على ماتقدم فإنه لايستطيع مؤلف أو باحث فى تاريخ الصوفية أن يتمكن من الحصول على تعريف جامع مانع للتصوف منفصل عن أصل الاشتقاق، فالمعنيان متداخلان.

الاستخدام التاريخى:

تطلع علينا المصادر بأن كلمة «صوفى» قد أطلق لقبا لأول مرة فى التاريخ الإسلامى مع بدء القرن الثانى للهجرة على: «أبى هاشم الزاهد البغدادى» وعلى العالم الكيميائى الشهير «جابر بن حيان» الذى أعلن أنه تصوف على يد أستاذه

---

(١) القاموس المحيط، ج٣ ص١٥٩ .

(٢) مقدمة الفتوحات الإلهية لابن عجيبة.

(٣) انظر فى ذلك كتاب أوراق مطوية فى التصوف والصوفية، د. محمد حسين الغزالى، ج١ص٣١، ٣٤ .

الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه، وهو أستاذه الأول فى التصوف وفى الكيمياء، حيث كان الإمام قد اتخذ فى بيته «معملا» للكيمياء.

فقد اعترف الغرب بالتلميذ الذى خرج على العالم بأصول المادة التى طورت العالم كله حتى لقبوه بأبى الكيمياء، ولم يعترفوا بشيخه الذى تعهده روحا وعلما، وإنما لصقوا به فكرة التشيع، وجعلوه إماما لطائفة لم تره ولم يرها حتى يفرقوا أمة الإسلام!!

معان أخرى فى التصوف[1]:

١ ـ أنه مأخوذ من الصفاء، فقد قال الإمام سهل التسترى، الصوفى: من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله دون البشر، واستوى عنده المال والمدر.

٢ ـ أنه مأخوذ من الصوفة؛ لأنه مع الله كالصوفة المطروحة لاتدبير له.

٣ ـ هو: أن يميتك الحق عنك ويحييك به أو هو: ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع، أو هو: أن تكون مع الله بلا علاقة «للإمام الجنيد».

٤ ـ التصوف: خُلُقٌ، فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء «للكتانى».

٥ ـ التصوف: هو الدخول فى كل خلق سنىٍّ والخروج من كل خلق دنى «أبو محمد الحريرى».

٦ ـ التصوف: أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام «الإمام محمد بن على القصاب».

٧ ـ التصوف: صفوة القرب بعد كدورة البعد. «أبو على الروزبارى».

٨ ـ الصوفى: منقطع عن الخلق متصل بالحق لقوله تعالى: ﴿ **وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي** ﴿٤١﴾ ﴾ [طه] أى قطعه عن كل غير ثم قال له: لن ترانى «الإمام الشبلى».

---

(١) من كتاب طريق الله الجزء الأول للعارف بالله تعالى سيدى الشيخ أحمد الشافعى أبوخليل رضى الله عنه.

٩ ـ صوفى: كلمة مركبة من أربعة أحرف، صاد ـ واو ـ فاء ـ ياء، كل حرف يحمل صفة.

فالصاد: صبره، وصدقه، وصفاؤه.

والواو: وجده، ووده، ووفاؤه.

والفاء: فقده، وفقره، وفناؤه.

والياء: ياء النسبة فإذا اكتمل فيه ذلك فقد أضيف إلى حضرة مولاه «سيدى أبى العباس المرسى».

١٠ ـ التصوف: مبنى على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار، أو هو: استرسال مع الله تعالى على مايريد «الإمام أبى محمد رُوَيْم».

١١ ـ التصوف تدريب النفس على العبودية وردها إلى أحكام الربوبية «الإمام الشاذلى».

١٢ ـ التصوف: مشتق من صوفة القفى للينها، فالصوفى هين لين مثلها، أو أنه من الصفة: إذ إن جملة التصوف هى: الاتصاف بالمحامد وترك الأوصاف المذمومة.

١٣ ـ التصوف: علم منقول من صُفَّة المسجد النبوى الذى كان منزلا لأهل الصفة.

نموذج سام لمتصوفى صدر الإسلام:

إن الصوفى الآن تابع لنماذج فريدة فى عصر النبى ﷺ وهم أهل الصفة الذين أثبت الله تعالى فضلهم فى القرآن الكريم، وأمره ﷺ أن يكون معهم دائما بجسده وروحه؛ لأنهم حملة مشاعل الإسلام والذين فرغهم الله تعالى من علائق الدنيا لدينه، فآثروا الباقية على الفانية، واختاروا أن يكونوا فى كنف الله سبحانه بدل حظوظ الدنيا الفانية، فهم ممن خلقهم الله لإسعاد غيرهم، وللدعوة إلى دين ربهم على بصيرة الإيمان. وتلك مقتضيات ظروف خاصة لخواص هذه الأمة، وليست دعوة عامة لجميع المسلمين.

ففى القرآن الكريم من سيكونون مع السابقين السابقين ومن سيكون من أهل اليمين ومن سيكون من أهل الشمال. ومن الأمة من سيدخل الجنة بغير حساب، ومنهم من سيرافق الرسول ﷺ فى جنة الفردوس، ومن الصحابة من اهتز لموته عرش الرحمن ومنهم ومنهم . . . إلخ.

وليس من المستبعد من يوجد الآن من أهل الولاية الخاصة ومن لاتفارق عينه مشاهدة الرسول ﷺ، ليطبِّب قلوب الأمة بنوره ﷺ فى عصر الظلمات المادية وأن يكون من ذوى الدرجات العليا عند الله.

ظهور هذا الاسم فى صدر الإسلام:

لقد ذكر النجيبى أنه سُمِعَ فى صدر الإسلام عن السلف «اسم الصوفى»، فقد قال الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه: «لقيت صوفيا فى الطواف فأعطيته شيئا فلم يقبله وقال: ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ** ... ﴿٩٦﴾ ﴾ [**النحل**].

والإمام الحسن البصرى هذا من كبار التابعين فقد أدرك كثيرا من الصحابة فهو حجة على استعمال هذا الاسم فى زمانه، والله أعلم.

ومن النماذج الرائعة للصوفية: أهل الصفة الذين أثنى الله عليهم من فوق سبع سموات حتى أن النبى ﷺ قال: «الحمد لله الذى جعل من أمتى من قال الله فيهم: ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [**الكهف**].

ألا وإن هذه الصُّفَّة قد بناها الرسول ﷺ لفقراء أصحابه، فنزلوا فيها يصلون بالليل ويصومون بالنهار، ويجاهدون مع رسول الله ﷺ «بهذا سُمُّوا الصوفية» وحينما كانوا يجتمعون فى هذه الصُّفَّة كان عددهم يصل إلى أربعمائة إذا كثروا، فإذا قَلُّوا كانوا ثمانين أو سبعين رجلا، وكانوا يعرفون بِضُيَّافِ الله وبضُيَّافِ الإسلام - ومما لاشك فيه أن أهل الصفة رضى الله عنهم كان لهم فى مكة أموال وعبيد وإماء وديار وعقار وأهل وعيال، فلما هاجروا إلى الله ورسوله خرجوا عن ذلك كله وتركوه لله تعالى، فانتقلوا إلى المدينة ليس معهم شىء، فبنى لهم عليه الصلاة والسلام تلك الصُّفَّة.

روى البيهقى فى المنذرى، والترمذى فى كتاب الزهد: أن مصعب بن عمير رضى الله عنه الذى كان من مشاهير أهل الصفة ومن كبار الصحابة كان يلبس إهاب كبش (أى جلده)، فلما رآه عليه الصلاة والسلام على ذلك بكى وقال: «انظروا إلى هذا الذى نَوَّرَ الله قلبه فقد رأيته بمكة بَيْنَ أبويه يختال فى حُلّة له قد اشتراها أو اشتريت له بمائتى درهم فمازال به حب الله ورسوله حتى صيراه إلى ماترون».

فهذه كانت أحوال أهل الصفة خيار هذه الأمة الذين تركوا الدنيا لأهلها، وانقطعوا إلى الله بالكلية حينما احتاج الإسلام إليهم، فلبوا نداءه تاركين الدنيا خلف ظهورهم، ولم يكن موقفهم هذا بدعا وإنما فقهوه من مقتضيات الشرع الشريف؛ لأنهم سمعوا كلام ربهم وأحاديث نبيهم سماع وعى وتطبيق فى ذم التكالب على الدنيا.

وهذا هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه يدخل على الرسول ﷺ فيراه نائما على حصير قد أثَّرتْ أعواده فى جنبه الشريف، فبكى عمر رضى الله عنه لما رأى، وقال: يارسول الله كسرى وقيصر يفترشون الطنافس والحرير وأنت يؤثر فى جنبك الحصير فلو دعوت الله أن يوسع عليك لأجابك!! فقال الرسول ﷺ: « **ياعمر هؤلاء قد عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا، ونحن ادخرنا ما لنا عند الله تعالى** » رواه البخارى فى صحيحه.

٢- نشأة التصوف ومنزلته:

الواقع أن معالم الطريق الصوفى فى أصلها ناشئة من الإسلام وتعاليمه، فلا داعى لإنكار ذلك؛ لأنه يعد إنكاراً للقرآن الكريم والسنة الثابتة ولأحوال النبى ﷺ وصحابته وسلف الأمة.

فلقد اتفق الباحثون على أن التصوف قد نشأ أساسا عن ذلك الزهد والورع والتوكل على الله والثقة فيه سبحانه والخوف منه تعالى، والرجاء الدائم فى رحمته ورضوانه والإيثار والبذل والسخاء من الصدر واليد وغيرها من مقامات التصوف التى اتصف بها النبى ﷺ، والعدد الأكبر من الصحابة والتابعين، وكانت تلك الأحوال طبيعية الحدوث بفعل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التى تجتذب المؤمن إلى ساحات العمل للآخرة راجيا رضاء الله وغفرانه.

فقد قال الله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى].

وفى معرض التزود للآخرة والسعى إلى مغفرة الله ورضوانه وعدم تعلق القلب بدار الفناء ومحاولة صرف النفس عن اللهو بالمظاهر الكاذبة والمفاخرة بالعرض الفانى: نزل قول الله سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد].

وإذا استعرضنا آيات هذا الباب لألفيناها كثيرة جدا يضيق المقام بحصرها؛ ففى مقام التوكل نكتفى بقوله سبحانه: ﴿... وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ... ﴿٣﴾﴾ [الطلاق]. وقوله سبحانه: ﴿... فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ... ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

وفى مقام الخوف والرجاء نكتفى بقوله جل شأنه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة].

وقوله جل شأنه: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ... ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف].

وفى مقام العبادة والتهجد يقول الله سبحانه: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان]، وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٢٥﴾﴾ [الإنسان].

وفى الذكر يقول الله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب].

وفى موضوع الحب لله تعالى ورسوله وتقديمه على ما سواه وهو أساس التصوف يقول الله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم

مَنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [التوبة].

فهذه ملامح صوفية وهى قُلٌّ من كُثْر ورد فى القرآن الكريم.

وإذا أردنا ملامح من السنة فعلينا الرجوع إلى سيرة النبى ﷺ العطرة حيث تجسدت فيها أسمى أنواع الزهد والتواضع، فقد اقترن كل منهما بعبادة تصل إلى حد القيام فى الليل حتى تتفطر قدماه الشريفتان، وحينما يسأل عن سبب ذلك مع أن الله تعالى قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر، فإنه ﷺ يجيب بمقام من مقامات التصوف فيقول: «**أفلا أكون عبدا شكورا**» فالشكر كما هو معلوم من أبرز مقامات الصوفية.

وقد قال ﷺ فى مقام الزهد: «**ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس**» رواه ابن ماجه.

وفى حديث متفق عليه: أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه إلى البحرين ليأتى بجزيتها فقدم بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرفوا فتعرضوا له، فتبسم حين رآهم ثم قال: «**أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين؟**» فقالوا: أجل يارسول الله. فقال: «**أبشروا وأمّلوا ما يسركم فو الله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم**». رواه البخارى.

فإذا ما أصر بعض الباحثين على أن اسم التصوف لم يظهر فى دائرة التنظير والاستخدام التقعيدى قبل النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة، فإنا نقول لهؤلاء: إن ذلك لايعنى أنه إضافة غير إسلامية وأن منشأه غير إسلامى، بل إن الإنصاف أن يصنف على أنه ثمرة ذلك الزهد والأحوال والمقامات التى انتشرت بفضل الروح الإسلامية التى تم عرض بعضها بإيجاز موجز يَنُمُّ عن بعض معالمها من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وذلك يسلمنا إلى بدهية ماثلة مفادها:

«أن التصوف قد نشأ من داخل الإسلام نفسه منهجا ومفاهيم وحقائق يوجد لها نصوص محكمة غير قابلة للتأويل فى القرآن والسنة وأحوال السلف الصالح».

فالـتصـوف مسـتمـد من الكتاب والسنة وإلهـامات الصـالحين وفـتوحـات العارفين.

ولقد اعتصم أهله بالكتاب والسنة ودعوا الناس إلى الاستمساك بهما. وأكبر دليل على ذلك أقوال أئمة التصـوف، فقد قال شيخ التصوف الأكبـر سيدى محيى الدين بن العربى الذى يقول: «لقـد أجمع رجال التصوف جمـيعا على أنه لاتحليل ولاتحريم بعـد شريعة رسول الله ﷺ خـاتم النبيين وإنما هو فـهم يعطى فى القرآن لرجال الله».

ويقول العارف بالله تعـالى أبو حمزة البغدادى الذى كان يتـردد على مجلسه الإمام الشافعى والإمام أحمد رضى الله عنهما فيقول: «من علم طريق الحق تعالى سَهُلَ عليـه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا بمتابـعة الرسول ﷺ فى أحواله وأفعاله وأقواله».

وقـال شـاه الكرمانـى: «من غض بصـره عن المحارم وأمـسك نفـسـه عن الشهوات وعَمَّر باطنه بدوام المراقبـة وظاهره باتباع السنة وعَوَّدَ نفسه أكل الحلال لم تخطئ له فراسة».

وقال إمام التصوف أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه:

«الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ».

وقال أبو يزيد البسطامى رضى الله تعالى عنه:

«لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامـات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغـتروا به حتى تجدوه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة».

من كل ذلك يتضح لنـا: أن الصوفية هـم أهل الاعتصام بـالكتاب والسنة، وقد دَعُوا الناس منذ أمد بعيد إلى الاستمسـاك بهما، فما كان لهم أن يبتدعوا ولا أن يزيغوا وهم من يطبقون الكتاب والسنة قلبا وقالبا، نصا وروحا.

موقف الرسول ﷺ من الصوفية:

من المعلوم أن رموز الصوفيـة وشيوخهم الأكابر من العترة المحـمدية غالبا، فهـذا لايختلف عليـه اثنان، ولذا فقد أشـار الرسول ﷺ على ضـرورة متابعـتهم

والاقتداء بـهم، حيث إنهم الذين يحلون حلال القرآن ويـحرمون حرامـه، اقتداء بجدهم المصطفى ﷺ. فإذا كانت السيدة عـائشة أم المؤمنين رضى الله عنها حينما سئلت عن أخلاق النبى ﷺ، قالت: «كان خلقه القرآن» أى أن كل سلوكياته ﷺ كانت قرآنية فكأنه قرآن يتحرك بين الناس.

وعلى هذا درج آل البيت المطهرون والعترة الميامـين فقد أمرنا ﷺ أن نقتدى بهم لأن أخلاقـهم قرآنيـة كأخلاق جـدهم عليه الصـلاة والسلام، فـفى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إنى تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتى، وإنهما لن يفـترقا حتى يردا علىَّ الحوض**» وزاد الإمام أحمد والنسائى والترمذى: «**فانظروا كيف تخلفونى فيهما**».

رفض ادعاء أن مؤثرات أجنبية حولت التصوف عن مساره الصحيح:

إنه من الضرورى أن نفرق بين المتصوف والصوفى والتصوف.

فالمتصوف: من اتخذ الطريق الصوفى منهجا له وصـولا إلى مقام الإحسان ولو لم يصل إليه.

والصوفى: من وصل إلى مقام الإحسان بالفعل، فأصبح من العارفين بالله.

والتصوف: هو الصفاء والمشاهدة وهو توهج القلب بالمذاقات النورانية. إذاً فليس التـصوف ثقـافة كـسبـية تتـأثر بهذا الاتجـاه أو ذاك، وإنما التصـوف: ذوق ومشـاهدة، إنه أنوار تغشى القـلب وتهيم بهـا الروح ويتراقص لهـا طربا وجدان الصوفى مترنحا.

ولايصل السـالك طريق الله تعـالى إلـى تلك الحـالة إلا بالرياضـة والخلوة والمجاهدة والاشتـياق بتزكيـة النفس، وتهذيب الأخلاق وتصفيـة القلب لذكر الله تعالى .. فهذا هو جوهر الشعور الصوفى. وهو أخص خصائص التصوف.

إن التصوف شعور وجدانى لا يمكن التعبير عنه، فإن الإنسان يصل فيه «إلى درجات يضيق عنها نطاق الكتابة، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح، لايمكنه الاحتراز عنه»[1].

(١) المنقذ من الضلال للغزالى، تحقيق د. عبد الحليم محمود.

فالسالك الذى لابسته تلك الحالة ـ على حد تعبير الإمام الغزالى ـ لاينبغى أن يزيد على أن يقول: وكان ما كان مما لست أذكره . . فظن خيرا ولاتسأل عن الخبر.

إن السلوك الصوفى ينبع من مؤثراته الداخلية البحتة، وذلك يعتمد أساسا على الاستعداد الشخصى الفردى الفطرى، فيكفى المسلم الذى يريد أن يسلك هذا الطريق عمليا: كلمة، أو فكرة، أو كرامة، أو إشارة، أو حادثة من الأحداث التى قد تغير مسيرة الإنسان، وتحوله إلى ربه، فيأخذ فعلا فى سيره إلى الله تعالى وشفاؤه النفسى ﴿ ... إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾ [**الصافات**].

واقعة التجنى على التصوف الإسلامى:

لقد اتضح لنا مما سبق أن التصوف: مذاق وشعور وجدانى داخلى فلا يمكن التعبير عنه وبخاصة ممن لم يسلك طريقه، وقد قال رجاله: «من ذاق عرف ومن لم يذق لم يعرف».

ولذا فإن كثيرا من مؤرخى الفكر الإسلامى ورواد الفلسفة الإسلامية قد وقعوا فى خطأ فادح حينما حكموا على التصوف بأنه حركة فكرية هى إلى الفلسفة أقرب، فجعلوه نهبا لتغير الأحوال السياسية والاجتماعية والفكرية واعتبروه كرياضة «اليوجا» مثلا أو قضية هروب من واقع أليم إلى الخيال المجنح أو إلى أسهل الحلول بالسلبية عن حركة المجتمع وتموجاته.

فها هو أحد المفكرين الإسلاميين «د. عمر فروخ» فى كتاب الفكر العربى يقول: «الصوفية حركة بدأت زهدا وورعا ثم تطورت فأصبحت نظاما شديدا فى العبادة، ثم استقرت اتجاها نفسيا وعقليا بعيدا عن مجراها الأول، وعن الإسلام فى كثير من أوجهها المتطرفة».

إن هذا الكلام يناقض واقع التصوف الثابت الذى لاينبثق إلا من مصدرين أساسيين ثابتين مابقيت الدنيا: «كتاب الله وسنة رسوله ﷺ».

فإذا كان التصوف من أهم مقامات الدين وهو «طلب مقام الإحسان»، فإن معنى تغيره وتطرفه: تغير وتطرف الإسلام. فماذا يبقى من الإسلام إذا ضاع روحه وجوهره؟.

إنها دعوة من المستشرقين الحاقدين على الإسلام ورجاله لضربه فى الصميم، ونحن نردد مايقولونه فقط دون روية أو غيرة على ديننا!!

جناية المستشرقين على التصوف:

إن المستشرق «لويس ماسينيون» يقول فى صراحة: «أما دراسة مصادر التصوف، فإن الشقة بيننا وبين استكمالها مازالت بعيدة»(١).

لأن المستشرقين، ومن نهج نهجهم يحاولون جاهدين أن يعزوا التصوف إلى مصدر معين، أو إلى مصادر مختلفة يشترك فيها المصدر الإسلامى، أو لا يشترك!!.

وخلاصة القول عندهم: أن التصوف على رأى بعضهم «مذهب دخيل فى الإسلام مأخوذ إما من رهبانية الشام، وإما من أفلاطونية اليونان الجديدة، وإما من زرادشتية الفرس، وإما من فيدا الهنود».

ومن العجب أن نرى المستشرقين يناقش بعضهم بعضا فى هذه القضية التى ليست لهم أصلا، وقد يهدم بعضهم بعضا، وقد يغير الشخص الواحد منهم رأيه كما حدث للمستشرق: «ثولك» والمستشرق «نيكلسون» وكأنها مناورات؛ لنأخذ برأى من يخف ضغطه علينا فى القضية ولو كانت تجافى الواقع؛ إعمالا لنظرية «ارتكاب أخف الضررين» وكأن هذا قدرنا الذى لامحيص عنه، وذلك ماوقع فيه مؤرخو الفكر الإسلامى من بنى جلدتنا، فلقد اعتبر كثير من مفكرينا أن المستشرق «نيكلسون» مثلا يمثل الجانب المنصف فى قضايانا الفكرية ولاسيما التصوف.

فـ «نيكلسون» حينما يتحدث عن التصوف فإنه يرجع نشأته إلى عوامل خارجة عن الإسلام عملت عملها ابتداء من القرن الثالث الهجرى.

وأهم هذه العوامل الخارجة فى نظره هو: الأفلاطونية الجديدة والتى كانت شائعة آنذاك فى: مصر، والشام.

فلننظر إلى «نيكلسون» فى تلك الفترة وهو يقول: «ولكنى على يقين من أننا إذا نظرنا إلى الظروف التاريخية التى أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق، استحال

(١) المنقذ من الضلال للغزالى، تحقيق د. عبد الحليم محمود.

علينا أن نرد أصله إلى عامل هندى، أو فارسى، ولزم أن نعتبره وليداً لاتحاد الفكر اليونانى، والديانات الشرقية، أو بعبارة أدق، وليداً لاتجاه الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، والديانة المسيحية والمذهب الغنوصى».

ثم يتحول «نيكلسون» عن فكرته تلك ويأتى «لويس ماسينيون» ليشرح فكرته الجديدة فيقول: «وقد بين نيكلسون أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام غير مقبول، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأفكار التى اختص بها متصوفة المسلمين، نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها، أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث وتَقرُّبهما، ثم يقول ـ وهذا مكمن الخطر ـ وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث، وماحل بالأفراد من نوازل».

وبذلك فإن «ماسينيون» لايرجع التصوف إلى مصدر واحد، وإنما إلى ثلاثة مصادر:

المصدر الأول: القرآن وهو أهم المصادر التى استمد منها التصوف نشأته وحياته.

والمصدر الثانى: الحديث، والفقه، وغيرهما من العلوم العربية الإسلامية.

والمصدر الثالث والأخير: الثقافة العلمية الأجنبية العامة، وهذا مكمن الخطر.

فما أغنانا عن تلك الاختلافات الكثيرة التى استفاض فيها الكاتبون والتى لاتزال مستمرة لاتنتهى ولايريد أهلها أن تنتهى، والعجب أن تلامذتهم من العرب يتعصبون لها حتى الآن.

أس الخطأ فى ذلك الطرح الفكرى:

إن عرض قضية التصوف بهذا الوضع خطأ من أساسه، فقد ترتب على ذلك تكفير البعض لبعض علماء الإسلام المبرزين علما وذوقا وأسوة ودعوة وصفاء ونقاء من أمثال الأستاذ الأكبر محيى الدين بن عربى والشيخ منصور بن حسين الحلاج هم ومَنْ على شاكلتهم من أهل الزهادة والورع والصلاح والتقوى؛ حيث قد اتهموهم بأنهم قد أخذوا أفكارهم الصوفية من الفلسفة اليونانية ورموهم بالحلول والوحدة والاتحاد التى كانت موجودة لدى فلاسفة الإغريق، وهم من ذلك

برآء؛ لأن العارف لايريد أن يكشف سر الصلة التى بينه وبين الله، فغالبا مايميل أمثال هؤلاء من أهل الاستغراق مع الله تعالى بالرمزية والكنائية سترا على حالهم مع الله فكانت فرصة المستشرقين. المشتغلين بفكر الشرق وآدابه أن يفسروا تلك الرموز بظاهر ما تدل عليه ويربطوها بالفلسفة الإغريقية، ويتهموهم بالكفر والارتداد فيتبعهم تلامذتهم الأوفياء لهم من المستغربين ممن ينتمون إلى هذا الدين دونما قراءة للرأى والرأى الآخر، ودون أن يشربوا شيئا من مذاقهم ليكون حكمهم منصفا، فإن الحكم على الشىء فرع عَن تصوره.

وبذلك أسىء الظن بتلك القمم الإسلامية الشامخة، مما جعل بعض المتصوفين ينكر عليهم موقفهم ويعلن أنه من مدرسة المعتدلين كإمام التصوف الأستاذ الجنيد.

وأما الإمام الغزالى فقد شرح وجهة نظر ابن عربى فى قضية الفناء والبقاء. وأن ذلك ليس من الحلول والاتحاد فى شىء؛ لأن العارف قد يعتريه حال الفناء فيفنى عن نفسه، ولايرى لنفسه وجودا مع وجود الله؛ لأن وجود الإنسان فيض من وجود الله فكل ما لدى الإنسان فهو من الله ولكن وجود الله وجود أزلى ودائم لا نهاية لوجوده، وشعارهم فى ذلك قول القائل:

والكل إن حققته عدم ∴ بعد الإله على التفصيل والإجمال

فالعارف المستغرق فى فكرة صلة العبودية بالربوبية: يفنى تماما عن نفسه ويبقى بربه إذا نظر إلى أن كل شىء موجود فهو من الله وأنه إلى فناء فى ساعة من ليل أو نهار.

ولكن واهب الوجود لانهاية لوجوده، فالعبد يبقى بربه ويفنى تماما عن نفسه، إذاً فالمعايشة الدائمة تجعله يستغرق فى ذلك، ويرمز إلى مواجيده وأحواله ولايصرح بها مثل ما رووه عن الحلاج رحمه الله حينما وقف بين الناس وقال: معبودكم تحت قدمى: يقصد المادة التى هى من التراب أصلا، أو أن كنزا من الذهب كان فى باطن الأرض التى يقف عليها، وحينما رمز إلى حالة استغراقه مع الله تعالى، فقال: «مافى الجبة إلا الله» إنه لايقصد حلولا ولا اتحادا وإنما يقصد قضية «الخلق والأمر» وأنها من الله سبحانه فقط: ﴿... **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ**

﴿اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف] لأن الله تعالى قد أوجده وخلقه بـ «كن» فكان. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس]، ولكن أعداءه الحاقدين عليه أوغروا عليه صدر السلطان وأخذوا بظاهر اللفظ فحكموا عليه بالردة حتى أمر السلطان بقتله. وكانت بعد ذلك فرصة المستشرقين الذين درسوا حياة هؤلاء وسيرهم الذاتية، فبنوا من الحبة قبة وأقروا الحكم بارتداده وكأنهم يهمهم شأن الإسلام ويغارون على الفكر الإسلامى، ويخشون على عقيدته من الانهيار، فضربوا بمعولهم فى صميم العقيدة، وصار المسلمون يكفر بعضهم بعضا، دون تفكير ولا روية ولابحث ولا استقصاء. وإنما فقط بالترديد الببغائى!! وتحت مسمى الفكر الإسلامى!!، وخلاصة القول فى ذلك: أن الكاتبين عن الإسلام والذين تناولوا الكتابة عن التصوف قد وقفوا موقفهم من الثقافة الكسبية، ومعروف أن الثقافة المكتسبة يتأتى فيها التأثر، والتطور، والتقليد.

فالكاتب، أو الشاعر، أو المفكر على وجه العموم، الذى يستمد ثقافته من البيئة الخارجية إنه يتلون ويتشكل بكل مايقرأ، وبما يدور حوله من أحداث، وبما يتشربه من بيئته، ونتاجه، إذًا ما هو إلا أثر لما يدخل حياته من البيئة الخارجية.

فالتصوف الإسلامى إذًا ليس ثقافة كسبية، وبذلك لاينبغى التحدث عن مصادرها الخارجية ـ أيا كانت هذه المصادر.

ومن الخطأ الجسيم وضع مسألة: نشأة التصوف ومصادره موضع البحث والنظر والدراسة، فذلك لايفعله إلا من لايفهم التصوف، ولم يسهم فى تذوقه بقليل ولا بكثير.

والناتج لكل ذلك: أن الاتجاه إلى التصوف والنزوع إليه إنما هو «فطرة واستعداد» تنبثق من فطرة الإسلام التى فطر الله الناس عليها. فهو فطرة تريد أن تكتمل بها وأن تتوج الفطرة الأساسية.

أما الذوق الصوفى، والشعور الصوفى والمعرفة الصوفية، فإنها استمداد من مصدر النور والهداية[1].

---

(١) «المنقذ من الضلال» لأبى حامد الغزالى تحقيق د. عبدالحليم محمود ص ١٧٧/ ص١٧٨.

التعليق: ماسبق من الكلام عن تخطئة وضع مسألة «التصوف» موضع البحث والنظر والدراسة أمر فى غاية الأهمية وعلى الباحثين المنصفين لدينهم أو للبحث العلمى المجرد مراعاة ذلك.

ولكن هذا الكلام قد يكون أقرب إلى الاتجاه النظرى عنه فى المنحى التطبيقى، ونحن نعالج قضية عملية تطبيقية قد أعلنا عنها بـ «المذاقية الوجدانية» فما السبيل إلى هذا المذاق؟ .

للإجابة عن هذا السؤال الهام الذى تستغرق إجابته كل الموضوع برمته الذى يرنو إليه البحث نقول:

إن موضوع التصوف كتطبيق عملى وسلوك إسلامى قد وجد منذ بدء الرسالة الإسلامية، فالرسول ﷺ ـ مثلا ـ حينما كان يَحْزُبُهُ أمر يقول «أرحنا بها يا بلال».

ويقول: «جعلت قرة عينى فى الصلاة» فهو ﷺ يتوجه بكليته إلى الله تعالى خاشعا لله سبحانه أتم الخشوع وخاضعا لجنابه الأقدس أكمل الخضوع.

وقد اقتدى أصحابه به فى ذلك تماما، فها هو أبو بكر رضى الله عنه الذى كان يقرأ القرآن فى صلاته فيبكى بكاء شديدا ويجهش فى البكاء تعظيما وإجلالا لله سبحانه.

وهو مَنْ كشف الله بصيرته فألهمه بأن زوجته قد حملت أنثى فرجع فى وصيته للسيدة عائشة فى البستان الذى كان قد أوصى لها به فقال لها: إنما هما أخواك وأختاك فقالت: إن لى أختا واحدة، فقال لها: ذات بطن بنت خارجة ـ يريد زوجته ـ حملت وأراها بنتا، فكان الأمر كما قال ـ وكذلك الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما قال: ياساريةُ الجبلَ، فسمعه سارية قائد الجيش وهو فى بلاد الشام والخليفة بالمدينة يخطب على المنبر.

وكذلك ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه حينما قال لمن حوله: يدخل علىَّ أحدكم وآثار الزنا بادية على عينيه ـ وكان رجل من الجالسين قد نظر إلى امرأة شزرا وهو فى الطريق فأتى وجلس معه. فقال الرجل للخليفة: أوحْىٌ

منزلُ» بعد رسول الله ﷺ؟ فـقال: لا ، وإنما هى فراسة وبصـيرة ونور إيمان» وأما الإمام على فـحدِّثْ ولا حرج عن علمـه وأسراره التى مُنحـها من ربه، فقـد كان يفسر القرآن بالقرآن.

ولقد انتـشرت الكرامات لدى الصحـابة بعد انتقـاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى لأن نور المعجـزة كان يتغلب على نور الكرامة؛ ولأن الكواكب فى الـسماء لاترى مع وجود القـمر. فهذا عـباد بن بشر رضى الله عنه حـينما كان يحرس الصـحابة بالليل بعد رجوعهم من غزوة ذات الرقاع فحن حنينه إلى الوقوف بين يدى مولاه، وإلى أن يناجيه بقرآنه فى صلاة الليل، وبينمـا هو قائم يقرأ سورة من القرآن بقلب الصحابى الصـافى النقى إذا بسهم مسموم قد أطلقـه عليه مشرك فاختـرم عضده، فنزعه بيده واستـمر فى صلاته . . ! فرماه بسهم ثان. ثم رمـاه بسهم ثالث فنزعه وحينمـا أنهى تلاوته ركع ثم سجد، وكانت قـواه قد بددها الإعياء والألـم، فمد يمينه وهو ساجد إلى صاحبه النائم بجـواره، وظل يهزه حتى استيقظ. ثم قام من سجوده وتلا التشهـد، وأتم صلاته. وصحا صاحبه «عمار» علـى كلماته المتهدجة المتعبة تقول له: «قم للحراسة مكانى، فقد أُصِبْتُ».

فوثب «عمار» محدثا ضجـة وهرولة أخافت المتسللين، ففروا ثم التفت إلى عباد؛ وقال لـه: «سبحان الله !! هلا أيقظتنى أول مارُميت»؟

فأجـابه عبـاد: «كنت أتلو فى صلاتى آيات من القـرآن ملأت نفـسى روعة وقلبى نورا. فلم أشأ أن أقطعهـا. ووالله لولا مخافة أن أضيع ثغـرا أمرنى رسول الله ﷺ بحفظه، لآثرت الموت على أن أقطع تلك الآيات التى كنت أتلوها».

فنرى من ذلك أن عبادا كان شديد الحب لله ولرسوله ولدينه ولقرآنه مما ملك حسه كله، وهذا ما سمى فيما بعد بالتصوف، أىْ تناول العبادة بصفاء قلب ويقين بالله.

حتمية القدوة:

رأينا أن الرسول ﷺ كان قدوة حسنة وأسوة عمليـة ناجحة لأصحابه فتأثروا به روحا ونصـا، فَخَرَّج جيـلا صالحا صدقـوا ماعاهدوا الله عليـه حتى أعلى الله شأنهم ونصرهم على أعدائهم وأعـزهم بدينه وأعز بهم الإسلام وأيدهم بروح من

عنده. فعاشوا في نور الإسلام هداة مهتدين. يصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ... ﴿١٢٥﴾**﴾ [الأنعام] قال الصحابة: ما الشرح يارسول الله؟

قال: «**نور يقذفه الله فى القلب**».

ولما تمكن هذا النور فى قلوبهم أجازهم الرسول ﷺ فى أن يكونوا قدوة لغيرهم، فقال ﷺ: «**أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**».

ثم أشار إلى القدوة لمن بعد الصحابة إلى أن تقوم الساعة من آل البيت المطهرين والعترة المحمدية كما سيأتى بيان ذلك بالتفصيل وهم من سماهم الناس بعد ذلك بالصوفية من مشايخ الأمة الأجلاء حملة المشاعل الإسلامية إلى أن تقوم الساعة.

الميراث المحمدى:

لقد أعلن الرسول ﷺ عن الميراث المحمدى الذى تركه من بعده للأمة لتبقى مسيرة الإسلام الظافرة، وتنتشر دعوته إلى قيام الساعة، وذلك عن طريق بُعْدَين هامين: بُعد نظرى يحظى الآن بالتأييد والدعوة إلى تحقيقه صباح مساء وهو: المتمثل فى الكتاب والسنة.

والبعد الثانى: عملى تطبيقى وهو المتمثل فى الكتاب والعترة المطهرة. ومن عجب أن البعد الثانى تناساه الكثيرون الآن، بل إنه يحارب من الداخل والخارج مع أنه أساس سلوك الأمة وإكسير حياتها فى دعوة الإسلام وتحقيق خلافة الله تعالى فى الأرض؛ لتكون بحق خير أمة أخرجت للناس.

وأما البعد النظرى فهو مؤيد على امتداد الساحة داخليا وخارجيا، ولايخشى من رَفْعِ عَلَمِه أعداء الإسلام لأنه مجرد كلام!!.

وهو تنظير وتقعيد لأحكام الإسلام؛ إذ يقول فيه المصطفى ﷺ: «**إنى تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدى أبدا: كتاب الله وسنتى**» حديث صحيح[1].

---

(١) صحيح البخارى.

ومعلوم ضرورة وجود النزعات التى تتحكم فى سلوك الإنسان خيرا أو شرا وأن أجهزة استقبال الأمر الإلهى أو النهى، وهو مايطلق عليه: «خطاب التكليف» الذى يستقبله القلب. قد يكون القلب «أزهر» وقد يكون «أغلف مربوطا» وقد يكون «منكوسا»، وقد يكون «مصفحا».

فالقلب الأزهر فيه نور التوحيد يلتقط خطاب التكليف، فيصوغه الصياغة المطلوبة؛ لأن فيه سراجا يزهر وهو قلب المؤمن.

وأما القلب الأغلف المربوط على غلافه فذلك قلب المنافق فصاحبه مريض بالانفصام ولقلبه أنين الظلمة لأن ظاهره يخالف باطنه. فالباطن: كفر أو فسق. والظاهر إسلام وطاعة شكلية بغية عرض من الدنيا فلا يستقبل هديا. لا يتسقبل إيمانًا.وأما القلب المنكوس فذلك قلب الكافر، وأما القلب المصفح ففيه إيمان ونفاق فيحتاج إلى المدد والإمداد الربانى حتى يصلح، وذلك معظم قلوب الناس فى هذه الأيام، فهذا القلب فى أمس الحاجة إلى الميراث المحمدى العملى. فعن أبى سعيد الخدرى وأبى كبشة الأنمارى وحذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أربعة: قلب فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر، وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأى المدتين غلبت عليه حكم له بها».

وقال رسول الله ﷺ: «إذا أذنب العبد ذنبا نكتت نكتة سوداء فى قلبه، فإذا لم يتب وأتبعه بذنب آخر اتسعت هذه النكتة وهكذا كلما عاود الذنب حتى تغطى القلب كله فذلكم الران الذى قال الله فيه: ﴿ **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴿١٤﴾ ﴾ [**المطففين**]» فإذا وصل العبد إلى حالة الران والعياذ بالله تعالى انعكست المرئيات فى ناظره فيرى الحق باطلا والباطل حقا، ولاتؤثر فيه المواعظ، ولايستقبل قلبه خطاب التكليف الذى يتضمنه الميراث النظرى؛ لظلمة قلبه وفساد طويته فلا ينفعه ولايفيده إلا الميراث المحمدى العملى عن طريق تتلمذه على أحد أشياخ آل البيت المطهرين الممدودين بنور النبوة؛ لأن النص التكليفى ساكن إما فى كتاب وإما فى العقل، وكما يقولون: الشىء لاينتقل من السكون إلى الحركة إلا بمؤثر خارجى، وذلك المؤثر الخارجى الذى ينقل مريد التوبة والوصول إلى مرضاة

الله تعالى، والترقى فى معارج الأنوار الإلهية هو: شعاع النور من الأستاذ المربى الذى عناه الرسول ﷺ بقوله فى الحديث الصحيح: «**إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله، وعترتى أهل بيتى وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض**» وذلك يعنى أنهم موجودون إلى يوم القيامة يحلون حلال القرآن ويحرمون حرامه، فهم تجسيد عملى للميراث النبوى. ولقد أحال الرسول ﷺ الأمة إلى التشبث بالقرآن تطبيقا وبالعترة محبة واقتداء، فقد زاد الإمام أحمد والنسائى والترمذى على ماسبق قوله عليه الصلاة والسلام: «**فانظروا كيف تخلفونى فيهما**» فهذا تشريع لاتباعهم، فقد ورث العلماء من الرسول ﷺ أقواله، وورث الأولياء أحواله. والأحوال هى الأصل فى السلوك والاتباع والهداية وهذا لمن التزم منهم وظهرت كرامته وخاصة فى تتويب العصاة.

أهمية أحاديث الثقلين:

إن أحاديث الثقلين مع أهميتها القصوى فإنها مغمورة مطمورة، مع أنها مروية عن علماء أجلاء من أهل السنة ومن أكابر المحدثين فى الصحاح بأسانيد متعددة، واتُّفِقَ على روايتها. فرواها: مسلم والترمذى فى الصحيح، والإمام أحمد بن حنبل فى مسنده، والثعلبى فى تفسيره، وابن المغازلى فى المناقب، وصاحب الجمع بين الصحاح الستة، والحميدى، والسمعانى فى فضائل الصحابة، وموفق ابن أحمد، والطبرانى وابن حجر فى الصواعق وغيرهم، ورويت هذه الأحاديث من طريق أهل البيت باثنين وثمانين طريقا، وفى العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى، وفى ذخائر العقبى لأحمد بن عبدالله الطبرى، وفى تفسير الخازن عندما تعرض لآية الاعتصام، وفى تفسير ابن كثير فى آية المودة، وفى تفسير آية التطهير، وفى الحلية لأبى نعيم الأصفهانى، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، وفى أسد الغابة لابن الأثير، وفى الدر المنثور للسيوطى، ولسان العرب لجمال الدين الإفريقى. فعن زيد بن أرقم عن النبى ﷺ قال: «**أنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به**» فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: «**وأهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى**».

وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال: «**إنى تارك فيكم الثقلين**».

وفى رواية: «**خليفتين: أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى، وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض**».

وفى رواية: «**إن اللطيف الخبير أخبرنى أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا بما تخلفونى فيهما**».

وفى رواية أخرى: إنى تارك فيكم أمرين لن تضلوا إن تبعتموهما، وهما كتاب الله، وعترتى أهل بيتى».

وفى رواية: «إنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى: الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى، وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض».

إن حديث الثقلين من أوثق الأحاديث النبوية، ولقد اهتم به العلماء اهتماما بالغا - يوم أن كانوا يرجون الله والدار الآخرة - لأنه يحمل جانبا هاما من جوانب العقيدة الإسلامية، ولأنه نقطة التحول من النظرية إلى التطبيق، من الميراث النظرى إلى الميراث العملى، من الثابت إلى المتحول الذى يريد أن يأخذ دوره فى دنيا الناس وعند الله.

إن حديث الثقلين برواياته المختلفة يمثل روح الإسلام، كما أن الحديث الأول يمثل جسد الإسلام. فكما أنه لايجوز فى شرعة العقل أن يكون هناك وجود طبيعى لجسد بلا روح، ولا روح بغير جسد. كذلك لايأخذ الإسلام دوره فى أداء الرسالة المحمدية بدون التركتين : النظرية والعملية.

فكثيرا مايلقى على أسماع الناس من نصوص الكتاب والسنة ما تشنف له الآذان وتطيب له النفس، ولكن بعد مفارقة الملقى تذروه رياح النسيان، ويندمج المتلقى مع ماتعوده واعتاده مرة أخرى ولو كان مخالفا لما ألقى وسمع. بل إنه قد يزيد فى غيه وفتنته بأمور الحياة أكثر من ضلاله القديم!!.

وهذا سر انتشار المعاصى والموبقات والسلوك غير السوى فى الآونة الأخيرة مع انتشار العلم، والكثرة الكاثرة من الناطقين بلغته، والمتنافسين على ترديده،

ولاسيما من يحاولون أن ينصبوا أنفسهم حماة لعرينه تحت أى مسمى ما أنزل الله به من سلطان.

ولكن قاتل الله شهوة حب الظهور، وشهوة الشهرة والسيطرة والأغراض الدنية!! إن هؤلاء الذين يرددون النصوص الكريمة دون روح نورانية فى قلوبهم، وبغير مقصد شريف يرجى منه رضاء الله: هم خطباء الفتنة، الذين يثيرون الفتن والقلاقل والجدل العقيم وكراهية الناس لبعضهم، إنهم الذين يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالايقولون، وهم من رأى النبى ﷺ نماذج تُصُوِّرُهم بأنه تقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قرضت عادت كما كانت، فقال ﷺ: «مَنْ هؤلاء يا أخى ياجبريل؟!! **قال: هؤلاء خطباء الفتنة من أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون**».

وخطباء الفتنة أى الذين ينشرون الفتن والقلاقل والجدل والخلاف بين المسلمين، والذين يتنطعون فى طرحهم لمسائل فرعية خلافية فيأخذون منها برأى يتعصبون له ولو كان ضعيفا، ومن سمات هؤلاء الطعن فى أولياء الله تعالى من العترة المطهرة الذين أمرنا بمودتهم ومحبتهم و«الاقتداء بهم»، كما ورد فى حديث الثقلين.

فنحن مكلفون بالاقتداء الفعلى بمن يحل حلال القرآن ويحرم حرامه ويتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ من العترة المحمدية وهم موجودون فى كل زمان ومكان دون انتماءات طائفية تبعدنا عن روح الحب والصفاء الواجِبَيْن. وهم أولياء الله وعارفوه.

فكيف نعرف الولى من غيره، مع أن معظم الأولياء مغمورون بستر الله لهم؛ ليحسن المسلمون الظن ببعضهم؟

الواقع أن عطاءات الله للأولياء متفاوتة، فمنهم المغمور المستور، ومنهم الداعية المشهور: الذى يدعو إلى الله بالنور الذى يقذفه الله فى قلبه، وهذا النور لاترده حواجز ولا سدود فهو من منحة الوهاب الغفور، وهو أساس الدعوة الإسلامية، يشعر به كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

روح الإسلام النورانية:

إن دعوة النبى ﷺ لم تغز قلوب القرشيين المتحجرة بـ «النص» فقط، بل العامل الأكبر هو «روح النص» الذى يتمثل فى النور الذى كان يشع من قلب النبى ﷺ إلى قلوبهم فيفتت قساوتها ويحيلها إلى قلوب حية واعية تلتقط أنوار الإسلام فيسكن فى المهج والسويداء، ويصبح الإنسان ملكا فى صورة إنسان: ﴿ ...**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور].

إن الصحابة بعد أن تذوقوا هذا النور الذى هداهم إلى الله تعالى كانوا يحرصون عليه حرصهم على حياتهم، فلا يقترفون المعاصى والمخالفات التى ألفوها من قبل خوفا من هروب هذا النور من قلوبهم، بل إنهم كانوا يفرحون بزيادته، ويحزنون من نقصانه.

فلقد أتى الصحابة رضوان الله عليهم إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يارسول الله، إنا إذا كنا معك رَقَّتْ قلوبنا وأقبلنا على الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا فشممنا نساءنا وأولادنا!! فقال ﷺ: «**لو تكونون على كل حال على الحال التى كنتم عليها عندى لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتكم فى بيوتكم**».

فإذا خلا قلب من هذا النور كان صاحبه منافقا، وإذا تناقص صار عاصيا بمقدار هذا النقصان، وإذا زاد هذا النور وفاض كانت له ولاية من الله تعالى وعناية بقدر هذه الزيادة. حتى إذا امتلأ القلب بذلك النور وفاض كان من الأولياء الكُمَّل المأذون لهم بالدعوة إلى الله تعالى على بصيرة الإيمان.

أهم علامة للولى: أن يعطيه الله تعالى قوة خفية بها يهدى الله العصاة على يديه، ويزداد المطيعون فى طاعتهم لربهم، وتكثر إنابة المنيبين، وتلك القوة النور الذى يكون أقوى من أشعة الليزر فى تفتيت قساوة القلب وعودة ليونته الفطرية.

أولياء الله: قال الله تعالى: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴿٦٢﴾ **الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴿٦٣﴾ **لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس].

الأولياء جمع ولى، فمن هو الولى؟

إنه من دواعى الدهشة أن نرى أعداء للأولياء، ينكرون وجاهتهم عند ربهم، ويعـملون على بغـضهم، وإنكار كـرامـاتهم، ويحاولـون أن يصرفـوا الناس عن طريقتهم وعن مـحبتهم وزيارتهم أحـياء أو منتقلين. بل إنهم يعتـبرون أن نحلتهم تلك، وبغضهم لأحباب الله هو عين الجهاد فى سبيل الله، وتنقية للدين من البدع والخرافات والشعوذة والشرك والوثنية والقبورية!!

كبـرت كلمة تخرج من أفـواههم إن يقولون إلا كذبـا، وعلى الباغى تدور الدوائر.

إن موقف هؤلاء المزرى: من العـارفين بالله تعالى، يدل على عدم التـوفيق وعدم رضـا الله عليهم مـهما تظاهروا بالشـعائر الإسـلامية، أو تزينوا بـشكليات الدين، أو ادعوا البراعة فى العلم والمعرفة.

فالإسـلام قد حـسم قضيـة ادعاء العلم والصـلاح بإيجابه للـحب والاتباع لأحباب الله، قـال الله تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ... ﴿٣١﴾ ﴾ [**آل عمران**] لأن حبيب الحبيب حبيب، وبالتالى فإن عدو الحبيب عدو.

ففى الحديث القدسى الذى ورد فى الصحيح: أن الله تعالى قال: «من عادى لى وليا فقـد آذنته بالحرب» وآذنته أى أعلنت الحرب عليه وأعلمـته بها، ولاتكون الحرب إلا لعدو، وويل لمن وقع الحرب بينه وبين الله تعالى.

ولم يعلن الله سبحانه الحرب إلا على فريقين من العصاة:

١ - المرابى. قال الله تعالى فيه: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ** ﴿٢٧٩﴾ ﴾ [**البقرة**].

٢ - المعادى للأولياء بتشكيك أو اعتراض أو سب أو حقد عليهم.

إن هؤلاء المعتـرضين على الأولياء يملأ الحقـد والحسد قلوبهم على أحـباب الله، فيريدون أن يميعوا القضية، وأن يخـرجوها من دائرة الخصوصية حيث منحها الله تكريما لأحبابه، فيأتون بفرية عجيبة ويقولون: إن جميع المؤمنين أولياء، وهذه كلمة حـق ولكن أريد بها باطل، فـإن كل المؤمنين أولياء بولاية التـوحيـد فقط، وليس بالولاية الخاصة المرتبطة بالتقوى والبشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

أنواع الولاية:

الولاية اسم مشتق من الولى. وهى: نوعان ولاية عامة وولاية خاصة، فالولاية العامة تعم جميع المؤمنين وهى ولاية التوحيد التى أفاضها الله سبحانه على قلب كل مسلم، ولايجوز الاقتصار عليها والاكتفاء بها، بل لابد من العمل الصالح والتقوى ظاهرا وباطنا، وفى هذه الولاية العامة يقول الله سبحانه: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ...** ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة]: أى من ظلمات الكفر والشرك إلى نور التوحيد.

والولاية الخاصة: هى المختصة بالواصلين الذين وصلوا مقام الإحسان من أرباب السلوك ـ فهم من قال الله سبحانه فيهم:

﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴿٦٣﴾ **لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس].

وفى تفسير فريد وجدى ص ٢٨٣: (أولياء الله) أى الذين يتولون الله بالطاعة ويتولاهم بالكرامة التى تكون بشراهم فى الدنيا. ثم يقول مفسرا:

«ألا إن أولياء الله الذين يتولونه بالطاعة لاخوف عليهم من وقوع مكروه ولاهم يحزنون من فوات مأمول، وهم الذين آمنوا به إيمانا صادقا وخافوه فوقفوا عند حدوده، ولهم البشرى فى الحياة الدنيا بما يتلونه فى كتاب الله مما أعده لهم، ولهم البشرى فى الآخرة يوم تتلقاهم الملائكة مهنئينهم بالنجاة، فلا إخلاف لوعد الله، ذلك هو الفوز العظيم».

وفى تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٤٢٢: يقول:

«يخبر الله تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسرهم به فليس بعد تفسير الله تفسير، فكل من كان تقيا كان لله وليا» ولكن التقوى يفهمها الكثيرون خطأ فهم يقولون عنها: إن تنفيذ المأمورات وترك المنهيات حتى ولو كان ذلك بالقالب فقط أى أعضاء الجسم الظاهرة وفاتهم أن المحل الحقيقى للتقوى هو: «القلب»؛ لأن النبى ﷺ قد أشار بأصبعه الشريف إلى صدره الشريف وقال: «التقوى هاهنا التقوى هاهنا».

وذلك للقلب السليم الذى فيه سراجه المزهر الذى يدفع المعاصى ولايقبلها لكمال خشيته لربه، ويعمل الطاعات تقربا إلى الله لأنها تسعده حيث يجد لذة القرب ومتعة الأنس بالمحبوب سبحانه.

ومعروف أن الذنوب نوعان:

١ ـ نوع يكون محسوسا ويتعلق بأعضاء الجسم الظاهرة، وهذا النوع فيه ماهو من قبيل الذنوب الصغائر وماهو من الكبائر، ومن السهل أن يتوب العبد وأن يقلع عنها إذا ما أصر على ذلك.

٢ ـ نوع معنوى قلبى، وهذا النوع كله من الكبائر، ولايستطيع العبد أن يقلع عنها وحده، مهما قرأ عنها، وماتحدث أمام الناس بها، ألا وإن الكثيرين لايفطنون إلى هذه المعاصى القلبية الخطيرة، والتى يزداد انتشارها يوما بعد يوم فى أيامنا هذه، والتى يزكى فيها الإنسان نفسه، وتغالبه الأثرة والأنانية والافتتان والتطاحن عليها والطمع فى مال الغير وحاجته، والتحولات الاجتماعية الواضحة التى جعلت من كان موسرا قبل ذلك صار معسرا ومن كان وجيها أصبح وضيعا ومن كان معافى سليما أصبح مريضا مرضا مزمنا، وهكذا دواليك، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا. وهى ظاهرة تاريخية معروفة وسنة من سنن الكون، ولكنها غدت واضحة مرصودة لفقدان الغنى النفسى وعدم الرضا الذاتى، والقناعة بما أعطاه الله وما قضاه وقدره، فانتشرت المعاصى بكل أبعادها وبخاصة القلبية.

خوف الرسول ﷺ على أمته من تنافسهم على الدنيا:

لقد خشى الرسول ﷺ على أمته من اختلافهم مع بعضهم البعض بسبب الدنيا والتنافس عليها من مال وجاه وسلطان. فقال ﷺ ـ كما فى صحيح البخارى فى باب الفتن والخوارج: **«والذى نفس محمد بيده إنى لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدى بالله شيئا ولكن أخوف ما أخاف عليكم أن تبسط عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من كان قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم»**.

لأن الذنوب القلبية التى لاعلاج لها إلا عند أطباء القلوب من أولياء الله وعارفيه هى: الحقد والحسد والكبر والعجب والغرور وسوء الظن والرياء وحب

السمعة الكاذبة والغل والكراهية والأنانية والبخل والشح والغضب وحب التشفى والانتقام وحب الثناء والشماتة بالأعداء والفجور فى الخصومة وما إلى ذلك مما يكون سببا فى سخط الله. ولايمكن لمن كانت عنده هذه العيوب أو بعضها أن يكون وليا مهما تعلَّم أو تعبَّد؛ لأن الولى من والى الله صافى القلب بطاعته وإنابته المستمرة إليه فوالاه الله بمغفرته له وستره ورضوانه وإكرامه واستجابة دعائه وأنواره وأسراره.

سمات الأولياء وأثرهم فى الأمة:

إن أهم سمة لهم هى: السقى النورانى لكل من رآهم على حب لهم وتكريم، فيتحول من عاص إلى مطيع، ومن مذنب إلى تائب، ومن غافل عن ربه إلى ذاكر أواب.

قال رسول الله ﷺ: «**أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله**».

فعن عبدالله بن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم وغيرهم من السلف أن رسول الله ﷺ قال: «**أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله**».

والمراد بذلك: أن مشاهدتهم رضى الله عنهم تشعر قلوب أهل الغفلة بيقظة تجعلهم يذكرون الله تعالى: لما يعلو وجوههم من البهاء والنور والهيبة وآثار الإخبات والخشوع والسكينة والوقار.

وقد جاء فى تفسير النيسابورى: أن رسول الله ﷺ قال: «إن من عباد الله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء لمكانهم من الله» قالوا: يارسول الله أخبرنا من هم؟ وما أعمالهم فلعلنا نحبهم؟ قال: «هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم نور، وإنهم على منابر من نور، لايخافون إذا خاف الناس ولايحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ: ﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس]». وروى الحاكم وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال: «**وددت أنى لقيت إخوانى الذين آمنوا بى ولم يرونى**».

وذلك لأنهم ذووا فضل وشرف، ولبيان علو منزلتهم لأنهم هم القائمون له بنشر سنته وإحياء طريقته وإحياء شريعته دائما وأبدا دون مَنٍّ ولا أذى. وروى

الإمام أحمد عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿**لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ...** ﴿٦٤﴾﴾ [يونس] قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له». فالأولياء هم الذين جمعوا بين الإيمان الكامل والتقوى الدائمة المتواصلة مشاهدة ومراقبة. فهم الذين فروا بقلوبهم إلى الله حتى وصلوا إلى حظيرة القدس، وجلسوا على بساط الأنس، فأقبلوا على طاعة ربهم بعزائم صادقة، وقلوب نقية طاهرة، وأرواح زاكية صافية، حتى أصبحوا محلا للفتوحات الربانية، والعطاءات الصمدانية، والمكاشفات النورانية. فالعارفون بالله: هم أهل الحضرة المخاطبون بعين المنة، فكيف يمكنهم أن يكونوا لسوى الله مستندين، وهم لوجود الأحدية مشاهدين[١].

فالنور الذى يسطع بقلب العارف الواصل يوصله إلى المعرفة، ويمنحه قدرة عظيمة فى العلم الكسبى والوهبى عن طريق الفيض والإلهام والفراسة، لأنه إذا صفت مرآة القلب من صدأ المعاصى والهواجس والغفلات، فإنه يسطع عليها نور اليقين، ويرى العارف بقلبه مالا يراه غيره من الناس بأبصارهم.

قلوب العارفين لها عيون .... ترى مالايراه الناظرون

وأجنحة تطير بغير ريش .... إلى ملكوت رب العالمين

مخاطر الطعن فى الأولياء:

سبق أن تعرضنا لهذه المسألة، ولكن نظرا لخطورتها الفادحة فإننا نعود على مابدأناه فيها؛ فلايجوز الطعن فى أحباب الله من الأولياء وأهل الصلاح، بل ولا الجلوس مع من يقع فيهم؛ لأنهم قوم قد تولى الله أحوالهم، فمن وقع فيهم فإنه يسقط من عين الله، ويستوجب المقت منه عز وجل، فيهلك مع الهالكين.

ومحظور أن يُستهزأ بواحد منهم، أو يُعترض عليه، ولايجوز أن تقيس أحواله بأحوالك، أو تطبق أعماله على أعمالك، بل طبق أعمالك على الكتاب والسنة، فإن هؤلاء القوم قد أنسوا بالله، وملئوا قلوبهم حبا وَوَلَهًا فى حضرته، وراقبوا أنفاسهم معه، وسلموا قيادتهم إليه، وألقوا أنفسهم سَلَمًا بين يديه، وتركوا

(١) طريق الله لفضيلة العارف بالله، أستاذنا الشيخ أحمد الشافعى أبو خليل جـ٢ ص١١٢ .

الانتصار لأنفسهم حياء من ربهم، فكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غلبهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [الحج].

حكم التصوف وضرورة الاقتداء بشيخ عارف:

لما كانت الحكمة من وجودنا فى هذه الحياة هى: معرفة الله تعالى علما ومذاقا، وحيث إنه قد لوحظ فى عصرنا الحديث انتشار المعاصى وفساد القلوب بما لم يعهد من قبل فإنه يجب على من انفرط عِقْدُهُ من ربه، وعجز عن أن يقدم لربه توبة نصوحا يتطهر أثناءها من أدران المعاصى: أن يأخذ الطريق على يد شيخ مجرب فى تطبيبه للقلوب وإصلاح الخلق على علام الغيوب، ويتأكد الوجوب أكثر على علماء الشريعة، فقد قال أحد العلماء المحققين: إن العالم إذا لم يتصوف على يد عارف بالله يخشى عليه من سلب الإيمان!!.

لأن **التصوف من أجلّ العلوم قدرا، وأعظمها محلا وفخرا،** وهو الذى تعرف به أحوال النفس محمودها ومذمومها، وكيفية تطهيرها من المذموم منها، وتحليتها بالاتصاف بمحمودها، وبه يعرف كيفية السلوك والسير إلى الله تعالى، والفرار إليه[1].

فكفى به تهذيبا للنفوس وتنويرا للقلوب، ومعرفة لعلوم الغيوب، وسلامة للصدور، وحُسْنًا للخُلُق مع كل مخلوق، والنجاة فى الآخرة، والفوز برضاء الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم.

فقد قال الإمام الطيبى رحمه الله: «لاينبغى للعالم ولو تبحر فى العلم، حتى صار فريد عصره، وواحد زمانه أن يقتصر على علمه، وإنما الواجب عليه: الاجتماع بأهل الطريق ليدلوه على الطريق المستقيم، حتى يكون من قوم يحدثهم الحق فى سرائرهم من شدة صفاء باطنهم، ويخلصهم من الأدناس.

وأن يجتنب ما شاب علمه من كدورات الهوى، وحظوظ نفسه الأمارة بالسوء، حتى يستعد لفيضان العلوم اللدنية على قلبه، والاقتباس من مشكاة أنوار النبوة، ولا يتيسر ذلك عادة إلا على يد شيخ كامل عالم بعلاج أمراض النفوس،

---

(١) المصدر السابق.

وتطهيرها من النجاسات المعنوية، وحنكة معاملاتها علما وذوقا؛ ليخرجه من رعونات نفسه الأمارة بالسوء ودسائسها الخفية.

فقد أجمع أهل الطريق على: وجوب اتخاذ الإنسان شيخا له، يرشده إلى زوال تلك الصفات التى تمنعه من دخول حضرة الله بقلبه؛ ليصحح حضوره وخشوعه فى سائر العبادات».

ولاشك أن علاج أمراض الباطن واجب، ولايمكن لإنسان أن يعالجها بنفسه، وقديما قالوا: مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فليكن تصوفك على يد شيخ عارف بالله تعالى، فإن المقطوع لايوصل مقطوعا، وفاقد الشىء لايعطيه، فإذا لم تجده فأكثر من الصلاة والسلام على النبى ﷺ، فهى شيخ من لاشيخ له، وهى تضىء القلب، وذلك حتى يتيسر لك شيخ يهذب نفسك ويرقى روحك فى مدارج السالكين إلى الله تعالى، ولاشك فى أنك ستعثر عليه إذا أخلصت فى نية البحث عنه.

إذ أنّ هذا الشيخ، يعاهدك على طاعة الله ورسوله، ويريك عيوب نفسك، ويساعدك بدعائه وروحه المشرقة على التخلص منها، ويعينك فى السلوك إلى الله على بصيرة، وإلا تعرضت لفتنة الشيطان والنفس إذا سلكت وحدك.

وبتلك المساعدة من شيخك يزداد يقينك، وتشعر بحلاوة الإيمان فى قلبك، ويمنح الله صدرك ميزانا حساسا تزن به إيمان نفسك، وتميز به الحلال من الحرام، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴿٢٠١﴾ ﴾ [**الأعراف**]. فلا غرو فقد أصبحت من عباد الرحمن، قال الله سبحانه: ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴿٤٢﴾ ﴾ [**الحجر**].

أخذ العهد أو البيعة

مشروعية العهد والبيعة:

يقول الرسول ﷺ: «**خالطوا أهل الحكمة وجالسوا أهل اليقين**»، فكل بيعة قد حصلت بعد النبى ﷺ فهى تجديد لبيعته عليه الصلاة والسلام، وبيعته ﷺ بيعة لله تعالى، قال سبحانه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ...** ﴿١٠﴾ ﴾ [**الفتح**]

والشيوخ العارفون بالله تعالى: نواب عن رسول الله ﷺ حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ألا وإن علم الأحكام الظاهرة سهل التحصيل، بل قد تحصله وحدك بدون معلم إذا كنت مجتهدا فى الاطلاع.

أما علم الأخلاق القلبية الباطنة فصعب المنال، بعيد المراس، لاتستطيع تحصيله إلا على يد مرشد، قد ربى قلبه بسلوك طريق القوم، وجاهد نفسه فيها حتى عرف ربه، فقد قال الله سبحانه: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق] أى قلب سليم مما سوى الله تعالى، فهو مملوء بأنوار المحبة القدسية.

ألا وإن هؤلاء الأئمة المرشدين فى الأخلاق الباطنة قد عُرِفوا بالسادة الصوفية، ولقد سأل عباد الرحمن ربهم أن يجعلهم أئمة للمتقين، فقالوا فيما حكى الله عنهم: ﴿ ... **وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴿٧٤﴾ ﴾ [**الفرقان**].

وقد ثبت فى صحيح البخارى أن النبى ﷺ قال لأصحابه يوما: «هل فيكم رجل غريب» ـ أى أهل كتاب ـ قالوا: لا، فقال بعد أن أمر بغلق الباب «غمضوا أعينكم ثم قولوا لا إله إلا الله» ـ كررها ثلاثا ـ ثم قال: «اللهم إنك قد أمرتنى بهذه الكلمة وبعثتنى بها ووعدتنى عليها الجنة» ثم قال: «أبشروا فقد غفر الله لكم» فجعل الشيوخ الصوفية ذلك أساسا فى أخذ العهد إلى يومنا هذا.

هذا، وإن أهم شرط فى التصوف هو : أخذ العهد الذى يعبر عنه كتاب «المنقذ من الضلال» للشيخ الغزالى بأن الشرط الجوهرى هو: «التأثير الروحى» أو «البركة» وذلك لايتأتى إلا بواسطة شيخ عارف بالله، وهذا الشيخ قد أخذ عن شيخ .. وهكذا فى سلسلة متصلة الحلقات حتى تنتهى السلسلة بسيد الخلق ﷺ. وهل السلسلة إلا بركات متحركة أو تأثير روحى من شيخ إلى مريد، يريد أن يرتبط سلوكا وروحا بالسلسلة المحمدية التى تخلع بركاتها، أو تأثيرها الروحى النورانى عليه، ثم يقول الغزالى ـ قدس الله سره ـ: «إن التصوف ليس عملا علميا ولابحثا نظريا، إنه لايتعلم بواسطة الكتب على الطريقة المدرسية بل إن ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم لايستخدم إلا كحافز مقوٍّ للتأمل، والإنسان لايصير بمجرد قراءته متصوفا.

وإن ما كتبه كبار الصوفية لايفهمه إلا من كان أهلا لفهمه، مثل كتاب الفتوحات المكية لابن عربى وغيره.

شروط السير فى طريق التصوف:

لابد لمن يريد أن يتصوف وأن يأخذ قضية الدين بقوة العزائم، لا بالرخص والتأويلات. من سلامة القصد وعلو الهمة واستحضار القلب دائما لاسم الجلالة كنقش ثابت، تتلاشى وتذوب أمامه جميع الهواجس والأفكار، إلا ما كان ضروريا للتعايش مع الخلق، لكنه يجب أن يمرر سريعا وفى كنف فكرة الألوهية التى يجب أن تكون مستحوذة على معظم الفكرة والإحساس إن لم تكن كلها؛ إذ الكل منه وإليه سبحانه، وذلك باتباع الشروط الآتية:

١ ـ استعداد فطرى خاص ـ أى فلابد أن تكون نفس المريد مستعدة للتلقى استعدادا فطريا خاصا، كى يستفيد من الرياضة الروحية سعادة الوصول والاتصال، فإذا لم تكن النفس مستعدة لاستقبال الاختبارات والأحوال والمقامات والواردات فلن تصل إلى سعادة الوصول، وإن استفادت النفس السلامة ـ فهناك فرق واضح بين الصديقين أرباب درجة السابقين السابقين وبين غيرهم أهل من درجة أصحاب اليمين. فهذا الاستعداد لايغنى عنه اجتهاد أو كسب.

٢ ـ الانتساب إلى «سلسلة» صحيحة؛ إذ إن البركة التى تحصل من الانتساب إلى السلسلة الصحيحة هى الشرط الأساسى والجوهرى الذى لايصل الإنسان بدونه إلى أى درجة من درجات التصوف حتى البدائية منها.

فهذا معناه أنه لابد من أخذ العهد على شيخ واصل موصل بإذن الله، متصل بسلسلة من شيوخ مباركين حتى تصل إلى سيدنا رسول الله ﷺ. فمن أجل أن يكمل الدين، وتظهر ثمرة كماله بمقام الإحسان، ويتوج التوحيد الخالص بحق اليقين واليقين الحق، فلابد من السقى النورانى عن طريق هذه السلسلة النورانية الممتدة إلى سيدنا رسول الله ﷺ. وإلا ما كان ثمة وصل ولاتحقيق، كما أن من لم يُسلِّم على النبى ﷺ فى تشهده فى الصلاة، فصلاته باطلة ولا صلاة

له. فالمتصوف عن طريق السلسلة التى ارتبط بها يعايش الرسول ﷺ معايشة روحية بقدر استعداده، وارتباطه بهذه السلسلة المباركة.

٣ ـ المجاهدة، فالحب تضحية، والتصوف الحقيقى هو: الجهاد الأكبر: جهاد النفس والشيطان، ولكى يتحقق هذا الجهاد فلابد من:

التأمل الروحى المستغرق، وفى الذكر المستمر «سرا وجهرا» ليستفيد ويفيد فى عصر طمست فيه جل البصائر بالماديات، واستوحش الناس فيه أهل الذكر والصلاة، واستأنسوا أهل الفحش والمحرمات، فإذا ما استمر المتصوف فى الذكر دائما فى الخلوات والجلسات، فقد انتصر فى جهاده الأكبر على شياطين الإنس والجن، فينظر الله إليه بعين الرحمة والقبول، ويسهل عليه مهمة الوصول، وقد يتوب الله تعالى على كثير من العصاة بسببه، فلا يجوز للمتصوف أن يخجل من الطاعة والذكر ما دام لايداعبه الرياء، وإنما يقصد وجه بارئ الأرض والسماء.

فالمفروض أن يشارك الجميع فى طاعة الله وعرفانه؛ حيث إننا لم نخلق جميعا إلا لذلك، ولكن القضية إنما هى فى «التوفيق»، والتوفيق شىء عزيز ولا يعطى إلا لعبد عزيز على الله: ﴿ ... **وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ** ... ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود].

إذًا لابد فى المتصوف: أن يستحضر الله فى كل ما يأتى ومايدع، وأن يكون فى منأى عن المخالفات والبدع، وأن يكون تركيزه فى الملأ الأعلى، فيصل موفقا من درجة إلى درجة حتى يصل إلى أعلى الدرجات، وهذه حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت، فيصبح الصوفى ربانيا، وذلك هو الصوفى الحقيقى.

ويقول العارف بالله سيدى الشيخ أحمد الشافعى أبو خليل رضى الله عنه فى الشيخ وأخذ العهد عليه[1]:

العهد: «عروة وثقى تربط بين المتعاهدين برباط وثيق بينهما: على طاعة الله وتطهير النفس من حظوظها، ومما علق بها من النجاسات المعنوية، ودسائسها الخفية، مثل: الطمع والغرور ووسوسة إبليس.

فكما أن كل عمل فى هذه الحياة: لابد له من معلم يعلّم، أو مرشد يرشد، أو قائد يوجه، أو واعظ نصوح يذكر وينذر، فكذلك من يريد الوصول إلى هذه

---

(١) طريق الله فى التصوف ج١ ص١٦ .

المقامات الروحية، فعليه أن يتخذ شيخا له يتبعه؛ ليرشده إلى زوال تلك الصفات، أو يزيلها هو عنه بمداد النور من روحه المشرقة بأنوار النبوة، إذ إن تلك الصفات السلبية هى التى تمنعه من الوصول إلى ربه، وذلك ليصح حضوره وخشوعه فى سائر العبادات، فيعبد مولاه على بصيرة ومعرفة بعد زوال الحجب التى كانت على قلبه».

شروط الشيخ المربى[1]:

يقول سيدى الشيخ أحمد الشافعى ـ رضى الله عنه ـ: وشرطى فى الشيخ أن يكون من المتصلين بالله، على بصيرة، عالما بعلاج أمراض النفوس، قد أوتى حظا من العلم، به عرف حدود الله وحقه على عباده، وتحلى بقدر من التقوى التى تعصم العقل من الوقوع فى الزلل العقلى فلا يغرب، والضمير فلا يغفل، ووهب نفسا زكية شيَّعها الإيمان بالحق، وألبسها ثوبا من خشية الله وجبروته؛ لينفتح أمام المريد كتاب عهد جديد تتوالى صفحاته بتوافى النفوس على الخير والبر، وتواطئها على النشاط، وتحفز الهمم الوانية، وتوقظ الضمائر الغافلة، وتهيب بشوارد الأنفس إلى سواء السبيل».

ثم يلخص الشيخ رضى الله عنه ذلك فى قوله: ولقد أجمع العارفون من رجال الصوفية على أن الشيخ المربى ينبغى أن يتوافر فيه:

١ ـ ذوق صريح. ٢ ـ علم صحيح. ٣ ـ همة عالية.

٤ـ حالة مُرْضِيَة. ٥ ـ بصيرة نافذة.

أوصاف الشيخ الذى يصلح للتربية

ليس كل من جلس على أريكة المشيخة يكون شيخًا يصلح لتربية المريدين إذا لم توافه عناية الله، ولم يَجُبْ طريق الله طولا وعرضا، أو شغلته الفانية عن الباقية. فأخذ الطريق جاها يتيه به على أقرانه، أو منفعة مادية قد اكتفى بها عن آخرته، فمثل هذا يكون مبتور الصلة من ربه، فالمقطوع لايوصل مقطوعا، وفاقد الشىء لايعطيه، فلابد من أوصاف خاصة بالشيخ المربى هى:

---

(١) نفس المرجع ص١٧، ١٩ .

أن يربيه الحق من صغره: فتراه فى الطفولة معتزلا عن الصبيان، وكأنه فى الصبا شيخ ينبو عن الرذائل، ويفزع من النقائص، ثم لاتزال شجرة همته تعلو حتى يرى ثمرها متهدلا على أغصان الشباب، فهو حريص على العلم، منكمش على العمل، ساع فى طلب الفضائل، خائف من النقائص.

فلو تصورت التوفيق والإلهام الربانى، كيف يأخذ بيده إن عثر، ويمنعه من الخطأ إن هَمَّ، إنه يقيم على الفضائل ساترا عمله وصلته بربه بحيث لايطلع على ذلك إلا ربه، ولايهمه الخلق مَدَحُوا أم ذَمُّوا، فإن له خطا واحدا مع ربه، يستميت فيه ويحرص عليه بروحه، فهو لايأتنس إلا بربه، ويستوحش مما سواه، فلو تصورت النبوة تكتسب لدخلت فى كسبه.

من لايصلح أن يكون شيخا

إن من لم تتوافر فيه العوامل والأوصاف السابقة لايصلح أن يكون شيخا، ولاترى ثمرة فى اتباعه، فلا يكون العيب عيب التصوف ومنهجه، ولكن العيب عيب الشيخ الدعىّ الذى نَصَّب نفسه، ولم يستحى من ربه وعطل نفسه، وعطل غيره معه. وهذا من أخطر أسباب انحراف الأمة فى هذا العصر، فمعظم مشايخ الطرق ليسوا على مستوى الدعوة إلى الله تعالى، وليست لديهم بصيرة يعالجون نفوس العصاة بها، ولاترقية أرواح السالكين، وكذلك غالبية علماء الشريعة والدعاة الآن ليسوا من الصوفية فأصبح علم أكثرهم غير مؤثر فى القلوب، كما كان السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان من أهل مقام الإحسان، من علماء الأزهر الشريف الذين تعلموا وعلموا الناس ابتغاء مرضاة الله وأظهر الله على أيديهم خوارق العادات فخلف من بعدهم خلف منهم من لايستهويه إلا جمع المال، ومنهم من يعلن عداءه للأولياء ولايكلف نفسه القراءة عنهم لكيلا يقع فى محاربة مع الله الذى يقول فى الحديث القدسى: «من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب» فمهما فسد العصر فلابد من وجود أولياء لله.

فقد قال ﷺ: **«الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة»**.

ولقد قال ﷺ: **«خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الأقرب فالأقرب»** وإن كان بعض علماء الأزهر فيهم خير وحب للأولياء ولكن لم يشغلوا الساحة وكذلك حال العلماء فى الأمة.

موقف أئمة الدين من التصوف

لما كان التصوف هـو سبيل لإقامة أعظم مقام من مـقامات الدين، ألا وهو: «مقام الإحـسان»، فإن أئمة الدين من أهل الفضل من جـهابذة العلماء الذين أثروا العـالم بعلمـهم وورعـهم وتقـواهم، كانـوا يتتلـمذون على أيـدى المتصـوفـين ويشاركونهم فى مجالسهم؛ ليستفيدوا من علمهم ما لم يكن عندهم، وليقتدوا بهم فى صدق النية والورع والإخلاص.

فالإمـام الشافـعى والإمام أحمـد بن حنبل[1] كانا يـترددان على مـجالس الصوفيـة، ويحضران معهم فى مجلس ذكـرهم، فقيل لهما: مـالكما تترددان إلى مثل هؤلاء الجهال؟.

فقالا: إن هؤلاء عندهم رأس الأمر كله، وهو: تقوى الله عز وجل ومحبته ومعرفته. ولقد كانا يكثران من الجلوس مع ولى الله أبى حمزة البغدادى، ويطلبان الدعاء منه. ولقد قال الإمام أحمد لابنه عبدالله بعـد صحبته لأبى حمزة البغدادى رضى الله عنه، وبعـد معـرفتـه لأحوال القـوم وأسرارهم، قـال لولده ناصحـا: «ياولدى عليك بمجـالسة هـؤلاء القوم، فـإنهم زادوا علينا بكثـرة العلم والمراقبـة والخشية والزهد وعلو الهمة».

ولقد ورد أن السـبب فى تصوف سيدى داود الطـائى كلمة قالها له أسـتاذه الإمام أبو حـنيفة رضى الله عنـه، بعد أن فرغ من الفـقه على يديه، قـال: «يا أبا سليمان ـ كنيته ـ أما الأداة فـقد أحكمناها. قال: وأى شىء بقى يا أستاذى؟ قال: «العمل بها».

فشمر داود عن ساعد الجد، وتصوف حتى صار إماما من أئمة التصوف.

وكان الإمام مالك رضى الله عنه يقول: «ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو نور يقذفـه الله فى القلوب». وقد نسب إلى الإمـام مالك[2] أنه قال: «من تشرع ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتشرع فقد تزندق، ومن تشرع وتصوف فقد تحقق».

---

(١) طريق الله ج١ .

(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة ص٥، ٦ .

وكان الإمام أحمد بن حنبل مع مكانته فى العلم يذهب كثيرا إلى سيدى معروف الكرخى، ويسأله فى المسائل الغامضة عليه.

وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه: «صحبت الصوفية، فأخذت عنهم كلمتين قولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وقولهم: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك».

وقال سيدى عبدالوهاب الشعرانى رضى الله عنه: «كفى شرفا بعلم القوم «أى بعلم التصوف» قول موسى عليه السلام للخضر عليه السلام: (هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا) وهذا أعظم دليل على وجوب طلب علم الحقيقة أى التصوف وهو: علم الأخلاق الباطنة.

كلام الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى أئمة التصوف

قال رضى الله عنه: «لاتخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهرا مشهورا، أو خائفا مغمورا، لئلا تبطل حجج الله وبيناته، وكم هم، وأين أولئك؟، والله إنهم الأقلون عددا، والأعظمون عند الله قدرا».

ثم يصفهم رضى الله عنه فيقول: «هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون، عاشوا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى، أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة لدينه».

ثم قال فيهم أيضا: «عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية، لاعقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير ودعاته قليل» أى أهل البصيرة والنور.

موقف الصوفية من العلم والعلماء

يقول الله تعالى: ﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر] فخشية الله تعالى من الأهداف السامية عند الصوفية، فالعارفون بالله تعالى أخشى الناس لله، والمعرفة أساسها العلم بكل معانيه، وليس العلم الدينى فقط، بل العلم بما تحويه الدنيا من معارف وعوالم تلفت الذهن، وتمد القلب بطاقات الإيمان بمن أفاض الوجود.

قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ** ﴿١٩٠﴾ ﴾ [**آل عمران**] ثم يبين القرآن الكريم أن أولى الألباب هم العارفون بالله: ﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ...** ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران].

فالصوفية من دأبهم «الذكر» المستمر الذى منه: التدبر والتأمل فيما خلق الله، والنظر بعبرة إلى الظواهر الكونية التى تستحق البحث والدراسة والتأمل، قال الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ** ﴿٢٧﴾ **وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ...** ﴿٢٨﴾ ﴾ [**فاطر**].

ولذلك يشهد الله لأهل معرفته وصلته بخشيته لأنهم أكثر الناس إيمانا عمليا تطبيقيا. بل إنه سبحانه قصر الخشية عليهم فهم العلماء بالله، ومن كان عالما بالله، يمنحه الله من العلم ما لم يكن يعلم، ﴿ **... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ...** ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [**البقرة**] وفى الحديث الشريف يقول الرسول ﷺ: «**من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم**».

ولقد ورث الصوفية المتصلون بالله تعالى علما غزيرا فى مختلف العلوم، وبرز منهم من أراد الله ظهوره، وأخفى الله لحكمته من أخفاه.

وها هو حجة الإسلام أبو حامد الغزالى يقول(١):

«لقد انكشف لى أثناء خلواتى وجلواتى مع ربى أمور وعلوم ومعارف لايمكن إحصاؤها واستقصاؤها. ولكن القدر الذى أستطيع أن أذكره لينتفع به هو: أنى علمت يقينا أن الصوفية، هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم: أصوب الطرق، وأخلاقهم: أزكى الأخلاق.

بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئا من سيرهم، وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، فى ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

---

(١) المنقذ من الضلال ص١٢٨ .

ولم يقتصر علم الصوفية المنبثق من نور النبوة عند التبحر فى علوم الشريعة وأنوار الحقيقة فحسب، ولكنهم برعوا فى الكثير من علوم الحياة، وغالب الظن أن النظريات العلمية وأسس المعرفة التى طلع بها العلماء العرب على العالم، وأخذها الغرب وبنوا علمهم وحضارتهم عليها: كانت بطريق الإلهام، كما حدث لأبى الكيمياء جابر بن حيان. الذى أعلن أنه تتلمذ وتصوف على يد أستاذه وشيخه الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه، والذى كان قد عمل فى بيته معملا للكيمياء. قبل أن تعرف الجامعات والدراسات النظامية.

نعم لقد برز كثير من الصوفية فى علوم الحياة من: تاريخ وتقويم وهندسة وطبيعة ورياضيات وغيرها ممن كانوا فى العصور الإسلامية الأولى، وممن وجد فى العصور المتأخرة، وهاكم أمثلة للتوضيح فقط وليس للحصر:

١ ـ **الإمام المقريزى** ـ كان ذا صلة قوية بربه ـ يذكر ذلك الإمام السخاوى وهو يقدم لكتاب الخطط، فيقول: «إنه كان على جانب عظيم من حسن الخلق وكرم العهد وكثرة التواضع وعلو الهمة والمداومة على التهجد والأوراد وحسن الصلاة وملازمته لبيته».

فلقد كانت له المؤلفات المتعددة فى التاريخ والخطط والترجمة والسكَّة والأوزان والمقاييس، علاوة على: التوحيد والحديث والفقه ـ وإن غلبت شهرة التاريخ عليه»

٢ ـ **الإمام الدميرى**: الذى لعب دورا هاما فى الثقافة الغربية، واقتبس من علمه كثير من المستشرقين أمثال: «لين» والعلامة «يوكارت» والعلامة «هازل».

إنه صاحب كتاب «حياة الحيوان» الذى كان رائدا لكثير من علماء الفرنجة الذين استفادوا منه وحققوه واشتهر فى الأوساط العلمية.

وعن الدميرى يقول «لوسين ليكلير»: إنه أعظم عالم فى علم الحيوان أنجبته العرب، إنه كان نموذجا صوفيا عظيما، ومازال مسجده فى حى الحسينية بالقاهرة عامرا وله فيه مشهد يزار، فهذان مثالان من القرون الإسلامية المتوسطة، فما بالنا بالقرون الأولى، فقد كان المسلمون فى أوج نشاطهم وعنفوان قوتهم علما ودينا.

وفى القرون المتأخرة بدءا من القرن العاشر الهجرى وما تلاه: برز علماء صوفيون آخرون من أمثال: الخواص والشعرانى والدباغ، وكثيرون مما لا يحدهم

حصر ولا عد. فمنهم سيدى أبو خليل ومدرسته التى ما زالت تفيض بالمعارف والآداب فى كل اتجاه حتى الآن، ولاحرج على فضل الله تعالى.

١ ـ الإمام سيدى عبدالوهاب الشعرانى: برز فى جميع العلوم الشرعية من أصول وفروع وأحكام وتصوف، وغيرها مما هو متصل بعلوم الحياة، وقد ترجمت كتبه إلى لغات أجنبية كثيرة، وللأسف شُوِّهَ بعض منها مما هو متصل بسيرته الذاتية وتصوفه، حتى اتخذ معولا لضرب الإسلام بسلاح التصوف المفترى عليه، وقد وصله الدخيل الذى قد دس فى كتبه حقدًا وقد تبرأ منه فى كتابه تنبيه المغترين، لكن لم تكن وسائل الطباعة وإحكامها بالقوانين كما هى الآن، فكانت فرصة للمستشرقين والمستغربين ـ كما هو الحال فى السيرة الذاتية التى لسيدى أحمد البدوى رضى الله عنه التى شوهها الغرب لحقدهم عليه وتدمير معاهد الولاية الربانية التى قد تخرج أمثاله.

وما دروا أن الله فعال لما يريد، ولابد من وجود علماء بالله وعارفين حتى تقوم الساعة!!.

يرى الإمام الشعرانى أن علوم الحياة ضرورة دينية لتعمير الحياة، فما شرعت الأحكام الشرعية إلا لتحقيق المصلحة، فحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله تعالى. بل إنه يرى أن ذلك وسيلة للتقرب إلى الله عند أهل الحق والتصوف، وكيف لا!! والرسول ﷺ يقول: «من سعى فى حاجة أخيه قضيت على يديه أم لم تقض كان كمن اعتكف فى مسجدى هذا سنتين» ويقول الإمام الشعرانى فى كتابه «درر الغواص»: إن أهل الحق يشهدون جميع العلوم حتى الحساب والهندسة وعلوم الرياضيات والمنطق والعلم الطبيعى، وإن هذه العلوم لها دلالة وطريق إلى العلم بالله».

٢ ـ العارف بالله تعالى سيدى الخواص: قبل أن يقول بالنظريات التجريبية «باكون وديكارت» قالها الحسن بن الهيثم عن الصوفية الذين كانت تتناثر العلوم من بين ثناياهم.

فها هو سيدى الخواص رضى الله عنه وهو الأمى الذى لم يدرس العلوم التقليدية ولكنه قد فاز برأس الأمر كله «تقوى الله ومحبته ومعرفته» فعلَّمه الله ما لم يكن يعلم، ففى القرن العاشر الهجرى، قد ألهمه الله تعالى أن يلقى بعض

مسائل للشيخ عبدالوهاب الشعرانى، فكان منها مايناسب قول الله سبحانه: ﴿ ...ولَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تسبيحهم ... (٤٤) ﴾ [الإسراء] فقد أخبره بأن كل شيء فى الوجود حى يدرك حتى الجمادات، وأن الأشجار تتعاشق وقد تتلاقح، فلقد أظهر على يد الشيخ الخواص بعض العجائب العلمية؛ ليثير فى المسلمين روح التعلم؛ لأن هذا من شأن القدوة، فلابد للحق من قوة تسانده ألا وهى قوة العلم.

٣ ـ الشيخ الدباغ: قد سئل عن تسبيح الحصى: فقال: إن كلام الحصى وتسبيحه دائم، وأفاد أن الجمادات تعرف ربها، كسائر الحيوان وأنها عابدة خاشعة، قال الله سبحانه: ﴿ ... وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ... (٤٤) ﴾ [الإسراء].

ثم قال الشيخ الدباغ أيضا: «إن للأرض علما هى حاملته وعارفة به، كما يحمل أحدنا كتاب الله تعالى». ولقد علق الشيخ طنطاوى جوهرى فيلسوف الإسلام فى كتابه: «تفسير الجواهر» على ذلك فقال: «إن كلام الصوفية هذا هو ما كشفته العلوم الحديثة الآن، فتعاشق الأشجار الذى قال به الخواص هو نفس ما أثبته العلم الحديث فى نظرية التلاقح».

وقد ذكر العلماء حديثا: أن كل الجمادات متحركات، ومعنى ذلك: أن كل قطرة مائع، أو قطعة حجر مركبة من ذرات صغيرة، وهذه الذرات الصغيرة ترجع إلى جواهر فردة، والجواهر الفردة ترجع إلى عناصر أولية كالأكسچين والأيدروجين، وهذه العناصر متى تحللت ترجع إلى الكهرباء، فما هى إلا تموجات، بينها مسافات متباعدات، يدور بعضها على بعض، كما تدور الكواكب حول بعضها، وحول الشمس، فالعوالم كلها متحركة دائما لاسكون، وحركات تلك الذرات لافتور فيها، فهى لاتهدأ من يوم أن خلق الله العالم إلى أن يفنى.

فالخلاصة: «أن كل موجود حى».

ثم قال العلامة الجوهرى: إن كشف العصر الحديث قد أتى بثلاثة أرباع ما قاله الشيوخ الصوفية من باب الإلهام، وقد نبه هؤلاء الصوفية الناس على وجوب الأخذ بأسباب العلم.

٤ ـ المدرسة الخليلية بالزقازيق: فى العقد قبل الأخير من القرن التاسع عشر ظهر عارف بالله تعالى وهو سيدى الحاج محمد أبو خليل رضى الله عنه، وبرغم

أنه كان أميا يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ولم يتلق علما فى جامعة ولا مدرسة ولامعهد، إلا أنه رضى الله عنه كان آية من آيات الله تعالى فى هذا العصر، فكان الله يفيض عليه فى جميع العلوم الدينية والعلوم المتصلة بالإنسان والكون والحياة، ولايقتصر الأمر على شذرات منها ومقتطفات كمن سبقه من الصوفية، وإنما كان يتحدث فى الكيمياء والفيزياء والهندسة والطب والرياضيات والعلوم الاجتماعية والكونية كمتخصص بارع، بل كان يكشف للمتخصصين فى هذه العلوم ما أشكل عليهم فيها، ناهيك عن علوم التفسير والحديث والتوحيد والفقه والأحكام والأدب والتاريخ والفلسفة والجغرافيا وكافة العلوم، بل تعدى الأمر والفتح الربانى منه إلى أبنائه صلبا وعهدا، فيوجد من يقرض الشعر الصوفى فى محبة الله ورسوله ﷺ، ويعالج قضايا العلم من خلاله: من علوم البحار، وعلوم الأجنة، والذرة والكون، حتى ولو كان الملهم أميا أو شبه أمى، أو غير متخصص ولا قارئ لما يقوله، وقد يفيض الله على قلبه بما يريد الله أن يبشر به العبد، لتستقر نفسه، ويطيب قلبه، فتزاح عقده النفسية، ويفرح بالحياة التى لمس فيها نور أحباب الله، وليتحقق وعد الله فى قوله سبحانه: ﴿ **لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ...** (٦٤) ﴾ [يونس] وبذلك يقوى الإيمان، ويحل اليقين ويتوب العاصى إلى ربه بسبب ذلك العطاء الربانى وشعر الإلهام.

وينشط طالب العلم، ويستقيم المنحرف بسبب ذلك العلم الربانى والفتح الصمدانى الذى يأتى من عالم الغيب بسبب دعاء الشيخ.

فكم رأينا هذه الفتوحات والإلهامات آلاف المرات، ويشهدها حتى الآن كل من أتيحت له فرصة زيارة سيدنا الشيخ ولاحرج على فضل الله.

ولقد سمعت فى إحدى المرات مريدا شبه أمى - أى - يكتب اسمه فقط بحروف ضخمة - فظل ينشد إلهاما مرتجلا لمدة ثلاث ساعات متواصلة بعربى فصيح، موزون ومقفى فى موضوع «علوم البحار».

وذلك كله من فضل الله تعالى وببركة حضرة النبى ﷺ وسيدنا الشيخ أبى خليل ومدرسته المحمدية النورانية المتمثلة فى أبنائه.

لأن الإلهام ينقى الصدور من صدئها، ويرقى الأرواح، ويهذب النفوس، لأنه من الملك القدوس.

وقديما تابت إلى الله تعـالى شهيدة الحب الإلهى ستنا السيـدة رابعة العدوية رضى الله عنها بسبب أربعة أبيات من الإلهـام ساقها الله إلى قلب سيدنا ذى النون المصرى رضى الله عنه، حينما قال لهـا وهى تغنى لشاربى الخمر فى زورق فى نهر دجلة:

أحسـن من قينة ومزمار ... فى غسق الليل نفحة البارى

ياحسنه والجليد يسـمعه ... بطيب صوت ودمعه جارى

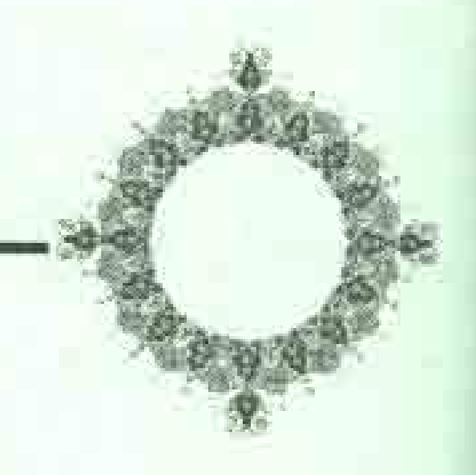
وخده فى التراب منعفر ... وقلـبه فى محـــبة الـــبارى

يقول ياسيدى وياسندى ... أبعـدنى عنك ثقل أوزارى

فلما وصلت إلى الشـاطئ ذهبت إلى دارها وتطهرت وصلت وظلت باكـية مستغـفرة حـتى الصباح، فـلما رأتها خـادمتـها «عـبدة» قالت: هـل بك مرض ياسيـدتى؟ قالت: لا يا عبدة لقـد سمعت البـارحة شعرا من ذى النون كـان كأنما يسّاقط علىّ من السماء، وتجلى الله لى محبوبا لا أستطيع أن أصف مداه».

وخلاصـة ذلك أن التصوف: يشـجع على العلم ويحث عليه، سـواء أكان علما دينيا أم علما متصلا بالإنسـان والكون والحياة، فالتصوف لايعرف الجهل ولا الرهبـانية ولا الشعـوذة والدجل ولا البطالة ولا ادعاء الـولاية والغيب، فـالولى لايقول عن نـفسه إنه ولى ولا يدعـى أنه يستطيع أن يظهـر كرامة، بل إنـه يسعى ليسـتر حاله عن الخلق، وهو يتـستر على كرامـته حيـاء من الله الذى أظهرها ولا دخل للولى فى ظهورها إلا أنها قـد ظهرت على يده تكريما له وتشجيـعا للعصاة فى أن يتـوبوا إلى الله تعـالى ويقتـدوا بذلك الرجل الصـالح، فـالكرامة ليـست للمتـاجرة ولا للمفاخـرة، فهى فعل الله وحـده، وهى هادفة لفعل الخيـر وتجديد الروح الإسلامية فى العصر المادى، والعلم الحديث لاينافى التصوف، بل هو طريق من طرق الوصـول إلى الله تعالى؛ لأنه يدل عليـه سبـحانه، ويوصل إلـى أسرار جديدة من أسـرار الكون: ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ** ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس].

الفصل الثانى



الروح الإنساني

لقد حبا الله الإنسـان بميزة جعلته سيد الكائنات؛ إذ خلقـه فى أحسن تقويم حيث جمع تكوينه من عنصرين متضادين:

١ ـ عنصر الجسد الذى يتناسب مع مهـمته فى الأرض، ليعمرها وفق منهج الخالق جل شأنه.

٢ ـ عنصر الروح الذى يضبط المسيرة، ويـمتد أثره من عالم الملك إلى عالم الملكوت، فيشـارك ملائكة السماء فى روحـانيتهم وسبحـاتهم، وتنهال أشعة منه على العنصـر المادى فى الأرض (فتحكم) سيره وتنظم حـركته ليؤدى الإنسان رسـالة لحياة مزدوجة العنـصر، ثنائية الهدف، مشـفوعة المكان، وكـيف لا!! وهو من اختـاره الله خليفـة له، فلا يصلح غـيره ليحـقق خلافة الله تعـالى فى أرضه. ولذلك فقـد سخر الله له جـميع الكائنات، حتـى الملائكة الذين خلقوا من عنصـر واحد نورانى بحت، جعلهم فى طاعـة وعبادة لله تعـالى مستـمرة: ﴿ ... **لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴿٦﴾ ﴾ [**التحريم**] فقد وَظَّفَ الله سبحانه من بينهم من يقوم بشـأن الإنسان،ويسهل له مـهمته فى كـون الله، بل لقد أسجدهم الله سبحانه لأول إنسان ظهر فى هذا الوجود، وهو سيدنا آدم عليه السلام (أبو البشر)، سجود تشريف ومحبة وتوقير لما فيه من تأهيل لتلك المهمة الشاقة: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ** ﴿٤﴾ ﴾ [**البلد**]: مشقة وعناء تحيط به من كل جانب إحاطة الظرف بالمظروف. ولكن سرعان ما يأمره الله سبحانه بتحـريك أشواق الروح إلى بارئها، فتنهال عليه بوارق النور والراحة والطمأنينـة، إذ يقول ﷺ: (أرحنا بها يا بلال) وذلك لأن الصلاة وهى صلـة بين العبد وربه، تكون مـعراج الوصـول إلى مراقى

الكمال فى الملأ الأعلى، فالإنسان: حفنة من تراب الأرض ونفخة من روح الله، فإذا كان للجسد غذاؤه المادى، فللروح غذاؤها المعنوى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر]. فقد سواه جسدا ثم نفخ فيه روحا من أسرار الله، فقد خلق الله سبحانه آدم من: تراب ـ حمأ مسنون ـ صلصال كالفخار، فكل من فكَّر فى هذه القضية الخلقية، فسوف يجد انتقالات عجيبة، فيها صورة لتسوية متدرجة فى أطوار من الخلق، تتجه إلى غاية نقية فيها استعداد لقبول الروح واستقرارها فى الجسد، حسب مشيئة الخالق سبحانه كما وكيفا، حالا ومآلا.

وتسكين الروح فى الجسد فى فترة التكليف هو: بداية الجود الإلهى المفاض عليه بالروح وتسكينه فى المخلوق البشرى الأول عليه السلام.

لقد اتضحت تلك القوى فى بدن آدم عليه السلام، وقد ظهرت بالفعل فى أبنائه ونسله بعد ذلك مدى الحياة الدنيا، ألا وإن تلك المواليد المنسولة باتت تسير فى أطوار سبعة حتى تبلغ التسوية الصالحة لقبول الروح وإمساكها.

وهذه الأطوار ـ كما بين القرآن الكريم ـ هى:

سلالة من طين ـ نطفة ـ علقة ـ مضغة ـ عظام ـ لحم كاس للعظام ـ روح (خلق آخر)، وذلك ما جاء فى قول الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون].

السر فى ترتيب الأطوار: أن النطفة مرتبة على السلالة الطينية وذلك بـ «ثم» العاطفة التى تفيد الترتيب والتراخى الزمنى، وذلك الزمان هو الذى تتولد فيه الأغذية ويحدث بها النماء.

والعلقة مرتبة على النطفة المستقرة فى قرار مكين بـ «ثم»: لحاجة النطفة فى الاستكنان إلى زمن حتى تتحقق بتسلط الحرارة وإحاطة الأغشية وتفتح فوهات العروق فإن العطف هنا بثم يفيد الزمن المطلوب.

وجاء العطف فيما بعد ذلك من المراتب بالفاء التى تفيد الترتيب والتعقيب: لسهولة الانتقال فيها، فلا تقتضى مهلة، إذ تحوُّل العلقة إلى مضغة ليس إلا بالتصلب. والمضغة إلى العظام بزيادة التصلب، وإكساء العظام باللحم متيسر من الغذاء.

أما المرتبة السابعة، وهى إنشاؤه خلقا جديداً، فقد عادت الآية إليه بالعطف الأول ـ أى بثم : لأنها مرتبة نفخ الروح التى لها وضع خاص، وتفاض بكيفية خاصة، فالمهلة هنا: تصعيب وتهويل ـ على غير المبدع المصور .. لإلزام النفوس الإقرار بالقهر وعظمة الخالق، بخلاف «ثم» الزمنية فى المرتبتين الأوليين[1].

حقيقة الروح

إن الروح سر من أسرار الله تعالى لم يأذن الخلاق العليم فى كشفه رحمة بعباده وحفظا لعامة الخلق من تكليفهم بإدراك مالا يستطيعون إدراكه.

وصدق الله سبحانه إذ يقول: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء].

وها هو الإمام على زين العابدين رضى الله عنه يقول:

يارُبَّ جوهر علم لو أبوح به — لقيل لى أنت تعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمى — وكان أقبح ما يأتونه حسنا

الروح وكبار الصوفية والعلماء:

لقد رأى كبار الصوفية والمحققون من علماء التوحيد أن الروح: جوهر مجرد عن المادة الجسمانية وعوارضها، لها تعلق بالبدن: تعلق التدبير والتصريف، فالموت عبارة عن قطع هذا التعلق، وهذا الرأى قد دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وقادت إليه الإمارات الحدسية والمكاشفات الذوقية[2].

ويرى ابن مسكويه أن: الروح شىء يضاد الأجساد والأعراض، فليست

---

(١) تذكرة الأنطاكى ج٢ ص٥، الهوامل والشوامل لأبى حيان وابن مسكويه ص٢٥ .
(٢) الكشكول للبيهقى مع بعض تصرف ص٥٤٣ .

بجسم ولا عرض، لأنها لاتستحيل ولا تتغير، وأنها تدرك جميع الأشياء بالسَّوية، ولايلحقها فتور ولا كلال ولانقص[١].

كما أن فى الروح شوقا إلى ماليس من طباع البدن، وفيها حرص على معرفة حقائق الأمور الإلهية، وميل إلى ماهو أفضل من مطالب البدن، وأن انصرافها أحيانا عن اللذات البهيمية يدل دلالة واضحة على أنها من جوهر أعلى؛ لأنه لايمكن فى شىء من الأشياء أن يتشوق إلى ما ليس من طبيعته ولا يأتلف مع طباعه[٢].

وإذا كانت الروح تأخذ كثيرا من مبادئ العلوم عن الحواس، فإن لها من ذاتها مبادئ أخر وأفعالا لاتأخذها عن الحواس ألبتة كالمبادئ الشريفة العالية، والقياسات العقلية الصحيحة[٣].

غرض الصوفية من الروح:

تأكيدهم بأن الروح لديها استعداد لقبول الفيض الإلهى، والقرب من منبعها الأصيل، وهى الحال التى يسميها الصوفية بالقرب أو الجمع أو الفناء.

وبذلك اتضح الفرق جليا بين عالم الروح وعالم البدن، فما كان يشغل حيزا من الفراغ وله تقدير كمى وأعراض فهو من عالم المادة.

وما لم تكن له كمية ولامساحة ولا تحيز، فهو من عالم الروح.

إلا أن الله سبحانه قد خلق الإنسان جامعا لهذين العالمين، وقيل: إن الروح أُودعت الجسد لتكسب بعض الكمالات من المجاهدات التى تتم بينهما، حتى تتم لهاَ الرؤية والمشاهدة فيصدق الإيمان[٤]، ثم تصير إلى أهلها، وتسبح فى بحر الحقيقة وتذوق فيض الجلال والكمال، وترى مشرق الأنوار[٥].

وفى «حياة القلوب» ـ على هامش «قوت القلوب» أن الروح:

تطلق ويراد بها: البخار اللطيف الذى يصعد من منبع القلب ويتصاعد إلى الدماغ إلى جميع أجزاء البدن بواسطة العروق، فيعمل فى كل عضو بحسب مايقتضيه مزاج ذلك العضو واستعداده وهو منبع الحياة، وهذا البخار كالسراج فى

(١) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص٧. (٢) المرجع السابق ص٩. (٣) المرجع السابق ص١٠.
(٤) شجرة الكون لابن عربى ص٧. (٥) الكشكول للبيهقى ص٤٨١.

البيت، وقد تطلق الروح ويراد بها: الملك المنزل بالوحى على الأنبياء، والصوفية إذا أطلقوا لفظ الروح والنفس والعقل فإنهم يريدون بذلك: النفس الإنسانية التى هى محل التعقل.

وقد يقال: إن الروح والعقل والقلب: سر من أسرار الله تعالى فلولا معرفتكم فى نظركم لكان للوضع أساسه..

الروح عند أهل التحقيق من أهل السنة:

١ - يرى بعضهم: أنها الحياة.

٢ - يرى البعض الآخر أن الروح: أعيان مودعة فى هذه القولب:

فالروح: لطيفة مودعة فى هذا القالب، هى محل الأخلاق المحمودة .

فالروح والنفس: من الأجسام اللطيفة فى الصورة، ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة، وكما يصح أن يكون البصر محل الرؤية، والأذن محل السمع، والأنف محل الشم، والفم محل الذوق.

والسميع والبصير والشام والذائق إنما هى الجملة، التى هى الإنسان، فكذلك محل الأوصاف الحميدة: القلب والروح، ومحل الأوصاف المذمومة: النفس والنفس، جزء من هذه الجملة، والقلب جزء من هذه الجملة، والحكم والاسم راجع إلى الجملة[1].

السر:

وأما السر فمنهم من يرى أنه: لطيفة مودعة فى القالب كالأرواح.

وهو محل المشاهدة، كما أن الأرواح محل للمحبة، والقلوب محل للمعارف.

وقال آخرون: السر: ما لكَ عليه إشراف، وسر السر: مالا اطلاع عليه لغير الحق سبحانه.

---

(١) الرسالة القشيرية للإمام القشيرى ص٢٤٩، ٢٥٠ .

ويرى الصوفية فى كافة اصطلاحاتهم أن: السر ألطف من الروح، والروح أشرف من القلب. ويقولون: الأسرار معتقة عن رق الأغيار من الآثار والأطلال.

ويطلق لفظ «السر» على مايكون مصونا مكتوفًا بين العبد والحق سبحانه فى الأحوال: أى فى الواردات على العبد ـ وعلى هذا الرأى يحمل قول من قال:

أسرارنا بِكْرٌ لم يفتضها وَهْمٌ واهم.

ويقولون:

صدور الأحرار قبور الأسرار.

وقالوا: لو عَرَفَ زِرِّى سرى لطرحته.

فهذا طرف من تفسير إطلاقاتهم، وبيان عبارات القوم فيما انفردوا به من ألفاظ ذكرناها على شرط الإيجاز.

الإسلام وثنائية الكائنات:

لقد سبق القرآن الكريم العلم فى إحدى قضاياه المعاصرة وهى:

«ثنائية الكائنات وازدواجها» قال الله سبحانه: ﴿ **وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴿٤٩﴾ ﴾ [**الذاريات**] فهذا إخبار من الله جل شأنه يشمل أشياء الكون كلها بلا استثناء بلا نقص ولانسخ حتى تقوم الساعة.

أنواع الثنائيات:

لاشك أن الإنسان يعجز كل العجز عن أن يحيط بثنائية كل شيء خلقه الله تعالى، فذاك مطلب يستحيل تحقيقه، ولكن مالا يدرك كله: لايترك كُلُّه.

فهناك الثنائية النوعية: ذكر وأنثى، وهناك ثنائية عقدية: مؤمن وكافر. وثنائية سلوكية: مطيع وعاصٍ، ملائكى النزعة وشيطانى المنزع، ذاكر وغافل، ولى مقرب ومحجوب مبعد.. إلخ.

الكشف العلمى التجريبى وازدواجية الكائنات:

إن الكشف العلمى قرر أن عيون الناس وخواطرهم، قد رأت هذا الازدواج فى الذكر والأنثى والسماء والأرض، والقرب والبعد، والطاعة والعصيان، والحياة

والموت، ورأته عـيـون الآلات والمجـاهـير فى السـالب والموجـب، والانتظام والانحلال، فصارت الأشياء التى رأتها العيون أمثلة للازدواج «صغرى».

وصارت الحقائق التى رأتها الآلات والمجـاهير أصولا كبرى، وصار من حق هذا الكشف العلمى أن يكون الدليل الأول على صدق قـضية القرآن، وبمعنى أدق يكون القرآن دلـيلا على صدق الكشف العـلمى، وأنه قد وصل غايتـه ولن يبطل باكتشاف آخر يناقضه.

الكشف الربانى لدى العارفين بالله تعالى:

الكشف: نور فى القلب يدرك به الولى عيـن الشىء بقوة البصيرة، فـيطلعه الله على مايشـاء أن يطلعه عليـه بحسب حاله، وهذا مـن عظمة شريعـة الإسلام ولاسيما مَنْ تَنَاولَهـا مذاقا صافيا من يد الورثة المحـمديين من آل بيت النبوة الذين يدأبون فى تطبيق روح الشريعة، وذلك: تهذيبا للنفوس، وترقية للأرواح، وتصفية للقلوب، وتطهـيرا مستمـرا للأشباح حـتى تكون محـلا لتلقى الأنوار من الرب الفتاح، فـيغدو المسلم إسلامـا حقيقـيا، والذى انهالت على قلبه الذى صـفا بنور المصطفى ﷺ: ذا مرآة صافية تنعكس على صفحة قلبه صور الأشياء منحة من الله لذلك الولى وبشرى عـاجلة من بارئ الأرض والسماء، قال الله سـبحانه: ﴿ **لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ...** ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس]. وهذا فضل من الله ونعمـة لهذه الأمة؛ لأنه يرجع علـى أفرادها من محـبى الأولياء: بالتوبة وصـفاء القلوب بحلاوة الحب والإيمان.

ولا أدل على ذلك من أن الصحابة رضوان الله عليهم كانت لهم مَرَاء قلبية، ومكاشفات وأحوال ربانية لاعتصامهم بحبل الله تعالى: ﴿ **... وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران].

ولقد كـان أسوتهم ونبـراسهم خيـر البرية ﷺ، وهو النور الذى نـزل عليه النور، فكان نورا يتحرك بين الناس: ﴿ **... قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ** ﴿١٥﴾ **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة] فكانوا نعم المتـقين لله، والمتـأسين

برسول الله ﷺ، فمنحـهم الله السكينة والأمن، وتغشاهم برحمـته، وكشف لهم عين البصيرة، فساروا على نور الله، حتى ملكوا مابين الخافقين، وامتدت دعوتهم حتى طوقت المشرقين.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد].

فلنأخذ دليـلا على أنهم كانوا يرون بنور الله تعـالى، ويكشف الله لهم عن الأشياء:

الخليـفة العـادل سيـدنا عمـر بن الخطاب رضى الله عنه الذى كـان يخطب المسلمين على منبر النبى ﷺ فى المدينة المنورة.

وكان قد سَيَّرَ جيشا للمسلمين فى بلاد الشام لقتال الكفار هناك.

فبـينما سيدنا عـمر يخطب على المنبر، إذ بـه يرى بنور الله تعالى الذى فى قلبه: الجيش الإسلامى فى مـوقعه الحـربى، ويكشف خطة الكفار الـتى حيكت لتطويق الجيش بواسطة فرقة الفرسـان من خلف الجبل الذى يحمى ظهر المسلمين، فنادى على قائد جيش المسلمـين: «ياساريةُ الجبلَ، ياساريةُ الجبلَ»، فيـسمع القائد المؤمن نداء الخليـفـة المؤمن، فـيرسل إليـهم من واجـهـهم من فرسـان المسلمـين فأبادوهم، وتضيع خطة جيش الكفار وينتصر المسلمون. ثم نعرج بدليل ثان تأكيدا لموضوع كشـف الصحابة وفراسـتهم الإيمانية؛ وذلك أن سـيدنا عثمـان بن عفان رضى الله عنه، وفى زمن خلافته كان يجلس مع بعض أصحابه، فدخل عليه أحد المسلمين الـذى كان قد نظر إلى امـرأة أجنبية فى الطريـق شزرا وتأمل محـاسنها، فقال ذو النورين رضى الله عنه لمن حـوله والرجل من بينهم: «يدخل علىَّ أحدكم وآثار الزنا بادية على عينيه؟!! فقال الرجل منكرا: «أوَحْىٌ منزل بعد رسول الله؟!! فقال الخليفة: «لا، ولكنها فراسة وبصيرة ونور إيمان».

ولقد قـرر ذلك الرسول ﷺ وأمر باتقـاء هذه البصيـرة حتى يضمن صـيانة الأحكام الشرعيـة، والالتزام بسلوكيات الإسلام، فقال ﷺ: «اتـقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله». فـهذا قُل من كُثر من شـفافية الصـدر الأول للإسلام، وذلك الفـضل حـاصل وموجـود حـتى الآن بما يحـيى أمـوات القلوب، وينيـر الطريق للسالكين للوصول إلى رضاء علام الغيوب، فـالحمد لله الذى جعل فى أمة سيدنا

محمد ﷺ هذه النماذج الداعية إلى الله تعالى على بصيرة الإيمان إلى قيام الساعة: فلا تقل ذهب الأولون فكل من سار على الدرب وصل.

أنواع الكشف:

إن الكشف على ثلاثة أنواع، النوع الأول: قوة الخاطر وسرعة الفهم وتخيل الأشياء، وتكرر ذلك مع صدق الخاطر فى كل مرة، فيصير فى قوة الكشف وهو طوالع الكواشف.

النوع الثانى: تمثُّل الأشياء الغيبية ومواقعها فى القلب، فتُدْرَك بالتحقيق عند وقوعها ويتكرر ذلك.

النوع الثالث: إدراك الأشياء بقوة البصيرة، فيقول باطلاع محقق يطلعه الله سبحانه وتعالى عليه متى شاء.

علاقة السمع والبصر بالكشف:

إن السمع والبصر قوتان من قوى الكشف، ودرجتان عظيمتان يهبهما الله سبحانه وتعالى للولى.

ولقد قال سيدنا الأستاذ الشيخ أبو خليل رضى الله عنه لأحد مريديه المشهود لهم بالاجتهاد: «إن الله سبحانه وتعالى يعطى الولى درجتى السمع والبصر، فيرى الولى من هو فى أقصى الأرض ويسمع من يناديه كذلك».

وبحمد الله سبحانه وعونه قد أمد الله شيوخ هذه الطريقة، وما زال الإمداد يتزايد يوما بعد يوم ولاحرج على فضل الله سبحانه وتعالى، الذى يقول فى الحديث القدسى: «**ولايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يسعى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذ بى لأعيذنه**».

موقف بعض العلماء من هذا الحديث من ناحية مدلوله:

يرى بعض العلماء أنه يجب صرف السمع والبصر والبطش والسعى عن ظاهرها إلى المعانى الكنائية والمجازية، وأن اللفظ ليس له حقيقته؛ لأنهم وقعوا فى

فهم ضيق قد ألمح إليه المستشرقون ليفسدوا المعنى الحقيقى ألا وهى قضية الاتحاد والوحدة والحلول التى تقول بها الفلسفة الإغريقية، ويرمى المستشرقون والمستغربون وبعض علماء المسلمين بها بعض الصوفية مثل ابن عربى والحلاج.

بينما يرى العلماء المحققون وأكثر الصوفية خلاف ذلك من وجوه:

الأول: أننا فى معرض تكريم الله لأحبابه وأوليائه الذين تفانوا فى طاعته ومحبته، فإذا كان اللفظ منصرفا عن حقيقته، فما معنى تكريم الله لأوليائه إذا كان سمعهم سيكون سمعا عاديا، وبصرهم بصرا عاديا .. إلخ.

الثانى: أن اللفظ على حقيقته؛ لأن المعنى فى «كنت سمعه الذى يسمع به» أى أصبح لا يسمع السماع العادى كالأفراد العاديين بقوانين السمع العادية ولكن الله تعالى قد منحه قوانين أخرى للسمع لأنه أصبح يسمع بالله، ولما كانت قدرة الله غير مقيدة ولا محددة بقوانين فقد أصبح الولى يسمع بالله المطلق سماعا مطلقا، أى يسمع كل مافى الكون بالتجرد عن الماديات التى تنطبق قوانينها على ذويها. فمن المعروف أن الميت بخمود حركته المادية فإنه يسمع كل مافى الكون فهل هذا السمع يجعله يشارك الربوبية فى عظمتها وتفردها كما يقول بذلك من قاسوا المسألة بمقاييسهم الضيقة؟!!.

وكذلك فى البصر، فإن الولى أصبح يؤمن بالغيب إيمانا قويا هو: إيمان حق اليقين، نعم لقد آمن بالغيب كأنه شهادة فصير الله له الغيب أمامه شهادة؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فإذا أبصر فإنه لايبصر بقوانين الإبصار المعروفة المحددة بقوانين المادة من مسافة وزمن وما إلى ذلك، وإنما أصبح يبصر بالله المطلق، بصرا مطلقا، فهو يبصر كل مافى الكون، سواء أكان الولى حيا أم منتقلا. ومما يدل على أن الولى يسمع كل مافى الكون ويبصره، سواء أكان حيا أم منتقلا، وبما أن الحى لايتكلم عن نفسه، بل يحافظ على كرامته ويتستر عليها، حياء من الله سبحانه وتعالى الذى أظهرها على يده، ولكن الولى المنتقل غاب عن دائرة التكليف، فيمكن التحدث بما كان منه.

إذًا الكرامات لايقولها العارفون، ولايتحدثون بها، لكن من رآها منهم يمكنه أن يتحدث بها على أنها هادفة إلى تتويب العصاة، وتنشيط الروح الإسلامية

فى العصر المادى، وهى بحمد الله وتوفيقه كثيرة جدا فى الطريقة الخليلية، ولاتحصى بكمٍ ولا كيف؛ نظرا لعناية الله بشيوخها، وحب الرسول ﷺ الفياض لهم ولمريديهم الذين يرفعون راية الإسلام خفاقة فى كل مكان وجدوا فيه كنماذج إسلامية رفيعة المستوى الدينى والروحى والعملى بلا ادعاء ولاشطحات ولابدع ولا مخالفات، وإنما ذكر الله دأبهم، وحبه شغلهم، وشيوخهم أدلاء على الله وقدوة لهم ظاهرا وباطنا.

دليل سماع الولى المنتقل

ومما يدل على سمع الولى وبصره لكل من فى العالم بعد موته تلك الواقعة التى حدثت من الصحابى الجليل: ثابت بن قيس رضى الله عنه.

فبعد أن استشهد فى موقعة «اليمامة» مَرَّ به واحد من المسلمين وكان حديث عهد بالإسلام فرأى على جثمان «ثابت» درعه الثمينة، فظن أن من حقه أن يأخذها لنفسه، فأخذها . . وبينما رجل من المسلمين نائم: أتاه ثابت فى منامه، فقال له: «إنى أوصيك بوصية، فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه. . .

«إنى لما استشهدت بالأمس، مر بى رجل من المسلمين، فأخذ درعى، وإن منزله فى أقصى الناس، وفرسه يستن فى طوله، أى - فى لجامه وشكيمته.

«وقد كفأ على الدرع برمة، وفوق البرمة رَحْلٌ، فأت خالدا، فَمُرْهُ أن يبعث فيأخذها، فإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله أبى بكر، فقل له: إن علىَّ من الدين كذا وكذا فليقم بسداده». فلما استيقظ الرجل من نومه، أتى خالد بن الوليد، فقص عليه رؤياه، فأرسل خالد من يأتى بالدرع، فوجدها كما وصف ثابت تماما، ولما رجع المسلمون إلى المدينة، قص المسلم على الخليفة الرؤيا، فأنجز الخليفة وصية ثابت. وليس فى الإسلام وصية ميت أنجزت رسميا بعد موته سوى وصية ثابت بن قيس رضى الله تعالى عنه.

الروح وغذاؤها النورانى

إن الله سبحانه قد أهَّل الإنسان ليكون خليفة له فى أرضه: بأن خلقه فى أحسن تقويم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين] بأن جمع فى خلقته بين الجسد المادى الترابى، وبين الروح النورانية التى تشرف وتستشرف وتُشرِف على الملأ الأعلى، عالم الملائكة العلوى.

وأما الجانب الجسدى الترابى، فهو يتعامل مع أصله ومنبته: الأرض.

وبذلك يكون للإنسان تعاملان فى وقت واحد:

١ - تعامل مادى مع الأرض: يشيدها ويعمرها ويتحرك عليها، ويغذى عنصر الجسد منها طعاما وشرابا ومناما، ويؤدى رسالته من خلالها وفق منهج الله تعالى: ﴿ ... **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ...** ﴿١٥﴾ ﴾ [**الملك**].

٢ - تعامل روحى مع السماء: بالذكر والحب والعمل الصالح: ﴿ ... **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ...** ﴿١٠﴾ ﴾ [**فاطر**]، ﴿ ... **مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ** ﴿٢٤﴾ **تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ...** ﴿٢٥﴾ ﴾ [**إبراهيم**] فالكلمة الطيبة: كلمة الإخلاص والتوحيد «لا إله إلا الله» وفى الأثر الثابت «لو وضعت لا إله إلا الله فى كفة والسموات السبع والأرضون السبع فى كفة أخرى لرجحت كفة لا إله إلا الله».

ولقد حُرِمَ الكفار والعصاة من الغذاء الروحى أى من التعامل مع السماء، ولم يبق لهم إلا الغذاء الجسدى الناتج من التعامل مع الأرض وفق منهجهم الوضعى المادى البحت فحرموا الأجر عليه رغم تفانيهم فى الأخذ بأسباب العلم الدنيوى والعمل الجاد المثمر لرفاهية الحياة فحبط عملهم لبعدهم عن حقائق الإيمان وإدبارهم عن الآخرة.

قال الله سبحانه فى تقييم عملهم المادى المجرد: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴿٢٣﴾ ﴾ [**الفرقان**].

ونظرا لفشلهم فى التعامل مع السماء، فقد بطل - أخرويا - تعاملهم مع الأرض.

ولما لم يستطيعوا تحقيق الموازنة مادة وروحا، تبرأت منهم الأرض والسماء؛ لأنهم لم يأخذوا منهج حركتهم من خالق الأرض والسماء فباءوا بالخسران والخذلان، ولايمهلون فى قضية العذاب الأليم، بل يسرعون إليه بمجرد خمود حركتهم بالموت.

قال الله سبحانه وتعالى فى حقهم: ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا**

كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ [الدخان] وبهذا خرجوا عن دائـرة الخلافة، وباءوا بالخذلان الأكبر، وما ظلمهم الله ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

لكن «المؤمن» الذى غـذى قلبه وروحه بالمعـارف الإيمانيـة، وذكر الله على جـميع حـالاته، وأطاع خـالقـه واتقاه، فـإنه قـد حقق خـلافـة الله له على هذا الكوكب، وأدى رسالته فى السماء، ودليل نجاحه أنه يوم أن يموت يبكى عليه كل مكان فى الأرض قد عبد الله فيه: فكرا أو ذكرا أو صـبرا أو شكرا. قياما أو قعودا أو سجودا. فمحل سجوده فى كل مكان سجد فيه لله سبحانه سجدة يبكى عليه، هو والمكان الذى يواجهه فى كل سماء لتصعد إلى الله.

وقـد ورد أن ذكـر الذاكريـن بإخلاص يصـعـد إلى السـمـاء وله دوىٌّ عند الملائكة، فتقول حملة العرش: صوت من؟ فتقول ملائكة من غيرهم: صوت عباد لله يذكرون الله فى الأرض.

الصورة المحمدية الأزلية والنور الذاتى:

من كتـاب «الإنسان الكامل» للعـلامة: عـبدالكريم الجيلـى: «أن الله تعالى خلق الصـورة المحمـدية من نور اسمـه: «البديع القـادر»، وقد ورد فى عـدد من الأحـاديث: أن رسول الله ﷺ قـد خُلِقَ من نور، وأن الـذى خَلَقَ ذلك النور هو «رب العزة» جل وعلا:

وبناء على ذلك فإن بعض المحـبين للرسول ﷺ يردد هذه العـبارة: «يانورا من نور الله».

والواقع أن ذلك تعبيـر عن حبهم، وامتداحهم للحـبيب ﷺ، ولا بأس فيه ولا نكران، فنحن مأمورون بحبه والاقتداء به ﷺ.

ومن بواعث المدد والإمداد بالنور، فإننا نجد فى نفس المرجـع صيغة للصلاة على الحبيب ﷺ، وهى تحتاج إلى توضيح مع أنهـا مجربة فى تقوية البـصر عند تردادها بكثرة، وقد تُقَوِّى من شحنات النور إلى القلب، فتقوى البصيرة أيضا لدى العشاق والسالكين طريق النبى ﷺ على يد عـارف بالله سبحانه وتعالى يكون من المنفوحين من النبى ﷺ، وقـد ينعم الله عليه برؤيته ﷺ يقظة ومناما، وقـد أكرمه ربه بسجـود قلبه دائما لمولاه، فمـا فى قلبه إلا الله والانصراف عمـا سواه. وهذه

الصيغة هى : اللهم صل على سيدنا محمد النور الذاتى والسر السارى فى جميع الأسماء والصفات.

موقف علماء أهل السنة والجماعة من تلك الصيغة:

إن هؤلاء العلماء يقولون: إن أسماء الله تعالى على قسمين: أسماء وصفات، وأن الله جلت قدرته، قد تجلى على نبينا سيدنا محمد ﷺ بأسماء الذات، وتجلى على بقية الأنبياء بأسماء الصفات.

ولذا يقال: إن نوره ﷺ «ذاتى» أى أن الله سبحانه قد أفاض عليه بمعرفة أسماء الله الذاتية أى التى تتعلق بالذات، وأن الله سبحانه قد تجلى على الأنبياء السابقين بمعرفة أسماء الله الصفاتية. والله أعلم.

أصل المخلوقات ونورها:

إن رسولنا ﷺ أصل لجميع المخلوقات، فهى من نوره وجدت، وبذلك يكون بحق: النعمة المسداة والرحمة المهداة لجميع خلق الله، فبسببه ومن أجله خلق الخلق : ناطق وصامت، فلاعجب أن يقول خالقه سبحانه فى محكم تنزيله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

العلم الحديث وموقفه من النور المحمدى:

قبل التقدم العلمى الحديث، كان علماء الشريعة يتحرجون من موضوع أولية النور المحمدى، وأنه أصل لجميع المخلوقات، مع وجود أحاديث ثابتة بروايات متعددة رويت بطرقها وأسانيدها عن: جابر بن عبدالله رضى الله عنهما، وكم أثيرت مناقشات، وحمى وطيس الجدل واحتدم النزاع، حتى آثر الكثيرون عدم التعرض لهذا الموضوع، وخصوصا: ما أثير حول الحديث القدسى: «خلقت الأشياء من نورك وخلقتك من نورى» فلقد توَهَّم المانعون أن نور النبى ﷺ جزء من نور الله تعالى، وهذا ظاهر الاستحالة واضح البطلان؛ لأن ذات الله تعالى غيب فلا يجوز التفكر فيها، وقد أجمع المحققون من علماء التوحيد أن الشيطان إذا حاول أن يحدث النفس فى هذه القضية، فما على المسلم إلا أن يقول فى

نفسه: «لايعلم ذات الله إلا الله»، نعم لا أحد على الإطلاق يعرف عن حقيقة ذات الله تعالى شيئا: لانبى ولا ولى ولا ملك فلا يعرف ذات الله إلا الله.

وأما حديث العروج إلى السماء فإن النبى ﷺ قد تلاشت صفاته البشرية تماما فرجع إلى أصله «النورانى» حيث قد أصبح هيلولة نورانية ليس فيها من صفات البشرية شيء. حتى رأى النورُ النورَ، وسمع النورُ من النورِ.

والدليل على ذلك أن الصحابة قد سألوه صلى الله عليه وآله وسلم فى صبيحة المعراج: كيف رأيت ربك؟ قال: «نوراً أنَّى أراه»، وفى رواية: «رأيت نورا».

انشطار الذرة:

وحينما حدث التفوق العلمى بانشطار الذرة، وجد أن أصغر وحدة فيها وهو ذلك الجزىء الذى لا ينقسم أبدا وهو: «إلكترون»: شعاع من النور، سواء أكانت ذرة حديد أم خشب أم ماء أم تراب، ذرة فى العالم العلوى أو فى الأرضى.

وبذلك يكون انشطار الذرة قد أعاد إلى الحديث رونقه الطبيعى الذى جعله مغمورا فترة من الزمن، ويكون المعنى:

خلقت ذرات الأشياء كلها العلوى والأرضى من نورك.

ومعنى: «وخلقتك من نورى» ليس جزءا من كل، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وإنما المعنى: وخلقتك من نور مخلوق لى؛ حيث قلت له: كن نورا فكان نورا مخلوقا: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس].

وبذلك يجمع بين الأحاديث الثابتة كلها، ويظهر الحق لكل ذى عينين.

فحمداً لله تعالى حيث قد انتفت الشبهة الإيهامية التى كم لصقت بعقول الكثيرين، فرفضوا أحاديث واردة بإثباتها ونُقُولها عن العدول أهل الضبط والكمال. ولتمام الإفادة نكرر شرح الحديث:

فالعبارة الأولى: «خلقت الأشياء من نورك» أى خلقت ذرات الأشياء كلها من نورك. إذ إن العلم المعاصر قد كشف إعجاز الإسلام فيه، وصدق الرسالة المحمدية الخالدة.

وبرهن على أنه ﷺ أصل جميع الموجودات، لأنها قد خلقت من نوره، فإنه لما حدث الكشف العلمى الهائل للطاقة بانفجار الذرة: وجد أن أصغر وحدة فيها التى لاقسيم لها ولاتنشطر، وهو مايسمى بالجزىء الذى هو: «الإلكترون» ماهو إلا شعاع من النور، وذلك يكون فى أى ذرة فى الوجود لجامد أو مائع، علوى أو أرضى، عاقل أو غيره، ناطق، أو صامت.

إذًا معنى الحديث: خلقت ذرات الأشياء كلها من نورك.

وأما معنى: «وخلقتك من نورى»:

أى وخلقت نورك بأمرى وتكوينى: كن نورا فكنت نورا. فهو ﷺ من نور مخلوق لله تعالى بقول: «كن فكان» وليس معناه من نور ذاته الصمدانية، تعالى الله سبحانه عن ذلك علوا كبيرا.

وبذلك يستقيم معنى هذا الحديث، وأحاديث جابر الثابتة رضى الله عنه التى منها: «**ألم تعلم أن الله خلق الأشياء من نور نبيك ياجابر**» أى خلق ذرات الأشياء وأصل المكونات للذرة من نوره ﷺ الذى خلقه الله بأمره ليكون أصلا للموجودات.

ـ فقد أخرج الإمام أحمد والبخارى فى تاريخه وصححه الحاكم من حديث «ميسرة الفجر»: أن رسول الله ﷺ قال: «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد» وهذا الحديث يوجد فى المراجع الآتية لمن ليس عنده الكتب الصحاح:

١ ـ كتاب تميز الطيب من الخبيث لابن الديبغ الشيبانى ص ١٢٢.

٢ ـ كتاب الخصائص الكبرى للشيخ الإمام جلال الدين السيوطى جـ١ ص٩.

٣ ـ كتاب المواهب اللدنية للقسطلانى جـ١ ص٦.

٤ ـ كتاب الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى جـ١ ص ٦٧.

فهذا الحديث السابق يوضح ويدلل حقيقة على أن: سيدنا محمدا ﷺ: «أول خلق الله».

ولقد روى أبو نعيم والديلمى وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كنت أول النبيين وآخرهم».

وروى ابن سعد عن قتادة بلفظ: «كنت أول الناس».

خلاصة هذا الموضوع:

أن رسول الله ﷺ قد أخبر عن نفسه بأن الله أوجده قبل كل شيء، وأن المخلوقات وجدت منه ﷺ عاقلة وغير عاقلة: من عالم الملك أو من عالم الملكوت، وأنه ﷺ: قد عبد الله قبل أي مخلوق؛ حيث قال سبحانه: ﴿... **فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ** ﴿٨١﴾﴾ [**الزخرف**] وهو: ﷺ: أول المسلمين على الإطلاق؛ فقد قال تعالى: ﴿... **وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴿١٦٣﴾﴾ [**الأنعام**]. ولقد أخبرنا بأن نوره قد أضاء مابين المشرق والمغرب، فلنقرأ فى ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿...**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ** ﴿١٥﴾﴾ [**المائدة**].

وقد وردت أحاديث نبوية عدة تؤكد ذلك ويضيق الحصر عنها، ولكننا نلمح إليها فقط، فمنها حديث السيدة عائشة حيث كانت إذ وقع المخيط من يدها فى ظلمة فإنها تراه إذا دخل الرسول ﷺ هذه الغرفة بسبب نوره، وحديث اعتراض الكدية فى حفر الخندق فلما ضربها صارت كثيبا أهيل، فج منها نور ظهرت على ضوئه أماكن كسرى وقيصر وقصورهما فى بلادهما.

ومنها حديث الأعرابى الصحيح: «يا ابن الذبيحين» وذلك يثبت حفظ النور فى الأصلاب الطاهرات والأرحام الزاكيات. ومنها: حديث المعراج ووقوف جبريل عند حده «سدرة المنتهى» واختراق الرسول ﷺ حاجز النور الملكوتى وتجلى الله عليه بالمرائى والآيات الكبرى.

ومنها ما رواه الديلمى عن ابن عباس مرفوعا، ومنها ما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس أيضا. ومنها حديث أبى سعيد الخدرى وابن عمر رضى الله عنهم، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أتانى جبريل فقال: إن الله تبارك وتعالى يقول: لولاك ماخلقت الجنة ولولاك ماخلقت النار» قال السيد الأهدل رضى الله عنه فى كتابه «فتح القريب»: له حكم المرفوع. وحديث آدم على نبينا وعليه السلام الذى رواه الإمام على كرم الله وجهه.

وحديث آدم على نبينا وعليه السلام: «يارب لم سميتنى أبا محمد ... الحديث».

والحديث الذى أخرجه الحاكم والبيهقى والطبرانى فى الصغير وأبو نعيم عن ابن عساكر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى توسل آدم بالنبى ﷺ.

وحديث أنه النجم الذى تعرف به سيدنا جبريل عليه السلام على سنى عمره، فلكل هذه الأدلة التى منها المرسل والحسن والصحيح بحسب التخريج.

لايمكن للعقل أن يقبل القول: بأن أولية خلقه ﷺ على هذا النحو، وبتلك الصورة النورانية والروحية «شىء تقديرى» كما تورط فى ذلك علماء أجلاء لهم باع فى أصول العقيدة والتفسير، ولقد صفق لهم بعد مماتهم كل المستشرقين والمستغربين؛ وذلك لأن المسألة لاتحتاج إلى تأويل، فالنصوص واضحة وصريحة لاتحتاج إلى صارف، وإلا فهذا هو ظاهر القرآن الكريم يدعم قضية الأولية النورانية، ويزيدها قوة، وذلك ما ارتآه علماء الحديث حينما تَوَافَقَ ظاهر السنة مع ظاهر القرآن الكريم، فيتم التعانق النصى كتابا وسنة، وعندئذ فلا يجوز البحث عن مغاير الدلالة، وذلك موجود أيضا عند: علماء الأصول الذين يؤكدون فى مثل هذه المسائل، أنه: «لا اجتهاد مع النص»: إذ إن المسألة تتعلق بشىء غيبى، فما علينا إلا أن نستوثق من المصادر فقط، وهل يوجد مصدر كالقرآن الكريم الذى تعانق فيه ظاهر نصه مع الأحاديث آنفة الذكر، وليس ذلك فحسب، بل إن القرآن الكريم أيضا، يوضح فى جلاء ودلالة يقينية: أن الله تعالى قد خلق أرواح الخلائق جميعا أزلا، وأخذ عليهم العهد والميثاق على ربوبيته ووحدانيته، أما الرسول سيدنا محمد ﷺ فقد سبق خلقه قبل هذه المخلوقات أى نورا، يقول الله تعالى: **﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾** [**الأعراف**].

أيضا فالله قد أخذ العهد والميثاق أزلا على أرواح جميع الأنبياء والمرسلين، أن يؤمنوا برسالة سيدنا محمد ﷺ، وأن يناصروه فى دعوته، وذلك بتوصيتهم لأممهم وأجيالهم المتعاقبة؛ إذ يقول الله تعالى فى ذلك: **﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾** [**آل عمران**]. فكيف تكون هذه المسائل تقديرية أو تمثيلية مع واقع الأرواح فى عالم الأزل كى يتحقق مضمونها فيما لايزال.

فلننظر إلى تصدير هاتين الآيتين بـ «إذ» التى هى للزمان الماضى، فهذا مايقول به علماء اللغة وجميع المفسرين، فيكون المعنى: واذكر يامحمد وقت أن أخذ الله عهد الإيمان به على ذرية آدم، واذكر يامحمد وقت أن أخذ الله على أرواح جميع الأنبياء بالإيمان بك ونصرة دينك، فهو سبحانه يذكر بصورة حال ماضية.

إذًا لابد أن يكون موجودا هذا النبى: كنور فى عالم الأزل شاهد للميثاقين، وإلا لما عبَّر الله تعالى بـ «إذ» التى تفيد الظرف الماضى وخصوصا فإن نصوص الأحاديث الشريفة تؤكد هذا المعنى.

فالمعنى واضح كل الوضوح ولايحتمل التأويل وبخاصة فى موضوع غيبى هام يعلِّق الأمة برسولها ﷺ، فتزداد له حبا ـ وبذلك تتهيأ قلوبها لاستقبال موجات النور المحمدى الذى لن يطفأ أبدا، ولن يخبو سرمدا، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾**﴾ [**الأحزاب**].

فما دامت رسالته باقية، فالسراج المنير ينير دائما بلا انقطاع، وهذا مايفارق الشمس التى وصفها الله تعالى بأنها: (سراجا وهاجا) والسراج الوهاج فيه مع الضوء ومنه أذى وحرقة وفيه انقطاع بمغيبه بالليل عند أناس، وظهوره لدى أناس آخرين بالتعاقب.

﴿**لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾**﴾ [**يس**] ولقد اتضح من حديث جابر المطول والذى لم نذكره هنا: أن نور سيدنا محمد ﷺ قد تجزأ، فخلق من كل جزء ما خلقه الله من الكائنات، فثبت وجود هذا النور بالحس، ووجوده بتقدير سيدنا جبريل عليه السلام عُلِمَ بالحس، فكيف التعبد لسبعمائة سنة تسبيحا منه لله تعالى، ومماثلة الملائكة لتسبيحه ﷺ لشىء لاحقيقة لوجوده؟!!.

فما نقل عن الإمام الغزالى رحمه الله: من أن أولية خلق سيدنا رسول الله ﷺ: «أمر تقديرى» وليس إيجادا من العدم بالفعل، إنما رأى الإمام: اجتهاد منه، وكل يؤخذ منه ويرد عليه إلا المعصوم ﷺ، وها هو شيخ مذهب الإمام الغزالى

«فى الفقه» وهو الإمام الشافعى رضى الله عنه يقول: إن صح الحديث فهو مذهبى واضربوا بقولى عرض الحائط.

وقد ثبت أن الرسول ﷺ فى رواية أخرى عن سيدنا جابر رضى الله عنه قال: «ألم تعلم أن الله تعالى قد خلق الأشياء من نور نبيك ياجابر»؟

وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «كنت نبيا وآدم مجندل فى طينته».

وقد روى الإمام أحمد والحاكم وصححه عن ميسرة الفجر رضى الله عنه قال: قلت يارسول الله: متى كنت نبيا؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد».

قال ابن رجب الحنبلى: وقد دل خبر ابن سعد عن عامر الشعبى مرسلا أن رجلا قال:

يارسول الله متى استنبئت؟ قال: وآدم بين الروح والجسد حين أخذ منى الميثاق».

وأخرج أبو سهل القطان فى جزء من أماليه عن سهل بن صالح الهمدانى قال:

سألت أبا جعفر محمد بن على: كيف صار سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث؟ قال: إن الله لما أخذ من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم. كان سيدنا محمد ﷺ أول من قال: بلى ولذلك صار يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد ثبت أن الأرواح قد خلقت قبل الأجسام بألفى عام والله تعالى أعلى وأعلم وأعز وأكرم، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وعترته وصحابته وأهل محبته.

سيدنا محمد ﷺ هو الإنسان الكامل

من كتاب «الإنسان الكامل» للشيخ الأكبر سيدنا محيى الدين بن عربى يقول:

«اعلم أن مرتبة الإنسان الكامل من العالم هى: مرتبة النفس الناطقة من الإنسان ـ أى مرتبة الروح من الإنسان ـ فهو الكامل الذى لا أكمل منه وهو: سيدنا محمد ﷺ، فهو الإنسان الكامل الذى ساد العالم فى الكمال، سيد الناس يوم القيامة.

ومرتبة الكُمَّل من الأناسى النازلين عن درجة هذا الكمال الذى هو الغاية من العالم: منزلة القوى الروحانية من الإنسان، وهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ومنزلة من نزل فى الكمال عن درجة هؤلاء من العالم: منزلة القوى الحسية من الإنسان، وهم الورثة رضى الله عنهم، ومابقى ممن هو على صورة الإنسان الكامل فى الشكل هو: من جملة الحيوان، فهم بمنزلة الروح الحيوانى فى الإنسان. واعلم أن العالم اليوم يفقد جمعية سيدنا محمد ﷺ فى ظهوره: روحا وجسما، وصورة ومعنى، نائم لاميت. وأن روحه الذى هو سيدنا محمد ﷺ هو من العالم فى صورة المحل الذى هو فيه روح الإنسان عند النوم إلى يوم البعث الذى هو مثل يقظة النائم هنا.

وإنما قلنا فى سيدنا محمد ﷺ على التعيين أنه «الروح» الذى هو النفس الناطقة فى العالم؛ أعطاه الكشف. وقوله ﷺ: إنه سيد الناس، والعالم من الناس، فإنه الإنسان الكبير فى الجِرم، والمقدم فى التسوية والتعديل؛ ليظهر عنه صورة نشأة سيدنا محمد ﷺ.

فقبل ظهور نشأته ﷺ كان العالم فى حال التسوية والتعديل كالجنين فى بطن أمه وحركته بالروح الحيوانى منه الذى صحت له به الحياة.

فإذا كان فى القيامة حيى العالم كله بظهور نشأته مكملة ﷺ موفور القوى، فليس العالم إنسانا كبيرا إلا بوجود الإنسان الكامل الذى هو نفسه الناطقة.

كما أن نشأة الإنسان لاتكون إنسانا إلا بنفسها الناطقة.

ولاتكون كاملة هذه النفس الناطقة من الإنسان [الذى هو سيدنا محمد ﷺ] إلا بالصورة الإلهية المنصوص عليها من الرسول ﷺ.

فكذلك نفس العالم الذى هو سيدنا محمد ﷺ حاز درجة الكمال بتمام الصورة الإلهية فى البقاء والتنوع فى الصور وبقاء العالم به فقد بان لك حال العالم

قبل ظهوره ﷺ: إنه كان بمنزلة الجسد المسوى وحال العالم بعد موته بمنزلة النائم وحالة العالم ببعثه يوم القيامة بمنزلة الانتباه واليقظة بعد النوم»[١].

الحياة البرزخية:

البرزخ: هو الحاجز والفاصل بين الشيئين، قال الله تعالى: ﴿**مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾**﴾ [**الرحمن**] أى بسبب البرزخ الذى يفصل بينهما فإنه لايطغى أحدهما على الآخر.

وأما البرزخ المعنىّ هنا، فهو تلك الحياة التى تكون للمنتقل إلى رحمة ربه فى فترة زمنية تفصل الحياة الدنيا عن الحياة الآخرة، وهى حياة بكيفية خاصة لايعلمها إلا الله سبحانه، وهى عامة للأنبياء السابقين ولسيدنا محمد ﷺ، وللأولياء، ولسائر الناس، فتختلف باختلاف درجاتهم عند ربهم، وإيمانهم من عدمه، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار**».

والبرزخ هو: أول منزل من منازل الآخرة، فمن مات فقد قامت قيامته.

درجات الحياة البرزخية

أ- حياة سيدنا محمد ﷺ فى البرزخ هو وسائر الأنبياء:

الواقع أن الموت بوجه عام ليس موت فناء تام للإنسان جسدًا وروحًا لأن الروح وهى أساس الحياة لا تفنى ولاتموت، وإنما الموت انتقال من حياة الفناء إلى حياة البقاء، وتلك الحياة البرزخية الروحية تختلف فى طبيعتها من إنسان لآخر. فمنهم المنعَّم فِى روضته، ومنهم المعذب فى حفرته، ومنهم المسجون فى برزخه حتى يُقضى دينُه، ومنهم ذو الروح الطليقة يؤذن لها بالتحرك فى عالم الدنيا متى شاءت، ومنهم من لاتتحرك روحه إلا بإذن خاص، ومنهم من يوظفه الله تعالى فى وظائف كونية لمساعدة الخلق كالملائكة، ومنهم من يؤمِّنون على دعاء الداعين الذين يزورونهم فى قبورهم. والأموات جميعا يعرفون زوَّارهم ويردون السلام على من سلم عليهم من الأحياء. وهم يعرفون أخبار الأحياء أولا بأول، بل قد يعرفون ما سيحدث لهم قبل أن يحدث؛ لأنهم فى عالم التجريد والبعد عن المادة الكثيفة.

---

(١) الإنسان الكامل، لمحيى الدين بن عربى، ص٢٥ .

روى ابن ماجه عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «أكثر من الصلاة علىَّ يوم الجمعة فإنه مشهود تشهده الملائكة، وإن أحدا ليصلى علىَّ إلا عرضت علىَّ صلاته حتى يفرغ منها، قال: قلت : وبعد الموت؟

قال: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام».

ووافق ابن ماجه أحمد وأبو داود وابن حيان والحاكم فى رواية قوله ﷺ: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء».

ومن ذلك: مارواه ابن سعد والبزار بسند صحيح، ورواه أيضا القاضى إسماعيل والحارث فى سنده وهو قوله ﷺ: «حياتى خير لكم تحدثون ويحدث لكم: أى تحدثون شئونا ويحدث لكم حلها وأحكامها ـ فإذا أنا مت كانت وفاتى خيرا لكم؛ تعرض علىَّ أعمالكم، فإن رأيت خيرا حمدت الله، وإن رأيت شرا استغفرت لكم».

فهذه أعمال بأسرها تعرض عليه ﷺ.

وأخبر ﷺ وهو الذى لاينقطع مده عن أحبابه وأحفاده؛ ولاينطق عن الهوى أن الأعمال تعرض عليه، فيحمد الله لخيرها، ويستغفره لشرها. فكيف ينكر عاقل مَنْ هذا حاله؟!! ولاينبغى أن يفهم أن هذا العرض «على الروح» فقط دون البدن، بل هو على الروح والبدن معا من غير شك[1].

كما يفاد ذلك من قوله ﷺ: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» وذلك جوابا لمن قال للنبى ﷺ: يارسول الله، عرَّفْنا كيف نصلى عليك، فكيف نسلم عليك وقد أرمت ـ أى بليت وفنيت ـ فقال ﷺ: «إن الله تعالى حرم على الأرض أجساد الأنبياء».

ومما يؤكد حياة الأنبياء فى قبورهم، ما رواه أبو يعلى والبيهقى من حديث أنس رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون»[2].

---

(١) طريق الله فى التصوف للعارف بالله سيدى الشيخ أحمد الشافعى أبو خليل ص٥٦، ٥٧ .

(٢) أورده البيهقى فى كتاب حياة الأنبياء، ص٤ .

فهذا الحديث كما هو واضح منه لايقتصر على إثبات حياة نبينا ﷺ فى قبره، بل تعدى إلى حياة جميع الأنبياء، فحكم عليهم خيرا بأنهم فى قبورهم، يفعلون فعل الأحياء فى الدنيا، وهو «الصلاة» ذات الركوع والسجود والقيام والقعود والقراءة وذكر الله تعالى، وهى أعمال لو شكّ أى شاك فى حياة فاعلها لكان شاكا فى حياة نفسه، وقد جاء هذا المعنى فى قوله ﷺ: «مررت ليلة أسرى بى على موسى عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلى فى قبره» رواه الطبرانى والنسائى ومسلم وابن حبان وابن خزيمة، ولايتردد أحد فى: أن الصلاة هى ذات الركوع والسجود؛ لأن الشرع إذا أطلق الصلاة لايفهم منها إلا ذلك المعنى.

وقد روى مسلم فى حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ قال: «لقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء»، إلى أن قال: «وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم - يعنى نفسه - فحانت الصلاة فأممتهم» فهذا الحديث يذكر شبه سيدنا إبراهيم وشبهه إنما يكون ببدنه الحقيقى، فدل ذلك قطعا على أنه ﷺ وقد صلى بهم إماما وهم بأبدانهم التى كانوا عليها فى الدنيا.

وكذلك جاء وصف أجسامهم صلى الله عليهم جميعا وسلم فى قوله ﷺ: «رأيت عيسى وموسى وإبراهيم، أما عيسى، فأحمر جعد - أى مجتمع الخلق شديده، عريض الصدر، وأما موسى فآدم أى أسمر، جسيم سبط، حسن القد، كأنه من رجال الزط، وهم صنف من السودان والهنود - وأما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، يعنى نفسه ﷺ.

التعليق والتوضيح لحياة الأنبياء فى قبورهم بأدلة أخرى:

إننا قد رأينا سيدنا محمدا ﷺ وهو يصف بدن سيدنا عيسى الحى، فإنه يصف بدن سيدنا موسى وسيدنا إبراهيم عليهم السلام والمنتقلين من هذه الدار إلى عالم البرزخ.

وهل قال عن سيدنا موسى: أنه «جسيم وحسن القد» إلا لحىٍّ بجسمه الحقيقى الذى خلق به؟، ومما يوضح المسألة أكثر وأكثر ما ذكره إمام التصوف فى عصره سيدنا الشيخ أحمد الشافعى أبوخليل رضى الله عنه من أحاديث، على الوجه التالى:

فقد روى الطبرانى أنه ﷺ قال: كأنى أنظر إلى موسى فى هذا الوادى محرما بين قطوانيتين» فالقطوانية: العباءة البيضاء المنسوبة إلى بلدة بالعراق يقال لها: قطوان.

وروى ابن ماجه وأحمد ومسلم أنه ﷺ قال: «كأنى أنظر إلى موسى هابطا من الثنية - مكان مرتفع - وله جؤار - صوت مرتفع - إلى الله تعالى بالتلبية، وكأنى أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء جعدة، مجتمعة الخلق شديدته، عليه جبة من صوف، خطا بناقته خلية. مارا بهذا الوادى ملبيا».

فهذا الحديث وما قبله يثبتان: أن الأنبياء عليهم السلام يخرجون من قبورهم بأبدانهم الحقيقية، لابسين الثياب ماشين أو راكبين، ويذهبون إلى حيث يحجون ويلبون ويراهم بعينه من كشف الله عن بصيرته من العباد.

فلاشك أن سيدنا موسى وسيدنا يونس قد انتقلا إلى الرفيق الأعلى قبل أن يوجد سيدنا محمد ﷺ بدهور، وإذاً فإن نظره إليهما وهما ذاهبان إلى الحج يلبيان، إنما كان وهما فى عالم البرزخ، وهذا أمر متحقق له دلالته ومبنى على قواعد الوضع العربى تفهمه العقول لأول وهلة.

فليس هناك استحالة عقلية أو شرعية تمنع من فهم الحديث على ظاهره، فنخلص من ذلك إلى الاعتقاد بحياة الأنبياء فى قبورهم الحياة الحقيقية التى يؤدون من خلالها ما يؤديه أقوياء الرجال فى دنياهم؛ فإن السفر إلى الحج ليس من الأمور التى يستطيعها كل حى، فإذا ما ترددنا فى فهم حياة الأنبياء مع هذا الاستدلال نكون قد وقعنا فى محظور أمام كلام الرسول ﷺ وكأنه موقف التكذيب الذى لايقره ولايقوى عليه ذو دين.

وخصوصا إذا ما لاحظنا: ما قدره العلماء من أن العدول عن ظواهر النصوص الثابتة من غير مقتضٍ قاطع إلى معان وتلبيسات يدعيها أهل الباطل: فيكون ذلك كفرا وإلحادا والعياذ بالله تعالى لأنه نكران للشريعة.

ومنها: حديث المعراج

إن حديث المعراج مروى فى الصحيحين ومتفق عليه، وهو يصرح فى غير ما لبس أنه ﷺ قد رأى فى السموات جماعة من الأنبياء: سيدنا آدم، وسيدنا

إبراهيم، وسيدنا يوسف، وسيدنا موسى، وسيدنا هارون، وسيدنا يحيى، وسيدنا عيسى عليهم الصلاة والسلام، وكلَّمه كل واحد منهم بما كلمه به.

ومنها: المراجعة فى شرعية الصلاة الكمية

لقد أكرم الله تعالى هذه الأمة وإلى يوم القيامة براحة ما أجملها وما أعظمها وهى: راحتنا بأداء خمس صلوات فقط فى اليوم والليلة وثواب خمسين صلاة.

حيث أشار الكليم على سيد المرسلين ﷺ بأن يسأل ربه التخفيف عن أمته فراجع ربه وسأله التخفيف مرة ثم مرة حتى وصلت إلى خمس فى الأداء خمسين فى الأجر والثواب، فالله تعالى يعلم أنها ستصل إلى ذلك ولحكمة كان التشريع على هذا النحو.

ومنها: هدية خليل الرحمن لأمة سيدنا محمد ﷺ

إننا لاننسى تلك الهدية التى منحها خليل الرحمن وهو فى عالم البرزخ فى السماء السابعة ليلة المعراج، حينما سلم عليه بصحبة جبريل عليه السلام، وعرفهما ببعضهما، ورحب به جده عليه السلام قائلا: مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح، ثم قال: يامحمد أقرئ أمتك منى السلام، وأخبرهم بأن الجنة طيبة التربة وعذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وذلك من حديث رواه الطبرانى.

أثر حياة الأنبياء البرزخية

أ ـ لقد ظهر واتضح مما سبق أن الأنبياء أحياء فى قبورهم، وأن لهم صلاة فى عالم البرزخ ولقاءات، وإننا لاننسى الحديث الذى أخرجه البزار فى مسنده، عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حياتى خير لكم تحدثون ويحدث لكم، فإذا أنا مت كانت وفاتى خيرا لكم، تعرض على أعمالكم، فما وجدت من خير حمدت الله وإن وجدت شرا استغفرت الله لكم».

ب ـ إن حياة البرزخ لغير النبى ﷺ من الصحابة ومن تبع من الأولياء بعد ذلك لها قوانينها وآثارها، كما يتضح من الآتى:

أ ـ روت السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، أنه بعد دَفْن عمر رضى الله عنه كانت تستتر حياء منه، وتقول: «كان أبى وزوجى، فأما عمر فأجنبى»، تعنى بذلك: أنه يراها فتستتر، ولم تكن تستتر ـ قبل دفن عمر ـ من أبيها وزوجها رسول ﷺ، وإن كانا يريانها فإذا ما وقفنا أمام القبر الشريف أو الضريح الأنور، وخاطبناه ﷺ، فخطابنا معه له أصل فى الدين، وهو نفس خطابنا فى تشهدنا لكل صلاة نؤديها بـ «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته»

ب ـ نعم: إنه ﷺ له روح عالية الدرجات، موهوبة منه سبحانه وتعالى بفضائل لايعلمها إلا الله الوهاب، وأنه تعالى يخبره، ويعلمه بصلاة المصلين، وخطاب الحاضرين والغائبين[1].

جـ ـ ومما يوضح أن الأموات لهم أحوال وأعمال بعد موتهم، ما رواه البخارى مختصرا والطبرانى مطولا: فعن أنس رضى الله تعالى عنه قال: لما انكشف الناس يوم اليمامة قلت لثابت بن قيس رضى الله عنه: ألا ترى يا عم، ووجدته يتخبط متحيرا يريد ثبات المسلمين بقوة شكيمة أمام الأعداء فقال: ماهكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ بئس ماعودتم أقوامكم، اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، وما صنع هؤلاء. ثم قاتل حتى قتل، وكان عليه درع نفيسة فمر به رجل مسلم «قريب عهد بالإسلام»، فأخذ الدرع، فبينما رجل من المسلمين نائم إذ أتاه ثابت فى منامه فقال: إنى أوصيك بوصية، إياك أن تقول هذا حلم فتضيعه إنى لما قتلت أخذ درعى فلان، ومنزله فى أقصى الناس: وعند خبائه فرس تستن ـ أى تذهب وتجىء عدوا ـ فى نشاط ومرح، ولا راكب عليها، وقد كفئ على الدرع بُرْمَة وفوقها رَحْلٌ. فأت خالدا فمره فليأخذها، وليقل لأبى بكر: إن علىَّ من الدين كذا كذا، وقل له أيضا: إن فلانا ـ الرقيق الذى كان قد خدمه فترة طويلة ـ عتيق، أى أنه يريد أن يكون حرا لاعبدا.

فاستيقظ الرجل، فأتى خالدا فأخبره، فبعث إلى الدرع فأُتى بها. وحدَّث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته» هذا هو: لفظ ابن حجر فى «الإصابة» فى ترجمة ثابت بن قيس.

(١) الرد المحكم المنيع. م يوسف الرفاعى ص٩٠ .

التعليق الذى يظهر أثر الحياة البرزخية:

إن هذا رجل ميت يغضب على تركته أن يأخذها غير وارثه، فيأمر من يذهب إلى قائد الجيش يخبره بمكان درعه ليردها إلى ورثته، ولما سمع هذا القائد ذلك بعث إلى الدرع فأتى بها، ثم أمر قائد الجيش أن يخبر الخليفة بما عليه من الدين ليؤديه عنه فيستريح فى قبره من ناحيته، وحتى لايندم أمام رب العالمين على ضياع ماله بموت المدين، وأن يخبر الخليفة بوصيته بعتق غلامه، لينفذ هذه الوصية بما له من السلطة العامة، وليكون قد قام بمكافأة ذلك الغلام الرقيق على طول خدمته له فى حياته، فنفذ أبو بكر رضى الله عنه ذلك.

ولننظر موقف الميت حينما ذهب إلى النائم فى الرؤيا وشدد عليه أن يبلغ مايوصيه به، وأفهمه أن الأمر جد لا هزل فيه وحق لا باطل؛ ليدفع بذلك التردد الذى قد يقع فى بعض النفوس حينما توافيه رؤيا منامية، ثم انظر كيف يصف المكان الذى به الدرع مع مبالغة آخذها فى إخفائها، ثم انظر كيف فطن هو وحده لذلك الآخذ مع أنه ميت ولم يفطن له الأحياء ممن كانوا حوله من المحيطين به من كل مكان فى الأرض التى أقاموا بها عقب المعركة. فهذا كله يؤكد تأكيدا قاطعا بأن الميت يعد موته يرى رؤية مطلقة، ويسمع سماعا مطلقا، وله حركة وقول يعرفه من خاطبه فى صورة رؤيا يريدها الله تعالى، فإذا ثبت لدينا ذلك فعلى من يحكمون بالشرك والوثنية والقبورية أن يعودوا إلى حظيرة دينهم وأن يرجعوا إلى ملة الإسلام بلا مكابرة أو عناد أو كبر أجوف وإلا ماتوا على غير الإسلام لقول الرسول ﷺ: «من كفر مسلما فقد كفر» وفى رواية: «فقد باء به أحدهما».

فلا يجوز للمسلم أن يخاطر بدينه وملته، بأن يعتقد برأى واحد: سمعه أو قرأه، فقد يكون هذا الرأى مصدره أعداء الإسلام، أو من خوارج الأمة الذين حذر النبى ﷺ من الوقوع فى براثنهم!!.

ففى صحيح البخارى - فى باب الفتن والخوارج - يقول الرسول ﷺ: «والذى نفس محمد بيده إنى لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدى بالله شيئا ولكن أخوف ما أخاف عليكم أن تبسط عليكم الدنيا فتتنافسوها كما تنافسها من كان قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم».

فعلى المسلم الذى يريد أن يقبله ربه وأن يموت على دين الإسلام: أن يقرأ الرأى والرأى الآخر وأن يحكِّم عقله وقلبه فى كل ما يقرأ وما يسمع. والله ناصر دينه ولو كره المبعدون.

الرد على من قال بانقطاع الأعمال بالموت

يحتج هؤلاء بالحديث الشريف الذى يقول فيه الرسول ﷺ:

«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له».

وهذا الفهم منهم لذلك الحديث: خطأ فادح؛ لأن الحديث الكريم لايحكم إلا على الأعمال التكليفية، والأعمال التكليفية التى ينبنى عليها الثواب والعقاب قد انتهت بالموت، لكن هناك الأعمال التشريفية التى يمتن الله بها على عباده من الأموات مثل: الصدقة الجارية، أو العلم النافع الذى يقصد به وجه الله، أو دعوة الولد الصالح. فهذه أمور يجرى للميت ثوابا تشريفى بها بعد موته، ويلتحق بذلك: من أجرى نهرا، أو حفر بئرا، أو غرس نخلا، أو سن سنة حسنة يعمل بها دائما.

إذًا فالحديث الشريف يرغِّب فى الأعمال التى يبقى نفعها فى الدنيا للأحياء، ثم أخبر أنه مادام منتفعا بها، فإن العامل فى ازدياد من الثواب وإن كان فى قبره. وإن كان قد سقطت عنه الأعمال التكليفية التى لايكلف بها إلا الأحياء.

وليس فى ذلك ما يفيد انقطاع صلته كلية بالحياة والأحياء، فما من إنسان إلا وله واقعة أو وقائع منامية مع أناس قد ماتوا من زمن قريب أو بعيد حاورهم فيها وحاوروه، وكان منهم له مايسره من أقوال أو أفعال. وقد يخبرونه بحصول أشياء غيبية ستحدث أو يحذرونه من شر ثم يحدث تحديداً ما أخبروا به.

(جـ) حياة سائر المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات فى قبورهم:

إن الحياة البرزخية ثابتة بالكتاب والسنة، ولايمارى فيها إلا مغرض، أو معاند لايهمه أمر دينه، بقدر ما يهمه من نفسه أو الحطام الفانى أو الظهور بالمخالفة لإثبات ذاته، التى لايشعر بقيمتها أمام الناس إلا إن خالفهم!!

فمن الكتاب يقول الله سبحانه: ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر]. فهذه الآية الكريمة تثبت

حياة العذاب للعصاة فى قبورهم: أول النهار وآخره، حتى إذا أتى يوم القيامة دخل الكفار النار سرمدا.

ومن السنة: قول الرسول ﷺ: «القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار».

ومما يدل على هذه الحياة فى القبور ما رواه مسلم فى صحيحه: أن النبى ﷺ: كان يعلم الصحابة إذا خرجوا إلى زيارة أهل المقابر، أو مروا بهم: أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية».

فهل يأمر النبى ﷺ أن يسلم الناس على من لايسمع ولايرد؟ فذلك أمر مستحيل؛ لأن النبى ﷺ لاينطق إلا بوحى فى مقام التشريع. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم].

وأيضا ما رواه الترمذى والحاكم وابن مردويه وابن نصر والبيهقى فى الدلائل: عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما «أن بعض الصحابة ضرب خباءه على قبر وهو لايحسب أنه قبر إنسان فإذا هو قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فقال له ﷺ هى المانعة، وهى المنجية من عذاب القبر».

فهذا امرؤ ميت يقرأ القرآن بصوت مرتفع لدرجة أن يسمعه من بينه وبينه حائل من أتربة وأحجار.

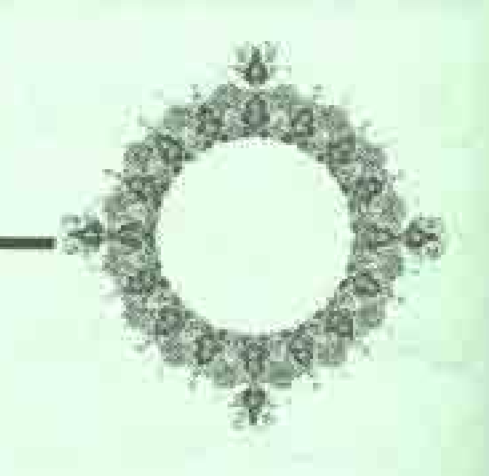
سماع الميت قرع نعال المشيعين وهم راجعون

لقد ثبت أن الميت حينما يدفن فى قبره ويبدأ المشيعون فى الرجوع إلى بيوتهم ورجالهم فإنه يسمع خصف نعالهم.

فقد روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى وذهب أصحابه فإنه يسمعهم حتى إنه ليسمع قرع نعالهم».

وروى البخارى ومسلم أيضا أن رسول الله ﷺ: وقف على قليب بدر فقال: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ ثم قال: إنهم الآن يسمعون ما أقول» روى من طريق عبدالله بن عمر رضى الله عنهما.

الفصل الثالث



التكريم والوجاهة عند الله

ينكر البعض تكريم الله لأحبابه وحبه لهم وحب من أحبهم وإفاضة الخير عليهم والعناية الخاصة التى لأنبيائه وأوليائه، ومن هذه العناية والرعاية الإلهية يغترف المؤمنون هديا وفضلا ونورا، وسعادة من الله بسبب حبهم لمن أحبهم الله وكانوا عنده وجهاء مكرمين فكان لابد من التعرض لتلك الوجاهة والحب على النحو الآتى.

وجاهة الله تعالى للنبى والولى:

الوجاهة عنده تعالى: المنزلة الرفيعة التى بها يتولى شئونهم تولية خاصة، ويعاملون معاملة مميزة.

فنحن نعامل الوجهاء منا بتكريم منقطع النظير، ولله المثل الأعلى، فالله تعالى لا يرد طلب الوجيه عنده إلا لحكمة هو يعلمها، وإن اختلف المقتضى للإجابة عندنا وعنده تعالى، فلا وجاهة أعظم من وجاهة النبى والولى؛ لأنهم عمال دينه والأدلاء عليه وكنوز رحمته ومختزن عدله وفضله. إذا دعوه استجاب لهم، وإذا رجوه لم يخيب قصدهم، وإذا استعانوا به أعانهم، وإذا استعاذوا به من شر حفظهم وصانهم، وإذا لاذوا به أعزهم، وأعز من أحبهم، فمن مقتضيات حكمته ورحمته أن: حبيب الحبيب حبيب. «ومن أحب قوما حشر معهم».

ومن وجاهة الحق سبحانه لأحبابه الأولياء: أن جعل مرادهم موافقا لمراده تعالى، وهذا هو معنى التوفيق الوارد فى قوله سبحانه: ﴿ ... **وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** (٨٨) ﴾ [**هود**] ومن دلالة الوجاهة فى التوفيق، أن القرآن الكريم كله: لم يأت فيه ذكر للتوفيق إلا فى هذه الآية وحدها.

والحكمة فى ذلك كما يقول ابن عطاء الله السكندرى: لأن التوفيق شىء عزيز ولا يعطى إلا لعبد عزيز على الله.

فنجـد أن الولى الكامل موفق فـى عبـادته وفى عمله وفى دعـائه وفى كل حركاته وسكناته لأنه يعيش لله وبالله ومع الله وإلى الله.

فإذا دعا ربه فالإجـابة مضمونة؛ لأنه تقى: ﴿ ... **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴿٢٧﴾ ﴾ [**المائدة**]. فالله تعالى وعد المتقين ـ قلبا وقالبا بالقبـول، والله سبحانه لا يخلف وعده. ولذلك كـان سيدنا عمـر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: «إنى لا أحمل هم الإجابة بقدر ما أحمل هم الدعاء».

أما إذا كـان قد سبق فى علم الله الأزلى نفـاذ أمر قضاءً مـحتما على عـبد «ما»، فإن الولى لا يوفق للدعاء، فإذا أراد الله تعـالى نفاذ أمر أمسك ألسنة أوليائه عن الدعاء لئلا يدعوا فلا يستجاب لهم فيفتضحوا.

من وجاهة النبى ﷺ:

الواقع أن وجـاهة نبينا ﷺ عند ربه لا تقع تحت حصر، فـهى من سـاعة مـولده ﷺ إلى أن تقوم السـاعة ويـنتهى العـالم. فليس فى خلق الله تعـالى من يدانيه، وكـيف يدانى من قال الله فـيه: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴿١٠٧﴾ ﴾ [**الأنبياء**]، ولفظ العالمين مـعلوم أنه: كل ما سوى الله سـبحانه. بل مـاذا يقول علماء البـيان فى ذلك الجاه؟ ومـاذا عسى أن يصف البـيان من خاطبـه الله تعالى بقوله: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ**... ﴿٣٣﴾ ﴾ [**الأنفال**]، مع أنهم هم الذين حكى الله عنهم قوله تعالى قولهم: ﴿**وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴿٣٢﴾ ﴾ [**الأنفال**] فجعل الله له جاها يحمى العالم من الخسف العام والمسخ العام الذى كان من سنن الكون فى الأمم السابقة التى كانت تطبق على كفر أو معصية، فبوجوده ﷺ كرحمة عامة فى الدنيـا. غيَّـر الله ناموس الكون، ورفع عن الـعالم كله، إلى أن تقـوم السـاعـة: الخسف والمسخ الذى كان فى الأمم السابقـة على الإسلام؛ لأن وجوده ﷺ يحقق توازنا فى الكون مع كفر الكافرين وفسق الفاسق.

حيـث إن رسالتـه باقيـة إلى يوم الدين، ولكن وجوده الشـبحى فى عـالم التكليف مـحدد بفتـرة زمنية بقـوله سبـحانه: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** ﴿٣٠﴾ ﴾ [**الزمر**].

فلابد من وجود أشباح نورانية وأجسام طاهرة، لتحمل راية الرحمة من بعده. فكان عباد الرحمن هم الورثة المحمديون، الذين لا يفترون عن الاستغفار وذكر الله طرفة عين، وهم من قال الحق فيهم: ﴿ ... **وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴿٣٣﴾ ﴾ [**الأنفال**].

نماذج من تلك الوجاهة:

١ ـ لما نزلت سورة الحجرات، وفيها آداب عجيبة، يجب مراعاتها مع النبى ﷺ من عدم رفع الصوت أمامه، وتقديمه على غيره فى كل شىء، وعدم مناداته من وراء الحجرات، والانتظار حتى يخرج بنفسه. قالت أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها ـ كما رواه البخارى ومسلم ـ «ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك». والمعنى الذى تريده رضى الله عنها: أن ربه عز وجل لا يحوجه إلى مشقة سؤال يتجشمها، حتى يسأل ثم تكون الإجابة، بل إن الله تعالى يعلم ما يحبه ويهواه فيفعله له ولو من غير سؤال.

٢ ـ حينما كان ﷺ على المنبر يوما، فسأله أعرابى أن يدعو الله تعالى أن يسقيهم، وكانوا فى قحط، فرفع حبيب الله يديه وما بالسماء قطعة من سحاب فما أنزل يديه من رفعها إلا وقد ثار السحاب فى الحال كأمثال الجبال، ولم ينزل ﷺ من على المنبر، حتى نزل عليه المطر، الذى صار يتقاطر على لحيته الشريفة، ولم يزل فى انهمار حتى الجمعة التالية، فسأل الأعرابى النبى ﷺ أن يدعو ربه أن يرفع هذا المطر، فرفع ﷺ يديه وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا»، فانقطع المطر فى الحال، وخرجوا من المسجد يمشون فى الشمس ـ رواه البخارى».

٣ ـ لقد قرأ ﷺ ما حكاه الله من قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ **رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٣٦﴾ ﴾ [**إبراهيم**] وقول عيسى عليه السلام: ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴿١١٨﴾ ﴾ [**المائدة**]، فرفع النبى ﷺ يديه وقال: «اللهم أمتى اللهم أمتى» وبكى: فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك فى أمتك ولا نَسوءُك) رواه مسلم.

حب النبي ﷺ:

إن حب النبي ﷺ: فريضة حتمية، ولا يكمل إيمان المرء إلا به، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ... ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران] وقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالديه والناس أجمعين»، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: يا رسول الله: لأنت أحب إلى من ولدى ووالدى والناس أجمعين، فقال له ﷺ: «لا يكمل إيمانك يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك التى بين جنبيك». فقال عمر رضى الله عنه: والذى بعثك بالحق نبيا يا رسول الله لأنت أحب إلى من نفسى التى بين جنبى فقال له النبى ﷺ: «الآن كَمُلَ إيمانك يا عمر».

أثر حب النبي ﷺ:

الحب هو روح الإيمان، فلا يتصور إسلام ولا إيمان بغير الحب. فلقد جاء حرملة بن يزيد فقال: يا رسول الله: الإيمان هاهنا، وأشار إلى لسانه، والنفاق هاهنا وأشار إلى صدره، ولا نذكر الله إلا قليلا، فسكت عنه ﷺ، فردد ذلك حرملة، فأخذ ﷺ بطرف لسان حرملة فقال: «اللهم اجعل له لسانا صادقا وقلبا شاكرا وارزقه حبى وحب من يحبنى. وصيِّرْ أمره إلى الخير»، فقال حرملة: يارسول الله: إن لى إخوانا منافقين كنت فيهم رأسا، ألا أدلك عليهم؟ فقال ﷺ: «من جاءنا كما جئتنا استغفرنا له كما استغفرنا لك، ومن أصر على دينه فالله أولى به، ولا نَخْرِقُ على أحد سترا». رواه الطبرانى فى الكبير.

وإنما دعا له ﷺ أن يرزقه حبه؛ لأن حبه هو الإيمان بعينه، كما أن بغضه هو الكفر بذاته، وليس حبه ﷺ أمرا يحكى باللسان، فحبه بالقلب قبل اللسان.

وما استقر حبه ﷺ فى قلب إلا رأيت آثاره فى الحال والحب المطلوب له هو:

أ ـ تعظيم يناسب قدره الأفخم ﷺ.

ب ـ ولوع بالصلاة والسلام عليه ﷺ.

جـ ـ حرص شديد على اتباعه الاتباع المطلق فى كل حركاته وسكناته ﷺ.

د ـ شوق يتأجج فى الفؤاد يطلبه طلبا لا هوادة معه ولا سكون فى أن يسعى إليه ويتشرف بالمثول بين يديه.

هـ ـ التفانى فى محبة آل بيته وإكرامهم والتواضع معهم، ولاسيما من حاز الولاية منهم، حتى ولو كانت نسبة المحب شريفة فلابد أن يرحب متواضعا بالتلمذ على من ظهر منهم بالولاية العظمى، وأن يكون سعيدا بذلك، طالبا أن يكون فى ركابهم إلى يوم الدين، ليفرح به جده النبى ﷺ. وألا يفكر فى تركهم حتى لو منح قطبانية. فالمريد مريد حتى وإن لان له الحديد، فكثيرا ما أضاع الشريف درجته العرفانية بسبب غيرته وعدم اتباعه لشريف واصل موصل وعارف بالله مبجل.

و ـ محبة الأولياء وخصوصا مشايخ التصوف وأحبابهم حبا يعتبر امتدادا لمحبة جدهم ﷺ.

أما من يقول بلسانه أنه أحبه ﷺ، ثم لايجد من آثار ذلك الحب شيئا فهو محب باللسان لا بالقلب فليس له عند الله وجاهة ولا فضل.

حياته ومماته ﷺ خير لأمته

إن هذه خصوصية له ﷺ، ولأمته بما لم يكن لنبى مع أمته من قبل، وذلك مما يبعث على البهجة والسرور، ويضمن المعايشة النورانية والارتباط الروحى المستمر، ومما يثيره، ويفتح طريقه: سلوك الطريق على يد أحفاد النبى ﷺ من العترة المطهرة الذين واكبتهم عناية الله تعالى، فجلا الله قلوبهم، وصقلها بالنور؛ ليكونوا أهلا للتلقى والإلقاء على القلوب والأرواح الأدنى درجة.

حتى يحيا الجميع على مائدة نور النبى ﷺ الذى لن يخبو ضياؤه ولن يغيب حتى قيام الساعة.

فقد روى ابن سعد والبزار بسند صحيح، ورواه القاضى إسماعيل والحارث فى مسنده قال: قال رسول الله ﷺ: «حياتى خير لكم تُحَدِّثونُ ويُحَدَّثُ لكم، فإذا أنا مِتُّ كانت وفاتى خيرا لكم تُعرض علىَّ أعمالكم فإذا رأيت خيرا حمدت الله عليه وإن رأيت شرا استغفرت الله لكم».

فهذا الحديث يدل بما لايدع مجالا للشك على بقاء نفع الرسول لأمته إلى يوم القيامة، وهو من المنح الإلهية الخاصة للمصطفى ﷺ[1].

---

(١) خصائص النبى ﷺ للمحب المكى ص٢٥ .

الرد على المنكرين لتلك الخصوصية والوجاهة

إن هناك بعضا من الناس يقولون: إن الرسول أدى رسالته ولانفع له بعد موته، فكلامهم - مع هذه الأحاديث - يعتبر مغالطة وإنكارا للحقائق العلمية ولانرى سببا لمغالطتهم تلك إلا عدم التوفيق، واجترار مايقوله أعداء الإسلام بلا حياء ولا مسئولية..

الوجود المثالى للنبى ﷺ فى كل زمان ومكان

يغيب عن أذهان الكثيرين من المفكرين الإسلاميين، وخصوصا من يعارض سلوك طريق القوم، ويعتبره إضافة غير مطلوبة دينيا، بل ربما اعتبر ذلك من البدع المحرمة التى يجب محاربتها، مما جعل البعض يتحرج من أن يتحدث عن التصوف كروح إسلامية وثابة لتربية المسلم على الإسلام الصحيح قلبا وقالبا كما كان الأسلاف. إن هؤلاء لايعتبرون الوجود الروحى للرسول ﷺ ولآل بيته الأطهار، بل يعتبرون ذلك من الخرافات والأوهام وغاب عنهم أنهم يخاطبونه فى تشهد الصلاة كل يوم مرات «السلام عليكم أيها النبى..».

وجاهة الأولياء عند الله تعالى

يزيد كل يوم عدد المنكرين للأولياء، وكراماتهم ووجاهتهم عند الله تعالى، بل ربما يهزءون بمن يذكرهم بهم وقد يرمونه بالتخلف وأنه من بقايا القرون الوسطى.

فإذا ما قلت لهؤلاء المنكرين: لقد رأيت كرامة كذا وكذا من الولى الفلانى وأن له وجاهة عند الله وتكريما بسبب تأييده له، لازدادوا منك سخرية وعتوا عتوا كبيرا.

لكن لو قلت لهم إن فلانا يفعل كذا وكذا من القبائح والنقائص لصدقوا فى الحال، حتى ولو كان هذا الرجل مشهورا بالصلاح والتقوى!!

فما السبب فى تكذيب «الخير» وتصديق «الشر»

السبب معروف وهو أن شيطانهم يخاف عليهم من محبة الأولياء الذين يوجهونهم إلى الخير، فيشككهم فيهم؛ لأن أعدى أعداء الشيطان: أولياء الرحمن.

وفى «الشر» يساعدهم الشيطان على تصديق حدوثه، ليرغبهم فى الشر بعد ذلك.

والحال مع هؤلاء المنكرين يوضحه الآتى:

١ ـ أنهم لم يخالطوا الأولياء، ولم يروا تكريم الله لهم، فجذبهم الشيطان إليه.

٢ ـ أنهم لم يطلعوا على كتاب ربنا وسنة رسوله ﷺ اطلاع تدبر ووعى، فلوا طلعوا عليهما على هذا النحو لرأوا كثيرا من كرامات الصالحين، وتعريفا بأولياء الله ووجاهتهم عند الله.

وجاهة الصالحين من القرآن:

حسبنا بعض الأمثلة التى توضح كرامة الأولياء ووجاهتهم عند الله بالآتى:

١ ـ قصة أهل الكهف التى فى القرآن الكريم وأنهم فتية مؤمنون حق الإيمان، قد ناموا فى الكهف: ثلاثمائة وتسعة من الأعوام بدون طعام ولا شراب وهى مدة كفيلة بفنائهم وهلاكهم من الوجود، لكن عناية الله وإكرامه لهم حال دون وقوع كارثة لهم بل ولكلبهم، وذلك يدل على أن الحب الإلهى ينجى من جميع المخاطر، كيف وهؤلاء أتقياء تولى الله أمرهم، حتى فى حركة نومهم، وفى هيئتهم وخلع الهيبة عليهم وصانهم وحفظهم من حرارة الشمس، ويكفى فى ذلك إعلان القرآن لكرامتهم ووجاهتهم عند الله بقوله: ﴿ ... **ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ...** ﴿١٧﴾ ﴾ [**الكهف**].

٢ ـ قصة السيدة الكريمة مريم بنت عمران رضى الله عنها وهى تتعبد فى محرابها فكانت تأتيها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف لتعيش عليها، فيدخل عليها زكريا، كما قال الله سبحانه: ﴿ ... **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴿٣٧﴾ ﴾ [**آل عمران**].

وجاهة الصالحين من السنة:

إنها كثيرة جدا وحسبنا منها الآتى:

١ ـ روى البخارى رضى الله تعالى عنه أن سيدنا خبيب بن الأرت رضى الله عنه: كان يأكل الفاكهة فى غير أوانها وهو أسير، وأن القرشيين فى إحدى معاركهم مع المسلمين: أرادوا أن يأخذوا قطعة من جسد سيدنا عاصم رضى الله عنه بعد أن قتل فلم يستطيعوا وحال بينهم وبين ذلك كم كبير من الزنابير التى أظلت جسمه كله».

٢ ـ روى البخارى أن رجلين قد خرجا من عند رسول الله ﷺ فى ليلة مظلمة جدا بحيث لايرى أحد منهما شيئا، فأضاءت لهما «عصا» أحدهما، فلما افترقا أضاءت للآخر عصاه . .

٣ ـ روى البيهقى والحاكم وابن سعد عن سيدنا عبدالله بن جحش رضى الله عنه: أنه كان يقول قبل يوم أحد: اللهم إنى أقسم عليك أن ألقى العدو غدا فيقتلنى ثم يبقروا بطنى ويجدعوا أنفى وأذنى، وتسألنى: فيم ذلك؟ فأقول: فيك ياربى. فقتل رضى الله عنه، وفعل العدو به ما طلب، رضى الله عنه وأسكنه الفردوس.

٤ ـ لقد غلب المسلمين أعداؤهم بعد رسول الله ﷺ، واستعصى على المسلمين أن يحسموا هذه المعركة لصالحهم، فذهبوا إلى «البراء بن مالك» وهو شقيق سيدنا أنس فقالوا: يا «براء» اقسم على ربك أن ينصرنا، فقال: يارب أقسم عليك لما منحتنا أكتافهم وألحقتنى بنبيك محمد ﷺ، فكان ما أقسم رضى الله عنه.

وإنما طلب الصحابة رضى الله عنهم منه أن يقسم على ربه؛ لأنهم سمعوا رسول الله ﷺ يقول فيه: «كم من أشعث أغبر ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك» رواه الترمذى.

٥ ـ روى ابن عبدالبر فى «الاستيعاب»: أن سيدنا عَمْرَ بن الجموح رضى الله عنه قد سمح له أولاده أن يخرج للجهاد فى غزوة أحد، بعد أن شكا لرسول الله ﷺ مَنْعَهم له من ذلك، فقد كان (أعرج) ممن عذرهم الله تعالى إن تأخروا عن الغزو، فكان مما قاله للرسول ﷺ: والله إنى أريد أن أطأ بعرجتى هذه الجنة»، فلما خرج بسلاحه مع المجاهدين استقبل القبلة وقال: اللهم ارزقنى الشهادة ولاتردنى خائبا إلى أهلى، فرزق الشهادة ولم يرده ربه خائبا، وحينئذ قال عليه الصلاة والسلام: «والذى نفسى بيده إن منكم من لو أقسم على الله لأبره، منهم عمرو بن الجموح، ولقد رأيته يطأ الجنة بعرجته».

٦ ـ روى البخارى أن سيدنا الزبير بن العوام رضى الله عنه لما شعر بدنو أجله أخبر ابنه عبدالله بأنه ميت لامحالة ظلما فى وقعة الجمل، فقال لابنه: ياعبدالله إن عجزت عن شىء من دَيْنى فاستعن بمولاى، قال عبدالله: فو الله،

مادريت مايقول حتى قلت: يا أبت من مولاك؟ فقال: الله. فو الله ما وقعت فى كربة من دينه إلا قلت: يامولى الزبير اقض دينه فيقضيه».

٧ ـ روى البخارى ومسلم والترمذى أنه ﷺ قال: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ».

فلو لم يرد من كرامات الأولياء ووجاهتهم عند ربهم إلا هذا الحديث لكفى ثم كفى ثم كفى. فضلا من الله ونعمة فَلِمَ الإنكار والعناد؟ إذا كان هذا فضل الله على أحبابه فلم لانستقبله بالشكر، ونحب أحبابه لنكون معهم فى الجنة؟.

ونكتفى بهذا القدر اليسير فإن الوارد فى الكتاب والسنة مما أكرم الله به أولياءه يتعسر جمعه كله أو معظمه لكثرته مما يثبت وجاهتهم عند ربهم، ومايحدث الآن مما أكرم الله به أحبابه اليوم لو جمع لملأ مئات المجلدات، فإن فضل الله على أوليائه لايحدّ.

فللأولياء رضى الله عنهم هذا الجاه منحة من حبيبهم «الله» فهم يُصْلِحون خلقه عليه لتعم رحمته التائبين الصادقين علاوة على محبتهم له وذكرهم إياه على الدوام وعملهم بشرعه ونشر محبته فى قلوب الخلق.

فأى لوم على من يلوذ بهم، ويتحبب إليهم، ويفرح كل الفرح ويُسَرُّ كامل السرور: إذا أنعم الله عليه بمحبتهم ورضاهم عنه؛ لأنه يشعر حينئذ بحال البسط والنور والبشر الذى يسكن قلبه، فيدرك أن الله تعالى قد رضى عنه برضاء أحبابه وأوليائه، فإن حبيب الحبيب حبيب، كما أن عدو الحبيب عدو (من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب).

وإن المجرِّب لهذا الحب ليحزن كل الحزن، ويسيطر عليه الهم والغم: إذا احس بشىء من تغير قلوبهم من جهته؛ لأنه حينئذ يشعر بحال القبض وظلمة القلب وقساوته المؤلمة التى هى أكثر ألما من مرض الجسم، فيدرك أنه على عتبة الخطأ فيرجع متأدبا مع أحباب الله لكى يرضى عنه مولاه فيصقل القلب بنور الله.
﴿... وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور].

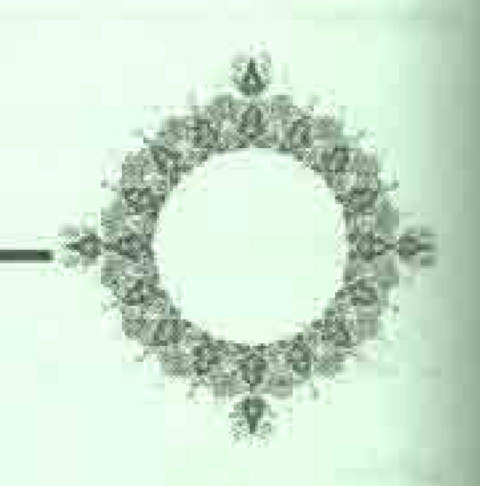
إن من عرف تلك الوجاهة والمنزلة التى منحها الله تعالى لأوليائه، ينبغى أن يتوسل بهم إلى الله تعالى فى تفريج كروبه وقبول دعائه والتوفيق لتوبة نصوح والاقتداء بهم فى صلاحهم وتقواهم.

فالهداية غالية جدا، إنها رحمة الله الحقيقية الأزلية وليست رحمة الدنيا بمال أو جاه أو عافية جسدية، إنها رحمة رضوان الله والدار الآخرة، وهذه لا تُشترى بمال فهى خير من الدنيا وما فيها؛ لأن الله سبحانه يقول فيها: ﴿ ... وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف].

وعجبا لإنسان مريض الجسد، قد لايثق فى أطباء بلدته، فيذهب ويشد الرحال إلى دول أوروبا، متحملا النفقات الباهظة أملا فى شفاء علة الجسد، ولا يحاول أن يسعى لمداواة قلبه من ظلمته وقساوته ورانه ولا أن يربى روحه على يد العارفين بالله كما كان يصنع علماء الإسلام قديما فكانوا يجمعون مع العلم: العمل والإخلاص، فسعدوا وسعدت بهم أممهم، حينما كانوا يؤثرون فى نفوس الناس وقلوبهم. ولقد نزح كثير من آل البيت إلى هذه الديار المصرية لإيجاد مدارس للأولياء المجاهدين فى شتى أنواع الجهاد حتى الآن. فلماذا لا ينتفع المعارض لأحباب الله بسر الصفوة من آل المختار، الذين لايرفعون دعاءهم إلا لله ولا يعتزون بأحد سواه. اللهم وفقنا دائما للسير على دربهم ـ درب سيدنا رسول الله ﷺ.

ولقد وُجِدَ من لا يعرف من الإسلام إلا كل مايحيط بالقالب من مظاهر الشكليات الإسلامية ومن شعائر طبعت بطابع العادة، وخلت من روح العبادة وإسلام الوجه لله تعالى. أو الاكتفاء بحفظ نصوص إسلامية تفسر وفق الأهواء، وتلقى على الأسماع بروح التعصب والجمود، وإثارة المسائل الفرعية الخلافية، وإيقاظ الفتن النائمة، وشن دعايات هوجاء تثير جدلا عقيما يتهم فيه مخالفهم بالكفر والشرك والجهل مما وسع دائرة النزاع، وبث روح العداوة والبغضاء، وأضعف الروح الدينية التى اكتفى الناس عنها ببعض الشعائر تقام أو لا تقام بحسب الظروف والأهواء.

ومن هنا كان لابد من رؤية جديدة من واقع ديننا لإحياء الروح الإسلامية التى كادت أن تزهق.



الفصل الرابع

استشعار الروح النورانية

لابد من استشعار وجوده ﷺ الروحى فى كل زمان ومكان، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ... ۝٧ ﴾ [الحجرات].

فإذا أردنا التعامل مع هذه الآية الكريمة، فلابد أن نبحث هذا الوجود المحمدى على أساس الوجودات الأربعة المقررة فى علم المنطق:

١- الوجود الذهنى:

فالنبى ﷺ: موجود فى ذهن كل مسلم وفى عقيدته وهذا هو الخط الموصل ولكن يحتاج إلى مُحَوِّل ومحطة تقوية بالشيخ العارف بالله.

٢- الوجود اللسانى:

فالنبى ﷺ: موجود على لسان كل مصلٍّ يصلى عليه داخل الصلاة وخارجها وعلى لسان كل مؤذن للصلوات الخمس.

٣- الوجود الكتابى:

فالنبى ﷺ: موجود فى الكتب الإسلامية من كتب التفسير والحديث والسيرة والأدعية والصلوات وغيرها، وفى خطبة الكتب العلمية.

٤- الوجود الجسمى:

وهذا الوجود النبوى نوعان:

أ - وجود الجسم الطبيعى وهذا لا يتأتى إلا فى مكان واحد.

ب - وجود الجسم المثالى: بمعنى أن الجسم الشريف فى مكانه من الروضة الشريفة، وتوجد أجسام مثالية فى عدة مواضع من العالم يديرها روحه العظيم على توالى الأزمنة، وهذا الوجود خاص بالأقطاب المتدركين من قواد العارفين ليسقوا العارفين، والعارفون يسقون مريديهم من ذلك النور.

الدليل على وجود ذلك:

إن الدليل على وجـود الأجسـام المثاليـة فى عـديد من الأمكنة والأزمنة من العـالم: قـول المصلين فى تشـهـدهم: «السلام عـليك أيهـا النبى» وهذا خطاب للحاضر الموجـود، وإن لم يروه كالحال فى الملائكة. فلو كان غيـر حاضر عندهم يقـينا لكان خطابهم له عـبـثا لايليق أن يـحصل فى الصـلاة التى هى من أفـضل العبادات، كيف والعبث منهى عنه فيها، ثم إن الصلاة كلها قد أتت بوحى، ومنها التشهد الذى فيه: «السلام عليك أيها النبى» فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

نماذج للوجود المثالى:

إن عالم المثال قـد اتضح وجوده فى ليلة الإسراء والمعراج وغـيرها فى صور متعددة بأحاديث ثابتة منها:

١ ـ رؤية الرسول ﷺ لسيدنا موسى يصلى فى قبره.

٢ ـ وجـود مثـالى للأنبيـاء السـابقين مـرة فى المسـجد الأقـصى مع بعض الملائكة، حيث قد صلى بهم النبى ﷺ إماما، ومرة أخرى فى السموات سماءً بعد سماء. والتى منهـا مراجعة سيدنا مـوسى لسيدنا محمد ﷺ فى مـوضوع الصلاة ليـعـيد التلذذ الـروحى بمناجـاته لله تعالى عـن طريق نبيـنا ﷺ وليس عن طريق الشجرة المباركة التى كانت فى الدنيا.

٣ ـ وجود مثالى رأته السيدة مريم فى محرابها لسيدنا جبريل الذى أتاها فى صورة بشر سوى. قال الله تعالى: ﴿ ... **فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا** ﴿١٧﴾ ﴾ [مريم].

٤ ـ وجود مثالى لصور المنعمين فى الجنة والمعذبين فى النار.

٥ ـ وجود مثالى لبعض المخلفـين عن القتال مع الرسول ﷺ بسبب أنهم لم يجدوا مايحملون عليه عند الرسول ﷺ، فبكوا حزنا على أنهم لايستطيعون الجهاد فقال الرسول ﷺ: إن فـلانا هذا كان يشاركنا فى القتال فما صـعدنا جبلا ولانزلنا سهلا إلا وقد رأيت فلانا يسير معنا إلى أرض المعركة.

قال الله سبحانه: ﴿ **وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** ﴿٩٢﴾ ﴾ [التوبة][1].

---

(١) الروض الآنف للسهيلى ج٢ ص٣٢١ .

وقيل نُزلَت فى عُلْبة بن زيد الأنصارى وهو المتصدق على الله بعرضه فقبله الله منه، فحينما خرج من الليل صلى ما شاء الله، ثم بكى وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندى ما أقوى به مع رسولك، ولم تجعل فى يد رسولك مايحملنى عليه، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى بها فى مال أو جسد أو عرض، ثم أصبح مع الناس فقال النبى: «أين المتصدق فى هذه الليلة؟ فلم يقم أحد. فقال: أين المتصدق فى هذه الليلة فليقم ولا يتزهد ماصنع هذه الليلة؟ فقام إليه فأخبره، فقال عليه الصلاة والسلام: «فو الذى نفس محمد بيده لقد كتب فى الزكاة المتقبلة».

٦ ـ وجود مثالى فى عهد سيدنا سليمان: إذ إن آصف بن برخيا قد نقل عرش بلقيس كاملا فى أقل من لحظة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ﴿ **قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ...** ﴿٤٠﴾ ﴾ [**النمل**].

٧ ـ وجود مثالى للرسول ﷺ بالدعاء على المرابين حتى فى حياة البرزخ قال الله تعالى: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ...** ﴿٢٧٩﴾ ﴾ [**البقرة**] فهذا إنذار للمرابى سارى إلى يوم القيامة. إذاً فالوجود المثالى حاصل للرسول ﷺ فهو يحارب المرابين دائما لأن القرآن باقٍ العمل به حتى بعد موته إلى قيام الساعة.

٨ ـ إن الروح القوية للولى تستطيع أن تهزم جيشا بأكمله بإذن الله كما حدث لسيدى أحمد البدوى فى الحروب الصليبية وحرب التتار فقد أظهر بطولات خارقة وشجاعة نادرة وذلك فى زمن حياته رضى الله عنه.

وهذا سر عداوة الغربيين المستشرقين له وافتراءاتهم عليه رضى الله عنه. ولكن الأولياء لايدخلون المعارك ولايمضون فى الأخذ بأسباب تنفيذ الأمور إلا بتوفيق قهرى من الله سبحانه، ولذلك فإن الملك الظاهر بيبرس حينما تم النصر للمسلمين على التتار قال: آن الأوان أن نسجل لك بطولاتك يابدوى، فقال له سيدى أحمد البدوى: إن تاريخى عند ربى يا أبله!! وقد روى عنه رضى الله عنه أنه نقل جميع الأسرى من بلاد الفرنجة إلى مواطنهم فى مصر. وليس ذلك بعسير على أولياء الله، أهل الوجاهة عند الله، فقد رأينا فى القرآن الكريم أن آصف بن برخيا كاتب سليمان ووزيره قد نقل عرش بلقيس من اليمن إلى بلاد الشام فى أقل من لمحة فهل يُقْدر اللهُ على ذلك وليا من أولياء بنى إسرائيل ولا يقدر وليا لله من آل بيت رسول الله؟!! فما دام الفاعل للكرامة هو الله فعلى مَنْ يكون الاعتراض والإنكار؟!!.

فالقرآن هو أصدق ما قيل، ويقال وأمر الله تعالى بين الكاف والنون قد قص لنا نقل عرش بلقيس من اليمن إلى الشام فى أقل من لحظة على يد ولى لله وهو آصف بن برخيا كاتب سيدنا سليمان ووزيره.

فذلك كله فعل الله وحده، ولا حرج على فضل الله.

فما بالنا بروح سيدنا محمد ﷺ وهو أعظم روح خلقه الله تعالى، فلا عجب أن يملأ العالم فى صور أجسام مثالية.

ولهذا رآه كثير من الأولياء فى أوقات مختلفة وأماكن متعددة وسألوه ﷺ عن أشياء أشكلت عليهم، فأجابهم بما أزال عنهم الإشكال - «الروح» لابن القيم ومثل هذا قد حدث لسيدى جلال الدين السيوطى، حينما كان يسأله عن أحاديث نبوية فيجيبه عنها، بل إن شيخ الإسلام د. عبد الحليم محمود قال فى كتابه «الأخلاق المتبولية» أنه استشار سيدى أحمد البدوى فى كتابته فأذن له. فهذه مذاقات خاصة لعباد الرحمن ولا ينبغى لمن لا يعرف عنها شيئًا أن يحكِّم فيها العقل، بل عليه أن يستوثق من المصدر، أمأمون على دينه أم لا؟.

حجاب الرؤية وطريقة إزالته

لايجوز لمن لم ير مثل هذه المرائى أن ينكرها، ولا أن يقيس الأمور بمقياسه الخاص به فقد يكون حجاب ظلمة المعاصى والزلات والغفلات قد ران على قلبه.

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين]، إذًا فمانع الرؤية يكون من قِبَلنا نحن، وليس من قبله ﷺ.

ولذا نجد أن العبد حينما يفارق نفسه ولو بالنوم فإنه قد يرى النبى ﷺ إذا منحه الله ذلك. وأما إذا قمع نفسه وأماتها بردعها عن غيها ووصل قلبه بخالقه فإنه حينئذ لايكون بينه وبين الحبيب المصطفى حجاب لا فى اليقظة ولافى المنام.

ولايجوز لنا أن نقيس أمر البرزخ على غيره.

فلقد سئل ملك الموت: كيف تقبض روح رجلين أتى أجلهما معا، أحدهما فى أقصى المشرق والآخر فى أقصى المغرب. فقال: إن الله تعالى قد زوى لى الدنيا بجميع ألوانها، فجعلها بين يدى كالقصعة بين يدى الآكل، أتناول منها ماشئت، وكذلك ملكَا السؤال، فالله قادر أن يعطى نبيه ﷺ الذى أعطاه لِملَكَيِ السؤال وملك الموت وفوق ذلك؛ لأنهما دونه يسألان الأموات عنه ﷺ.

رؤية الرسول ﷺ:

لقد جاء فى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ قال: «من رآنى فى المنام فكأنما رآنى فى اليقظة» فقد قال علماء السلوك: لابد من تحقق الرؤية يقظة ولو لحظة قبل الوفاة لمن رآه مناما، وقد رآه كثير من العلماء فى المنام، ثم رأوه فى اليقظة فى أحوال مختلفة، وذلك كما قال الحافظ السيوطى وغيره، ولقد ورد أن الشيطان لايستطيع أن يتمثل به ﷺ.

وروى البزار والطبرانى وأبو الشيخ وغيرهم، عن عمار بن ياسر رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال: «إن لله تعالى ملكا أعطاه أسماء الخلائق فهو قائم على قبرى إذْ متّ، فليس أحد يصلى علىّ، إلا قال: يامحمد صلى عليك فلان ابن فلان، قال فيصلى الرب تبارك وتعالى على ذلك الرجل بكل واحدة عشرا».

الحكمة من خدمة التبليغ:

إن الرسول ﷺ يسمع كل من فى الكون، ويبصر كل من فى الكون. وليس هو فحسب وإنما أيضا جميع الأولياء كما ورد ذكره فى الحديث القدسى الآنف الذكر (كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به) وعن حكمة هذا التبليغ - مع السمع والبصر - يقول العلامة الحلبى رحمه الله:

إن خدمة التبليغ التى يقوم بها الملك: إنما هى على سبيل الاحترام والتوقير.

ولأجل الترغيب فى الصلاة والسلام عليه للجميع، لكيلا يحرم أحد من الأمة، ولإحداث مهرجان أسبوعى يشجع الأمة كلها من مطيع ومن عاص على عبادة مضمونة القبول عند الله، فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم يسمع بنفسه صلاة المصلى عليه: ليلة الجمعة ويومها، فقد قال ﷺ: «أكثروا من الصلاة والسلام على يوم الجمعة وليلتها؛ فإن صلاتكم معروضة على».

وقد روى الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليهبطن ابن مريم حكما عدلا وإماما مقسطا وليسلكن فجا حاجا أو معتمرا وليأتين قبرى حتى يسلم على ولأردن عليه». هذا الحديث صححه الحاكم، وسلمه الذهبى.

ويستفاد أيضا من هذا الحديث: سنية زيارة القبر الشريف؛ لأن النبى ﷺ قد أخبر بزيارة عيسى له فى قبره، وأقره ﷺ.

ولايجوز أن يعترض معترض على حجية ذلك؛ لأن النبى ﷺ قد أخبر وهو الصادق المصدوق الذى لايخبر إلا بوحى فى مقام التشريع العبادى، بأنه عليه الصلاة والسلام قال: «ولأردن عليه» وهذا فيه دليل واضح على وجوده المثالى فى برزخه المعطر الشريف، فالأدلة والبراهين على الوجود المثالى - الذى يُحارب الآن - كثيرة جدا، والمفروض أن نعتز ونفرح وننهل من هذه الأنوار، لا ننكر ولا نجادل بلا مبرر وألا نستكثر على رسولنا ﷺ وعلى أولياء الله عطاء الله فنكون على قدم متوازية مع أعداء الرسالة والرسول الذين ينكرون ذلك.

فمن كنوز المعرفة وروائع الفكر الإسلامى ما يقوله العلامة الحلبى رضى الله عنه، حيث قال: «ومن الأدلة النقلية والعقلية أيضا - أى على الوجود المثالى: أن الله تبارك وتعالى قد نَصَّب النبى ﷺ شاهدا على أعمال العباد: خيرها وشرها إلى يوم القيامة فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [**الأحزاب**].

والشاهد: لابد أن يكون حاضرا للمشهود عليه، وناظرا للمشهود إليه.

فعلم بذلك أنه ملأ كل عالم، وحاضر فى كل مكان بوجود مثالى وضعه الله فيه ليؤدى رسالة عامة خالدة، ثابتة مستقرة، قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴿٩﴾﴾ [**الحجر**] أى إلى يوم القيامة، هذا، وإن القرآن الكريم: قواعد كلية فلابد من توضيحه وتفصيل أحكامه بالرسول ﷺ، أى بالسنة التى هى جميع أقواله وأفعاله وتقريراته وأحواله وصفاته ﷺ، قال تعالى: ﴿ ... **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴿٤٤﴾﴾ [**النحل**] فالذكر هنا: هو القرآن، والتبيين: أى لتفسر وتوضح بأقوالك وأفعالك وتقريراتك وأحوالك وصفاتك.

فإذا كان القرآن وهو «المفسَّر» محفوظا بوعد الله، وإن السنة ضرورية لتفسيره، فلابد أن تكون هى الأخرى محفوظة بحفظ المفسر - إلى أن تقوم الساعة. فلابد أن تُستَجلَى أحواله وصفاته من وجود مثالى يطبعها فى وجدان خواص أمته، ويرسلها طليقة لمن كان أهلا لها، استمرارا لهيمنة قدوته الشريفة على كافة النفوس والله أعلم.

وورد عن البيهقى وابن عساكر وغيرهما عن حاطب مرفوعا إلى النبى ﷺ أنه قال: «من زارنى بعد موتى فكأنما زارنى فى حياتى».

فأكرم به ﷺ من مضيف منحه الله كرم الضيافة لضيفه بتأهيله للمغفرة والرضوان من الله سبحانه لمن استغفر الله من ذنبه بين يديه ﷺ.

فلتقرأ فى ذلك قول الله سبحانه: ﴿ ... ولَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [النساء].

لا تموت الروح بموت البدن

إن الموت حالة تعترى الإنسان ولايستطيع الفكاك منها، مهما كانت قوته أو غناه أو عافيته أو وجاهته، فقد حسمت هذه القضية بمثل قول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر].

والمعنى المتعارف عليه والذى لايشوبه أدنى خلاف أن البدن يموت بمفارقة الروح له. وفى الواقع أن الموت ماهو إلا: انتقال من حالة إلى حالة وليس عدما مطلقا لمن يموت.

أحوال البدن بعد مفارقة الروح:

للبدن بعد مفارقة الروح أحوال:

الأولى: بقاء البدن بعد مفارقة الروح وذلك للأنبياء والشهداء وكثير من الصالحين والمؤذنين حسبة وحملة القرآن الذين يحلون حلاله ويحرمون حرامه، فقد جاء فى بعض الآثار أن الأرض تقول لرب العزة: كيف آكل جسده وفى جوفه كلامك.

الثانية: إن بعضا من أهل الحالة الأولى: تفارقه الروح مؤقتا، ثم تعود إلى البدن بعد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ... ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران] كما هو الحال فى الأنبياء، فالنبى ﷺ: يفرح ويستغفر وتعرض عليه الأعمال، فيحمد الله إن كانت خيرا، ويستغفر لأمته إن كانت غير ذلك. ومنه ماحدث لسيدنا موسى عليه السلام، إذ رآه ﷺ وهو يصلى فى قبره، والصلاة ذات قيام وقعود وركوع وسجود. وكل ذلك لايتأتى إلا بالبدن، ورأى بعض الأنبياء يحجون البيت، يعجون بالتلبية وهو الذى أم الرسل والأنبياء والملائكة، ثم رأى بعضهم وتكلم معهم فى السموات ووصفهم بصفاتهم وبما كان عليه بعضهم فى الدنيا.

الثالثة: أن تفارق الروح الجسد وأن يبلى الجسد ولايبقى فى البرزخ إلا الروح. وتلك الحالة هى ما عليها غالبية الناس.

أنواع الموتى بالنسبة للجزاء:

١ - نوع فى النعيم المقيم الذى أعده الله لهم، فيشعرون بكل شىء، وتصلهم المعلومات عن الأحياء، وتعرض عليهم أعمال أقاربهم، ويردون التحية، ويستأنسون بالزيارة ويفرحون بالاستغفار لهم والصدقة والدعاء وهدايا تلاوة القرآن لهم.

٢ - نوع فى عذاب - وهم الذين لم يقروا بالوحدانية، وأهل المعاصى التى لاتتبعها توبة، وأصحاب البدع والذين يبيعون الدين بالدنيا الفانية. والكفر بجميع أنواعه سبب لذلك، فهؤلاء يكونون مشغولين بأنفسهم لأن المرء تهمه نفسه قبل أحد، وخاصة إذا كانوا فى شقاء. وها هو القرآن العظيم يوضح أن الروح الموحدة الصالحة تفارق جسدها وتنعم بما فرضه الله لها[1].

وفى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الكثير من بيان ذلك، وهذه تبقى على هذا الحال بقاء الدنيا، فإذا نفخ فى الصور النفخة الأولى: ماتت أرواح الملائكة والإنس والجن، ومصداقا لقوله تعالى: ﴿ **وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** (٨٨) ﴾ [**القصص**].

فينادى الخالق جل جلاله: ﴿ ... **لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ** ... (١٦) ﴾ فيجيب ذاته بذاته: ﴿ ... **لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** (١٦) ﴾ [**غافر**].

فالأبدان ماتت: عندما فارقتها الأرواح: فى الموتة الأولى.

والأجساد والأرواح تموت عند النفخة الأولى.

وفى قوله تعالى: ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ**... (٦٨) ﴾ [**الزمر**] ممن خلق من ذوات الأنفس. وكلمة «من» فى قوله تعالى: ﴿ ... **إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ**... (٦٨) ﴾ [**الزمر**]: لايقتضى أن تكون للعاقل فقط؛ ذلك لأن الله تعالى قال: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** ... (١٨٥) ﴾ [**آل عمران**] فالنافخ فى الأولى يحتمل أن يبعثه الله بإرادته لموته، ثم يحييه لينفخ النفخة الثانية.

---

(١) خصائص النبى للمحب المكى ص١٦١، ١٦٢ .

انتفاع الحى بالميت: كما يجوز أن يتوسط حى فى قضاء مصلحة حى - والفعل لله وحده - فإنه يجوز أن تتوسط روح ميت فى قضاء مصلحة حى أو ميت - والفعل لله وحده - والأرواح باقية على الحياة وأفعالها فى عالم الملك إنما تظهر بواسطة البدن مادام حيا بالحياة الحيوانية فإذا مات وفقد الحياة الحيوانية بقيت نفسه وروحه على حياتها الملكوتية وتعلقت بجسمه تعلقا آخر على وجه يعلمه الله وحده كما دل عليه نعيم القبر وعذابه. فإذا كان الفعل فى الواقع ونفس الأمر إنما هو للنفس والروح، والجسد آلة فقط يظهر به الفعل، والروح باقية خالدة ففعلها باق وتصرفها فى أفعالها لايتغير إلا بعدم ظهور الأفعال بواسطة البدن فلا مانع عقلا وواقعا أن يكون بعض أرواح الأولياء والصالحين بعد موت الأجساد سببا بدعائها وتوجهها إلى الله تعالى فى قضاء حوائج الزائرين لهم المتوسلين بهم دون أن يكون لها مدخل فى التأثير فلا فرق بين التوسط بالأحياء فى قضاء الحوائج مع اعتقاد أنه لافاعل إلا الله. وبين توسط أرواح الأموات مع اعتقاد ذلك. والله أعلم.

الحب إكسير الحياة :

لقد خلق الله تعالى الإنسان ليؤدى رسالته من منطلق الحب والبشر والسرور؛ لأن أساس وجوده فى هذا الكون هو المعرفة، والمعرفة لا تتأتى إلا بالحب والحب لا يتحقق إلا بتضحية المحب وترضية محبوبه.

قال الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [**الذاريات**]: أى إلا ليعرفون، والمعرفة: عبادية ومذاقية: أى تعنى القرب من المعبود أى المحبوب، والمعرفة هى: نفس القرب، والقرب هو: ما أخذ القلب وأثر فيه أثرا يظهر على الجوارح ويهز المشاعر.

المعرفة لغة واصطلاحا:

المعرفة فى اللغة: هى العلم الذى لايقبل الشك.

المعرفة فى اصطلاح التصوف: هى: العلم الذى لايقبل الشك إذا كان المعلوم ذات الله تعالى وصفاته.

سر المعرفة وروحها: إن سر المعرفة وروحها: التوحيد، وذلك بأن تنزه حياته تعالى وعلمه وقدرته وإرادته وسمعه وبصره وكلامه عن التشبيه بصفات الخلق، (ليس كمثله شيء).

علامة المعرفة: إن علامة وجود المعرفة: حياة القلب مع الله تعالى على الدوام، وهذا هو السبب فى أنه يقال للولى: العارف بالله تعالى.

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: أتدرى مامعرفتى؟ قال: لا.

قال: حياة القلب فى مشاهدتى، فإن قيل: ففى أى مقام تصح المعرفة الحقيقية؟

يقال: فى مقام الرؤية والمشاهدة بسر القلب، وإنما يرى ليعرف؛ لأن المعرفة الحقيقية فى باطن الإرادة فيرفع الله تعالى بعض الحجب فيريهم نور ذاته تعالى وصفاته عز وجل من وراء الحجاب ليعرفوه تعالى، ولايرفع الحجب بالكلية لكيلا يحترق الرائى.

أنواع التجلى: ١ ـ تجلى الجلال ٢ـ تجلى الجمال ٣ ـ تجلى الصفات ٤ ـ تجلى الذات.

فتجلى الجلال والعظمة يوجب الخوف والهيبة، وتجلى الجمال والحسن يوجب العشق، وتجلى الصفات يوجب المحبة، وتجلى الذات يوجب التوحيد.

الدنيا والمعرفة: قال بعض العارفين: والله ما نال رجل الدنيا إلا أعمى الله قلبه وبطل عليه عمله، إن الله تعالى خلق الدنيا مظلمة وجعل الشمس فيها ضياء. وجعل القلوب مظلمة وجعل المعرفة فيها ضياء، فإذا جاء السحاب ذهب نور الشمس فكذلك يجىء حب الدنيا فيذهب بنور المعرفة من القلب.

وقيل: حقيقة المعرفة نور يطرح فى قلب المؤمن ـ وليس فى الخزانة شىء أعز من المعرفة[1].

وسئل بعض العارفين: متى يعرف العبد أنه على تحقيق المعرفة؟ فقال: إذا لم يجد فى قلبه مكانا لغير ربه، وقال بعضهم: حقيقة المعرفة: مشاهدة الحق بلا واسطة ولا كيف ولا شبهة. وقيل لسيدنا على كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين

(١) روضة الطالبين ص١٢١، ١٢٢.

أتعبد من ترى أو من لاترى؟ فقال: لا بـل أعبد من أرى، لا رؤية العيان، ولكن رؤية القلب.

وقيل للإمام جعفر الصادق رضى الله عنه: هل رأيت الله عز وجل؟

قـال: لم أكن لأعبـد ربا لم أره. قـيل: وكيف رأيـته وهو الذى لاتدركـه الأبصار. قال: لم تره الأبصار بمشاهدة العيان ولكن تراه القلوب بحقائق الإيمان، لايدرك بالحواس ولايقاس بالناس.

وسئل بعض العارفين عـن حقيقة المعرفة، فقـال: تخلية السر عن كل إرادة وترك ماعليه العادة وسكون القلب إلى الله تعالى بلا علاقة وترك الالتفات منه إلى ما سواه، ولايمكن معرفة كنه ذاته ولامعرفة كنه صفاته عز وجل ولايَعْرِفُ من هو إلا هو تبارك وتعالى والحمد لله وحده.

الحب والإسلام:

إن كل من أوتى حظا من المعـرفة، ونصـيـبا من الفـهـم والتذوق لنصـوص الإسـلام من آيات قرآنيـة وأحاديث نـبوية تـتـضح أمامـه الرؤية، ويعلم يقـينا أن الإسلام دين الحب، وأن المؤمن لايجد حلاوة الإيمان إلا إذا أحس حرارة الحب.

وفى ذلك يقـول رسـول الإسـلام ﷺ: «ثلاث من كن فـيه وجـد حـلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار» [رواه البخارى ومسلم].

بل إن ديننا الحنيف أمرنا أمر إيجاب بالحب ودعانا إلى تحقيقه وحضنا عليه، فيقول الرسول ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبونى لحب الله إياى، وأحبوا آل بيتى لحبى». رواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما.

فنرى من ذلك: أن الإسلام يـدعو إلى المحبـة: محبـة الله تعالى، ومحـبة رسوله ﷺ، ومحـبة آل البيت والصحابة، ومحـبة الدين والعقيدة، ومـحبة الخلق الأسوياء.

فالحب بكل مـعانيه الإيجـابية الروحيـة سمة لازمـة، لايكمل إيمان ولايتم إسلام إلا به، فـهو عاطفة جـياشة بالخيـر والعطاء والنور والصفاء يزدان بهـا الجو الإسلامى، وتعبق أجواء المحيط الدينى، وتعلى شأن المجتمع العقدى[1].

(١) الحب فى القرآن، د. محمود بن الشريف.

وآية ذلك: حديث أنس رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يخطب على المنبر، فقام أعرابى فقال: يارسول الله: متى الساعة؟ فقال له الرسول ﷺ: «ماذا أعددت لها؟» قال: والله ما أعددت لها كثير صلاة ولا كثير صيام، ولكنى أحب الله ورسوله. فقال له ﷺ: «أنت مع من أحببت». وفى رواية «المرء مع من أحب» فقال أنس راوى الحديث: فو الله مافرحنا بشيء بعد الإسلام مِثْلَ فرحنا بقول الرسول ﷺ له: أنت مع من أحببت. ثم قال أنس: وإنى أحب رسول الله، وأحب أبا بكر، وأحب عمر، وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم».

وكفى بالحب تعظيما وأهمية فائقة أن يسأل الرسول ربه أن يحققه له وأن يعيش دائما فى كنفه، فقد روى الترمذى أن رسول الله ﷺ كان يتوجه إلى ربه راجيا أن يمنحه إياه فيقول:

«اللهم إنى أسألك حبك وحب من أحبك وحب ما يقربنى إلى حبك».

فلا إسلام بلا حب، فإن المنافقين كانوا فى عهد النبى ﷺ ينطقون بالشهادتين ويؤدون الصلاة - الظهر والعصر - وينفقون وهم كارهون لكن قلوبهم كانت خاوية من الحب - فلا حب إلا لأغراضهم الدنيوية.

فلا إيمان بدون حب، فالحب هو أساس للإيمان والإسلام الصَّحِيحَيْن. فقد روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال:

«والذى نفسى بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم».

أبعاد الحب:

للحب أبعاد أربعة: ١ - حب الله للعبد ٢ - حب العبد لله.

٣ - حب فى الله ٤ - حب للشهوات المحرمة.

فحب الله للعبد معناه: أ - التوفيق للطاعة ومنح العبد حبا خاصا للدين.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يعطى الدنيا من أحب ولمن لايحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه».

ب - كثرة الابتلاءات المقرونة بالتفويض والتسليم والرضا التام.

فقد سئل رسول الله ﷺ: أى الناس أشد بلاء يا رسول الله؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل يُبتلى الرجلُ على قدر دينه، فإن كان فى دينه قوة: اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رِقَّة خَفَّ بلاؤه.

جـ - أن يُحَبِّبَهُ فى عباده الصالحين؛ لينهج نهجهم بعد أن كان ما كان، فقد قال ﷺ: «خير الأصدقاء من يذكرك إذا نسيت ويعينك إذا ذكرت» وقال ﷺ: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كبائع المسك ونافخ الكير. . .» رواه البخارى فى صحيحه.

وحب العبد لله معناه: أ - طاعة الله تعالى وذكره المستمر على جميع حالاته.

ب - حب النبى ﷺ. جـ - حب آل بيته ﷺ.

قال ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم به نعمه وأحبونى لحب الله إياى وأحبوا آل بيتى لحبى».

وقال عليه الصلاة والسلام فى حديث شريف: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

وحب فى الله: هو حب المسلمين لبعضهم البعض ابتغاء مرضات الله. فقد بين عليه الصلاة السلام أن من السبعة المكرمين يوم القيامة فى ظل عرش الرحمن: «ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه» وفى الحديث القدسى: «المتحابون فِىَّ المتزاورون لجلالى أظلهم يوم القيامة تحت ظل عرشى».

وأما الحب المجرد عن العفة والشرعية: فهذا حب شيطانى يُودِى بصاحبه فى أتون نار جهنم - فهو حب لاكتساب مال محرم أو جاه بطرق غير مشروعة أو شهوة لفاحشة أو لسكر؛ لأن إدمان هذه الأشياء يجعلها محببة للنفس المريضة التى شذت عن الفطرة والاستقامة.

وهذا الحب يجرد صاحبه من أمارات الإيمان، ويجعله مجردا من الإنسانية، مُسْتَذَلاً مستعبدا مستهدفا للأهواء والانحرافات الجامحة. فيكون مباءة للأمراض ومستودعا للميكروبات والجراثيم الحسية والمعنوية، ومكروها من سائر الخلق، قد طبعت كراهيته فى قلوب المؤمنين الأسوياء منه ويكون مبغَّضا من أهل السماء،

وعرضة للموت على غير الإسلام إذا لم يقدم توبة نصوحا كاملة الشروط والأداء. فيخلد فى النيران كالكافر والعياذ بالله.

قال رسول الله ﷺ: «لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن. فإذا فعل ذلك فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه» رواه البخارى.

فالحب: تضحية ووفاء وجهاد أصغر وأكبر وذكر للمحبوب وطاعة له واستسلام لقضائه وأداء كامل لحقه، ودعوة للإيمان والعمل الصالح. وتواصٍ بالحق وتواصٍ بالصبر.

المحبة وسريانها المتدفق:

المحبة الروحية سر يسرى فى الكيان الإنسانى فيجرد العلائق المادية فيكون المنزع ملائكيا، يفيض على من حوله بالأسرار والأنوار، فكلما امتلأ إناء وفاض فإنه ينسكب من جوانبه، وذلك هو السر السارى، بل الخصائص الذاتية للنور الذاتى الذى يهتك أستار الحجب، ويزيل أغطية الران، فيغدو المسلم مسلما كاملا والمؤمن مؤمنا حقا، وتلك هى الحركة الديناميكية للتصوف الصحيح: نور - هداية - قرب - وجد - شوق - أنس - بهجة - وصل.

ويقول: د. محمود بن الشريف رحمه الله فى كتابه «الحب فى القرآن» تحت «عنوان حب الحب»[1]:

«الله هو النور هو الحق والعدل والخير والسلام: فمن أحب النور والحق والعدل والخير والسلام، فقد أحب الله لأن الله هو الحب».

لأن المؤمن إذا أحب شيئا صار له عبدا، والله لايرضى أن تكون عبدا لغيره فالعبودية لاتكون إلا لله، إذ هو الإله المعبود والعبادة له والحب له. فالحب عبادة وأيما عبادة، والعبادة تقوم على الخوف وعلى الرجاء وعلى المحبة. يقول ذو النون المصرى رضى الله عنه: «إن المؤمن إذا آمن بالله واستحكم إيمانه: خاف الله، فإذا خاف الله تولدت من الخوف هيبة الله، فإذا سكنت درجة الهيبة قلبه دامت طاعته لربه، فإذا أطاع تولد من الطاعة الرجاء، فإذا سكنت درجة الرجاء تولد من الرجاء المحبة، فإذا استحكمت معانى المحبة فى قلبه: سكنت بعدها درجة الشوق، فإذا

(١) الحب فى القرآن، د. محمود بن الشريف ص٢١، ٢٢ .

اشتاق أداه الشوق إلى الأنس بالله، فإذا أنس بالله اطمأن إلى الله. فإذا اطمأن إلى الله: كان ليله فى نعيم ونهاره وسره وعلانيته فى نعيم».

مراتب الحب

للحب خمس مراتب: ١ ـ العلاقة ٢ ـ الصبابة ٣ ـ الغرام ٤ ـ العشق ٥ ـ التتيم.

المرتبة الأولى: سميت العلاقة، لتعلق القلب بالمحبوب.

المرتبة الثانية: سميت الصبابة؛ لانصباب القلب إلى المحبوب.

المرتبة الثالثة: سميت الغرام وهو الحب الملازم للقلب.

المرتبة الرابعة: سميت العشق؛ وهو انفراد المحبوب بالقلب.

المرتبة الخامسة: سميت التتيم؛ وهو هيمان القلب بالمحبوب.

فالمعنى العملى للحب هو: أن حب الله هو: أن يُقْبِلَ المرءُ على الله، ويُسلمَ وجهه وأمره ومقاليده وكيانه كله لله.

وأن يتوكل عليه، ولايسأل إلا إياه ولايعتمد إلا عليه، وأن يؤثر طاعته على النفس والمال والولد والجاه.

وأن يكون هدفه: الله وغايته: الله، كما قال الله: ﴿ ... **قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ** ﴿٩١﴾ ﴾ [**الأنعام**].

مصادر الحب

للحب روافد يُستقى منها:

والحب الذى نرنو إليه هو: حب العبد لربه، ذلك الحب الذى يكون نعمة النعم لهذا العبد، التى لايعرفها إلا من يتذوقها.

ولكن حب الله لعبد من عباده يكون هو الأصل، والأساس الذى يعجز أى بيان مهما كان عن تصور عظمته وجلاله وجماله؛ إذ إنه وَميضٌ قَدَرِىّ ونفح ربانى، وتجلٍّ أزلى، ومن إعجاز القرآن العظيم: أن يذكرِ الله سبحانه الحبين فى لفظتين اثنتين هما: (يحبهم ويحبونه): فقد سبق حبُّ الله تعالى حبَّ العبد، فلولا هذا السبق الأزلى ما أحب هذا العبد ربه.

وإذا كان حب الله لعبد من عباده أمراً لا يمكن أن يصفه الواصفون، فإن حب العبد لربه أمر يمكن التعبير عنه، ولكن قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا فى فلتات قليلة من كلام المحبين المولهين.

فإذا عرفنا أن الحب الإلهى هو نعمة النعم، وذروة الكرم، والغنى الذى لايسبق والسعادة التى تفوق كل سعادة، فإن هذا الحب الواعد ـ مع أنه عناية أزلية ـ له أسباب وروافد توصل إليه منها:

١ ـ تذكر كل نعمة والوقوف ـ فكريا ـ أمامها حيث يتنعم بها العبد دون استحقاق لها، بل يمنحه الله إياها بمحض الفضل.

٢ ـ حسن استقبال النعم المستجدة وتعلق القلب بالله الذى أفاضها، وشكره عليها بالقلب وباللسان والجوارح بأن ينصرف كل عضو فيما خلقه الله بالنسبة لهذه النعمة، التصرف الواعى السليم الذى يُرْضِى الحق سبحانه.

٣ ـ الإنفاق المستمر من هذه النعمة دون مَنٍّ على كل مَنْ حُرِمَها، وتوجه القلب إلى الله بالاعتذار عن تحقيق كمال الشكر، وغلق القلب عن التطلع إلى شكر الناس وثنائهم من الذين أخذوا منها.

٤ ـ حسن استقبال البلية، واعتبارها من كبريات العطايا، فهى رسالة من الحبيب لحبيبه، وعدم المقارنة مع من لم يصابوا بمثلها؛ ليتحقق الرضا التام والإذعان بل والفرح بها.

٥ ـ الكتمان لها ـ ما أمكن ـ وعدم بثها على الناس؛ لأن ذلك يعتبر تَبَرُّمًا بل والعبد حينئذ يكون قد شكا الله تعالى إلى خلقه، وليس هذا شأن المحبين، فالحب ستر المعاملة مع المحبوب.

٦ ـ التوبة النصوح الكاملة الشروط والأداء؛ لاتصال حبل الوداد مع المحبوب، فلا يمكن لحب أن يتحقق وأن يؤتى ثماره مع مخالفة للمحبوب:

تعصى الإله وأن تظهر حبه هذا لعمرى فى القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

٧ ـ اتخاذ مرشد أمين، قد سلك طريق الحب الإلهى، وَعَبَر خضَمَّهُ طولا وعرضا؛ ليدلك على طريق الحب الصحيح الذى لارجعة بعده إلى الشيطان ووساوسه.

وهذا المرشد لابد أن يكون وليا من أولياء الله، وهو مطلب عزيز فى هذا العصر لكثرة الأدعياء، وانشغال معظم القلوب بما سوى الله، لكنه موجود، فابحث عنه تجده، فله علامات يعرف بها: أ ـ نور النبوة يلوح واضحا فى وجهه. يحكى حرف (ن) فنور الوجنتين رسم: ن بلا نقطة لأن نقطتها على الجبهة (o) مستديرة: تشع نورا فى قلب الرائى فيستريح له الفؤاد وإليه ينجذب، فلا يجد تعبيرا عن تلك النشوة إلا لثم اليد الكريمة والتعاقد معا على طاعة الله تعالى وذكره. وصدق الله تعالى إذ يقول:

﴿ ... سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] فليس السيما نقطة سوداء بل نور يصعد من القلب على الوجه، لأن: (سيماهم) أى علامتهم.

وصدق القائل:

نور النبوة لائح لجبينهم يغنى الشريف عن اللباس الأخضر

ب ـ صمتهم أشعة تهدى الحائر، وكلامهم بلسم يشفى صاحب الداء الغائر.

جـ ـ أنفاسهم تعطر القلوب والمكان وتصفى كدورة النفس وترقى الأرواح، فقد قال أهل العرفان والتقوى: «إذا دخل العارف بالله تعالى بلدة وتنفس فيها سكن قلب كل مؤمن فيها» ومعنى «سكن»: اطمأن بحلاوة الإيمان، وكيف لا؟!! وهو وارث محمدى.

فهم يغترفون من بحر النبوة نورا يصلحون به الخلق على الله تعالى، وتلك عطية العطايا ومنحة المنح الربانية؛ لأن الولى من والى الله بطاعته له وإنابته وذكره المستمر، فوالاه الله بإمداده بالنور والصفاء والنقاء الذى ينتعش فى القلوب المستعدة لتلقى تلك الأنوار، وسبحان من فضل بعض الناس على بعض فى الرزق المادى الحسى والمعنوى النورانى فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قال تعالى: ﴿ ... وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف].

وعلامة وجود النور فى القلب هو: الخلق الحسن، فمن كان أحسنَ منك خُلُقًا فهو أكثر منك صفاء وتصوفا.

وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسَّم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم».

ب ـ أن يتوب الله على كبار العصاة بسببهم توبة نصوحا مستمرة وذلك بسبب النور الذى أودعه الله قلوبهم، فكل من اتصل بهم سرى سريان النور إلى قلبه فيفتق حجاب الران الذى على قلب العاصى، صاحب القلب المنكوس فيهتدى بهذا النور ويعود القلب كما كان قبل المعاصى إلى فطرته السليمة، فيأخذ ذلك المريد بورد الشيخ الذى يتغذى القلب به ليستمر نوره فى ازدياد، ويقوى على شيطانه، فيبتعد عنه شيطان الإنس وشيطان الجن، ويغدو محبا لشيخه لأنه السبب فى هدايته إلى الله تعالى، ومحبا لآل بيت رسول الله ﷺ، ويزداد حبه للنبى ﷺ، ويعكف قلبه على حب الله تعالى وذكره فيصبح فى عداد الصالحين الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون، وقد بدل الله سيئاته حسنات فأحبه وقذف محبته فى قلوب الخلق أجمعين من العرش إلى الفرش، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم] أى ودادا متصلا به سبحانه أحلى مذاقا من العسل، فإن مودتهم محبة متواصلة فى قلوب الخلق، وذلك فضل الله تعالى يعطيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

جـ ـ مايظهره الله تعالى من الكرامات ومن خوارق العادات على أيديهم مثل شفاء الأمراض المستعصية لبعض الناس الذين يريد الله لهم ذلك، والبشر والسعادة بمعرفتهم، ومثل إجابة الدعاء، وتفريج الكرب، والإنباء بأمور مستقبلية من إلهام الله لهم، وكأن الإنسان فى يوم عيد حينما يقابل وليا وذلك لانقشاع سحابة الحزن من نفس الزائر.

د ـ الحب الفائق الذى يقذفه الله فى قلوب جميع الناس الذين يعرفونهم وقد جربوا كراماتهم والاستقامة على أيديهم فأدمنوا ذلك الحب.

تفاوت الحب بتفاوت العطاء:

ليس كل الأولياء على درجة واحدة من محبة الخلق لهم؛ لأن هذا الحب يتبع عطاء الله تعالى للولى، فيزيد بزيادة العطاء وكثرة الكرامات وزيادة الأنوار التى يشعر بها من انخرط فى سلكهم كابن روحى أو محب فقط.

فكلما زادت استقامة السالك وعلا قلبه نورا وزاد بشره وصلته بربه كلما زاد

فكلما زادت استقامة السالك وعلا قلبه نورا وزاد بشره وصلته بربه كلما زاد حبه لشيخه الذى كان سببا فى هذا العطاء، والذى خلصه من رعونات نفسه الأمارة بالسوء؛ ليدخله على حضرة الله القدسية بروح تشرف إلى مراقى الملأ الأعلى، بما يفيض الله على قلبه من أسرار وأنوار. وكلما قل العطاء قل الحب.

فنحن نجد تفاوتا كبيرا بين المريدين فى الرقى الروحى، بسبب تفاوتهم فى حب شيخهم، وتفاوتهم فى الاجتهاد بالعمل الصالح والذكر، وتفاوتهم فى معادنهم. فالعلم الحديث قد طالعنا فى الفترة الأخيرة بما للسلالات الممتازة من أثر فى الوراثة بما يفسر حديث رسول الله ﷺ حيث قال: «الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا».

فمعدن الذهب لايصدأ أبدا، حتى ولو علته أتربة، فبالتخلص منها يتبقى ناصعا صافيا، وهناك معادن تحتاج إلى الجلاء المستمر وإلا فسدت.

فالإنسان الشريف نسبا، حالته غير منْ ليس شريف النسب وذلك فى قضية العمل الصالح الذى يقصد به وجه الله، فإذا تعبد كل منهما، فالشريف عادة يستمر فى استقامته مع ربه، ويترقى وقد يصل إلى مقام الإحسان فى فترة وجيزة، أما غير الشريف عادة مايتوقف وقلبه لايستمر فى صفائه إلا من رحم، وقد يرجع إلى المعصية ثم إلى الطاعة وهكذا إلا إذا منح شيخا قد أعطى الولاية العظمى فأسلم له قياد التربية وجمع خواطره فى كمال الأدب معه، ليتم له الأدب مع الله تعالى ومراقبته سرا وعلانية فيمنحه الله سر الاستقامة، وتخلع عليه خلع الرضوان فَيُشَرَّفَ بنسبته إلى سلسلة شيخه روحا. وعلى هذا الحال كان سيدنا سلمان الفارسى الذى شرب من نور النبى ﷺ حتى شهد له بها حيث قال ﷺ: «سلمان منا آل البيت» وكذلك «صهيب» الرومى، و«بلال» الحبشى ممن نجحت تربيتهم الإسلامية، فتغيرت سلوكياتهم حتى أصبحوا من قمم الإسلام الشامخة.

وصاحب النسب الشريف لكى يصل إلى مقام الإحسان فلابد له من شيخ عارف بالله تعالى ليكمل له مسيرته إلى ربه فلا يجوز الركون إلى النسب بلا حب ولا عمل.

بل إننا نجد تفاوتا كبيرا بين مشايخ الطرق والأولياء، فقد نجد شيخا لطريقة أو لسجادة أو نُصِّب شيخ المشايخ وليست معه ولاية يعتد بها لتنضح نورا على الأتباع بل يكون هو أحوج إلى من يربيه. وقد يُمنح الشيخ ولاية على قدر الاستعداد والعطاء والمهام الموكولة إليه فى الدعوة أو الخلوة مع الله، وقد يعطى الله

وليا آخر فتحا أكثر وهداية للناس أكبر وسرا أعظم. فسبحان واهب العطاء، وهذا العطاء الإلهى لايتوقف على سن معينة ولا على حفظ أحوال ومقامات الصالحين ولا كتب العارفين ولا على حفظ علم التشريع، بل قد يفيض الله بعطاء النور على صغير السن ومن لايحفظ العبارات ولكنه أستاذ فى علم القلوب وقمة شامخة فى سطوع نوره فى عالم الملكوت ولاحرج على فضل الله.

الإنسان والشيخ:

فالإنسان بدون شيخ مرشد كامل الولاية والعطاء الإلهى يتخبط فى حياته، ولايقرُّ له قرار، مهما تعلم ومهما قرأ أو حفظ من النصوص الدينية، وبخاصة فى هذا العصر الذى نحياه ورحم الله شاعر الأولياء: الشيخ على عقل الخليلى حينما قال من إلهاماته:

إذا لم يكن للنفس شيخ له هدى   يؤدبها بالسر زاغت عن السير

وهل يعبر البحر الخضم ونوءه   سوى ماهر يدرى الملاحة فى البحر

فلولا اتصال الكهرباء بأصلها   على موجة التيار ما نورها يسرى

هل حب الشيخ حرام أو كفر كما يدعى البعض؟

إن الحب فى الله من أعظم القربات التى يدعو إليها الإسلام ويحث عليها؛ لأن القلب الذى يعرف الحب لن يعرف البغض ولا الحقد ولا الحسد ولا الفتن ولا الإحن. وتلك أمور خطيرة على إسلام المرء، قد نهى الإسلام عنها بأشد النكير.

إذًا فالحب فى الله تعالى ضرورة إسلامية تدعو إليها حاجة قلب المسلم إلى الصفاء والنقاء الذى أوجبه دين الله والذى لن نستفيد من الدنيا بما حوت إلا وجوده معنا يوم أن نلقى الله تعالى، قال الله سبحانه:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء].

فالقلب السليم الصافى النقى هو الأساس فى إيمان المرء، وفى قبول عمله الصالح، وفى رضاء الله عنه، وهذا الصفاء لا يتأتى إلا من الحب الإلهى.

والذى يحقق ذلك أولا: حب الولى، وخصوصا مَنْ نتعلم على يده دروس الحب عمليا من أهل الصلة بالله تعالى:

وقد قال ﷺ: «من أحب قوما حشر معهم».

نعمة الحب:

إن كثيرا من الناس فى هذه الأيام محرومون من نعمة هذا الحب؛ لانشغال قلوبهم بمحبة أشياء دنيوية أو ملء قلوبهم بالأغيار مثل: العداء القلبى والغيرة والحقد والحسد والطمع والجشع والأثرة والأنانية والرياء وحب التظاهر والفخر والمباهاة وإعجاب المرء بنفسه وسوء الظن بالمسلمين والبخل والشح والخداع والغش والوساوس والهواجس الشيطانية والنزعات العدوانية وحب الضرر للمسلمين والفتنة والوقيعة والكبر والغرور والشماتة بالأعداء وماشاكل ذلك من مدمنى المعاصى كالفحش والعربدة وتناول المسكرات والمخدرات والسرقة والنهب، وأكل الحرام والغيبة والنميمة وفساد الطوية وحب الجدل وسوء النية والتلصص على عورات الناس، والكشف عن مساوئهم، واختراع المساوئ للناس، والقدح فى أعراضهم، وترك فرائض الصلاة، والإفطار بلا عذر فى رمضان، ومنع الزكاة، وترك أداء الحج مع الاستطاعة وما إلى ذلك من المحرمات التى تُظْلِمُ القلب وتُقَسِّيه وتكون بمثابة أغلفة وأحجبة عليه - كحجاب الران مثلا فقد قال ﷺ فى الحديث الصحيح: «إذا أذنب العبد ذنبا نكتت نكتة سوداء فى قلبه، فإذا لم يتب وأتبعه بذنب آخر اتسعت النكتة، وهكذا كلما عاود الذنب حتى تغطى القلب كله فذلكم الران الذى قال الله فيه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين].

فالحب أساس الإيمان، ودعامة السلوك السوى، وهو من أعظم النعم التى أنعم الله بها على أهل الإيمان، لأن أول شىء يجب على المكلف: المعرفة، والمعرفة مَعْبَرُ الحب وسبيله وترجمانه وإكسير وجوده ومناط حركته، فلا حياة ولا سعادة إلا بمعرفة الله تعالى المبنية على الحب.

ودليل وجود الحب كثرة ذكر المحبوب؛ لأن ذلك يعنى دوام الصلة بين المحب والمحبوب. قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذى يذكر ربه والذى لايذكر ربه كمثل الحى والميت».

والمحب لله تعالى الذاكر له على الدوام يكون فى مَعِيَّة ربه وفى كنفه ورضوانه. قال الله تعالى فى الحديث القدسى: «أنا مع عبدى إذا ذكرنى وتحركت بى شفتاه». إن المحب لله تعالى لايتمكن من هذا الحب إلا إذا كان قد تحلل من قيود المادة والشيطان وأصبح معنيا بشبكة الاتصال الروحية التى يقودها خير الأنام

ﷺ: ليحجز خطًا من هذه الشبكة النورانية يوصله به مهندس روحه وطبيب قلبه الذى ولاه الله تربيته وتهذيب نفسه حتى يكون أهلا للاتصال. ودعامة ذلك حبه لشيخه وأستاذه حبا مجردا لله تعالى، لا لغرض آخر. ولذا يجد نفسه بعد إجراء الصيانة اللازمة لقلبه بتمزيق الران الذى كان على قلبه، يجد نفسه مؤهلا للحب النبوى، مندفعا إلى التشبث بالسنة المحمدية التى تقوده إلى الأنوار المصطفوية.

فدليل الحب متابعة المحبوب، ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ... (٣١)** ﴾ [**آل عمران**].

إذًا متابعة الرسول ﷺ من علامة حب الله، فلا يكون محبا لله تعالى إلا من اتبع سنة رسول الله ﷺ وشريعته، وليس المقصود من السنة: أداء النوافل والسنن فقط كما يفهم البعض الذين يتعصبون للنوافل ويترخصون فى الفرائض ولو على رأى ضعيف.

وإنما المقصود من السنة: هدى النبى ﷺ وتشريعه الشريف أى جميع الأحكام الشرعية، سواء أكانت فرضا أم نفلا، حراما أو مكروها أو مباحا؛ لأن السنة هى: بيان القرآن الكريم كله فى جميع أحكامه.

وبذلك تكون السنة هى: جميع أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته وأحواله وصفاته فى جميع الأحكام التشريعية. والتى قال فيها المصطفى ﷺ: «من أحب فطرتى فَلْيَستَنَّ بسنتى» وقوله ﷺ: «من أحيا سنة ماتت فله أجر شهيد».

ونخلص من ذلك إلى أنه لايكون محبا لله تعالى إلا من اتبع هذه السنة الشريفة بذلك المعنى الواسع الشامل لجميع الأحكام؛ لأن الرسول ﷺ لا يأمر إلا بما يحب الله، ولايخبر إلا بما يحب الله التصديق به.

فمن كان محبا لله لزم أن يتبع الرسول ﷺ، فيصدقه فيما أخبر ويتأسى به فيما فعل، ويحب من أحب، ويبغض من أبغضه، ويحترم آله وذوى قرباه، عملا بوصاياه ﷺ فى كل ذلك.

ولما كان الإسلام قائما على المحبة؛ فإن المحبة فى استكمال الإيمان وتمامه، فقد روى أبو داود عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان».

بل إن الإيمان متوقف على المحبة التى هى أساسه وقاعدته، فقد روى مسلم

أن رسـول الله ﷺ قال: «والذى نفـسى بيـده لن تدخلوا الجنة حـتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شىء إن فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

فقاعـدة الإيمان وأساسه (الحب)، وسنامـه وذورته (الحب)، وأركانه وبناؤه (الحب) وتمامه وكماله (الحب): حب الله تعالى، وحب رسول الله ﷺ، وحب آل بيته وعترته، وحب جميع الصالحين من عباد الله.

فقد أخرج الترمذى فى المناقب أن رسول الله ﷺ قال: أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبونى بحب الله وأحبوا أهل بيتى لحبى».

وأخرج أحمـد فى مسنده عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قـال: قال رسول الله ﷺ: «إنى تارك فيكم خليفـتين: كتاب الله عز وجل ممدود مـابين السماء إلى الأرض، أو مابين السماء إلـى الأرض وعترتى أهل بيتى، وإنهما لن يفـترقا حتى يردا علىَّ الحوض».

بغض آل البيت:

إن بغض آل البيت من أمارات النفاق، ويستوجب غضب الله تعالى ودخول النار، فقـد روى الحاكم عن أبى سـعيد الخـدرى رضى الله تعالى عنه قـال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لايبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار».

وروى أبو يعلى عن أبى هـريرة رضى الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهلى من بعدى» أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ ٦ ص ٤٠ وهو مرسل ورجاله ثقات.

وأخرج الحـاكم وصحـحه عن أبى ذر رضى الله عنـه قال وهو آخذ بـباب الكعبة: «ومن عرفنى فقد عرفنى، ومن أنكرنى فأنا أبو ذر. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إن مثل أهل بيتى فـيكم مثل سفينة نوح من قومه من ركـبها نجا، ومن تخلف عنها غرق».

درجة المحب لآل البيت:

أخرج أحمـد والترمذى عن الإمام عليّ كرم الله وجـهه، أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب هذين ـ يـعنى الحسن والحسـين ـ وأباهما وأمـهما كـان معى فى درجتى يوم القيامة».

موقف السلف الصالح من آل البيت:

لقد أخرج الترمذى من حديث أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ حين نزلت هذه الآية: ﴿... **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ...** ﴿٣٣﴾﴾ [**الأحزاب**] يَمُرُّ بباب السيدة فاطمة رضى الله عنها إذا خرج للصلاة قريبا من ستة أشهر فيقول:

«الصلاة الصلاة أهل البيت» ﴿... **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴿٣٣﴾﴾ [**الأحزاب**]. رواه الترمذى فى التفسير جـ ٩ ص٦٨، وفى تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٢٧٨.

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم فى العصر الإسلامى الأول: العصر النبوى الأنور، وعصر الخلفاء الراشدين الأزهر مُثلاً عليا فى المحبة والتناصح والتآزر.

فقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه صديقا حميما وصاحبا حبيبا إلى رسول الله ﷺ محبا له، ومحبا لآل بيته، موقراً لهم، واصلا لقرابتهم، يخاف أشد الخوف من غضبهم، فحينما علم أن السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها عليه غضبى بعد حرمانها من ميراثها لأبيها بناء على حديث مروى لم يصلها «نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة»: ذهب إليها ليترضاها وليشرح لسيادتها وجهة نظره بحسب الحكم الشرعى الذى توصل إليه، ومن شدة خوفه من غضبها عليه أقسم إن لم ترض عليه فسوف يغلق داره على نفسه ولايخرج أبدا إلا لقبره، فعفت عنه رضى الله عنه وعنها؛ ذلك لأنه سمع من رسول الله ﷺ ذلك الحديث الشريف: «فاطمة بضعة منى يريبنى مارابها ويؤذينى ما آذاها».

وفى صحيح البخارى أن أبا بكر رضى تعالى عنه قال: «ارقبوا محمدا فى آل بيته».

وقد قال يوما للإمام على كرم الله وجهه: «والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلىّ من أن أصل من قرابتى».

ولقد كان الود سجالا بينه وبين آل البيت ولاسيما الإمام علىّ كرم الله وجهه، ولهذا عيَّنه معه وزير صدق فى خلافته.

وهذا الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، كان يحب آل البيت، وعين الإمام على وزير صدق له.

ولقد بلغ الود بينهما أن الإمام على قد زوج ابنته أم كلثوم للفاروق عمر رضى الله عنه وما كان أحد أشد فرحا من الفاروق فى نيل هذا الشرف الذى حازه.

ومن شدة فرحه بهذه المناسبة، كان يقول للناس: ألا تهنونى.. ألا تهنونى فكان محبا للإمام على رضى الله عنه ولولديه السيدين المباركين أبى محمد الحسن وأبى عبدالله الحسين رضى الله عنهما. مما جعله يفرض لكل منهما خمسة آلاف درهم، ولولده عبدالله ألفا واحدا فلما راجعه ابنه فى ذلك، قال: ويحك ياعبدالله، هل لك جد كجدهما، أو جدة كجدتهما، أو أم كأمهما أو أب كأبيهما».

ولقد كان فرح عمر رضى الله عنه بإسلام العباس رضى الله عنه عظيمًا فقال له: «والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب».

وكذلك الحال مع ذى النورين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه، فقد كان بارًا بآل البيت مكرمًا لهم، فلقد استأذنه الإمام على كرم الله وجهه أيام الفتنة والخروج عليه بأن يدافع عنه الخارجين عليه بنفسه، وأن يقاتل دونه، ولكنه لم يأذن له ولم يرض بذلك خوفا عليه وتقديرا لفضله، ولكن الإمام عليا رضى الله عنه بعث ولديه الحسن والحسين رضى الله عنهما فى طليعة المدافعين عن الخليفة زوج خالتيهما ومن قال له الرسول ﷺ يوما: «ماضر مايعمل عثمان بعد اليوم» وكان يقول: «إنى لأستحيى ممن تستحيى منه الملائكة».

ولكن الظالمين قد تَسَوَّروا عليه الدار من ظهرها ونفذ فيه قضاء الله المحتوم، وتحققت له بشارة رسول الله ﷺ يوم رجف أُحُدٌ بالنبى ﷺ وكان معه أبو بكر وعمر وعثمان رضى عنهم فقال: «أثبت أحد فإنما عليك نبىّ وصِدّيق وشهيدان».

حب آل البيت فريضة:

لقد رأى العلماء المحققون من أهل السنة والجماعة استنادا إلى الآيات القرآنية

الكريمة والأحاديث الثابتة الصحيحة: وجوب حب آل البيت على كل مسلم ومسلمة.

حتى ابن تيمية الذى لعلماء التصوف تحفظات على آرائه التى خالف فيها إجماع الأمة فى أخريات حياته، فإنه يوجب حب آل البيت فيقول:

ثبت فى حديث صحيح أنه لما نزل قوله تعالي: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴿٥٦﴾﴾ [**الأحزاب**]. سأل الصحابة: كيف يصلون عليه؟ فقال ﷺ: «قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته».

وقد استنبط رحمه الله من قوله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى من كنانة قريشا، واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم»: أن آل البيت من أفضل الخلق، فلا ريب أن أعمالهم أفضل الأعمال وبذلك يكون حب آل البيت فريضة للأحاديث الكثيرة الثابتة فى ذلك.

آل البيت والعلماء المنصفون:

لم تَمتَحِن الأقدار - على مدى التاريخ البشرى - قوما كاختبارات آل بيت رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم - ففى حياتهم الشريفة لاقوا العنت والاضطهاد والعدوان والحقد الدفين من أناس نسبوا إلى الإسلام ظلما، وأظهروه نفاقا بلا عقيدة، فعقيدتهم «الدنيا» جاها وزعامة وإمارة وكانوا أولياء لشياطين الإنس والجن من اليهود الذين تظاهروا بالإسلام واستبطنوا الكفر والمروق عقيدة وآلوا على أنفسهم أن يخربوا الإسلام من داخل دائرة الإسلام وباسم «الإسلام» قديما وحديثا حتى الآن، ولكننا فى الشرق ننسى بعد حين.

فبفعل اليهود تطرف بعض الناس فى نظرتهم إلى آل البيت، فمنهم المبالغون فى إظهار الحب والتعظيم بمالا يتفق مع شريعة الإسلام وهم «الشيعة المغالية» التى اختلفت مع بعضها البعض إلى ثلاث وسبعين فرقة، حيث صارت عقيدتهم التعصب من أجل التعصب، كما يقول نقاد الأدب الحديث «الفن للفن» وهذه الطوائف المغالية، تكاد أن تعبد أسماء الأشخاص لا أن تعبد الله الحى القيوم، فاخترعت لنفسها دينا جديدا غير دين الله، وتقوقعوا داخل دائرته الصماء بلا وعى ولا تفكير ولا احترام للنصوص التى أتى بها الوحى: قرآنا وسنة، بل

إنهم قد اخترعوا نصوصا مخالفة فى طرح أفكارهم التى انبثقت عن الأهواء والتى تتضح فيها أصابع الاتهام اليهودى.

وعلى النقيض من ذلك ظهرت طائفة، تعادى آل البيت وتعلن النكير عليهم وهى طائفة «الخوارج» التى انقسمت على نفسها إلى ثلاث وسبعين فرقة أيضًا، وهذه الطائفة يدفعها اليهود فى الخفاء قديما وحديثا؛ وذلك لتمزيق الفكر الإسلامى وإضعاف شوكة المسلمين بتحزبهم ضد بعضهم البعض؛ لأن الاختلاف فى الفكر الدينى ينبنى عليه الاختلاف فى الفكر السياسى، وحينئذ لا تقوم للمسلمين قائمة.

ومن العجب أن طائفة الشيعة والخوارج يزداد أثرهما ويتمزق الإسلام بسببهما يوما بعد يوم حتى الآن ولكن اسم الخوارج هو الذى يتغير فقط، ويأخذ أسماء كثيرة، تحت مسميات: جماعات يكفر بعضها بعضا ولكنها تتفق فى شىء واحد وهو تكفير سائر المسلمين الذين يخالفونهم الرأى، وأما الشيعة فاسمها هو هو؛ لأنها تستعير أسماء من آل البيت وتدعى حبهم ولا سيما الإمام على كرم الله وجهه مع أنها تمزق فكر وعقيدة الإمام علىّ وسائر آل البيت المطهرين، وتلصق فيهم فكرا بعيدا عن الدين وهم منه براء، وتنشر التعصب الأحمق والعداوة المستعرة لدى أهل السنة والجماعة بوجه عام، وتَبْرَعُ فى لصق التهم واختراع النصوص المؤيدة لفريتهم، وإذا حاول من يهمه وحدة دين الله أن يجمعهم تحت لواء واحد مع أهل السنة والجماعة، فإنهم يتظاهرون بالموافقة «تقية» ليظفروا بهم وكأنها حرب فيها منتصر ومهزوم!!

والباحث المنصف لدينه يجد فى النهاية أن الباعث الأيديولوجى لطائفتى الشيعة والخوارج الآن وقبل الآن إنما هو باعث سياسى بسبب «الإمارة» والتباكى على «الحكم» ولم يَدُرْ بخلد أحد منهم قول الرسول ﷺ: «إنكم تحرصون على هذه الإمارة وستكون حسرة وندامة يوم القيامة».

ومحرك ذلك الباعث السياسى الطامع الحاقد على مافى أيدى الناس: تخطيط خفى من دهاقنة اليهودية يباركونه ويدسون الدسائس لاستمراريته.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أحدث هؤلاء الأبالسة اختراقا لفكر بعض من أهل السنة والجماعة فقد جعلوهم ينتمون إلى الخوارج وينشرون أشياء

من مفترياتهم، يكفرون من خلالها من لم يوافقهم عليها ألا وهم الجماعات المعاصرة التى تنبث فى كل مكان فيه إسلام فى المعمورة، ومما يدل على أن ذلك يتم وفق مخطط مدروس أن الأفكار واحدة ومفردات الدعوة تجتر فى كل مكان فى العالم على نسق موحد، ورفع علم الإسلام السياسى واحد، ومن الناحية العملية الاعتناء بالمظهر الخارجى والاهتمام به على أنه هو الإسلام وكفى، وبالنسبة للعبادات الاهتمام اللامحدود بالسنن والنوافل، والتساهل والترخص فى الفرائض والأركان الإسلامية ولو كانت وفق رأى ضعيف لايعول عليه لدى العلماء الأفذاذ، وشن الغارات الادعائية والدعوية على محبى آل البيت والمتوسلين بالصالحين والزائرين لأولياء الله واعتبار ذلك خروجا عن الملة وشركا وقبورية ولن يعدموا فى ذلك لىّ أعناق الأدلة وتطويعها بحسب الأهواء والنزعات العدوانية كما سيتضح فى فصل الردود عليهم بإذن الله تعالى.

وأمام هؤلاء الشيعة المغالين والخوارج المارقين: جماعة أخرى هم أهل الوسطية والاعتدال الذين يرون أن حب الصالحين وآل البيت فريضة لازمة استنادا إلى الأحاديث الكثيرة الواردة فى ذلك، والتى منها: ماورد فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى وإنهما لن يفترقا حتى يردا علىَّ الحوض فانظروا كيف تخلفونى فيهما» فقد تأكد لنا منه أن آل البيت هم القدوة الناجحة للمسلمين فى علمهم واستقامتهم ودعوتهم إلى الله تعالى على بصيرة، فهم أمثلة حية للتمسك بالإسلام الذى جاء به نبينا الأمين ﷺ.

ومن حاد عن ذلك وزَاغَ فلا يلومن إلا نفسه.

معاملة السلف الصالح لآل البيت فى المشاكل العارضة:

كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم يعرفون قدر آل البيت من وجوب الحب والتقدير لهم، والعفو والصفح عما قد يبدر عَرَضًا من أحدهم، وذلك تقديرا وحبا لجدهم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه؛ لأن الحب الصادق يستتبع التضحية بكل مرتخص وغال ضمانا لاستمراره الذى يعقبه سعادة فى الآخرة «من أحب قوما حشر معهم» فأكرم بحب يرضى عنه الله ويباركه سيدنا رسول الله ﷺ. وها هى أمثلة توضح ذلك من حياة سلفنا:

أ - بالنسبة للتقدير والإجلال والحب المتبادل بين الآل والصحب، فقد ورد أن الصحابى الجليل الذى كان أكثر الصحابة فهما لعلم الفرائض والمواريث حيث شهد له النبى ﷺ: حينما قال: «أفرضكم زيد بن ثابت» أى أكثر علما بالفرائض والمواريث، وكان من كُتَّاب الوحى وكان من كبار القراء فهو من جهابذة علماء الصحابة، وقد بارك الله فى عمره حتى أنه عاش إلى أن كان يركب دابته بصعوبة.

وفى ذات يوم هَمَّ أن يركب دابته، فرآه حبر الأمة سيدنا عبدالله بن عباس رضى الله تعالى عنهما فهرع لمساعدته بأن يهيئ له ركاب دابته، فقال له: تنح يا ابن عباس؛ فهو يستقلّ من قدره أمام قدر ابن عم النبى ﷺ الذى كان إذ ذاك شابا صغيرا، ولكن ابن عباس رضى الله عنهما تقديرا لعلمه وسبقه وشيبته فى الإسلام قال له: هكذا أمرنا أن نكون مع علمائنا، فقبَّل زيد بن ثابت يد ابن عباس وقال: هكذا أمرنا أن نكون مع آل بيت نبينا».

وقد ورد أنه قد حدث شىء بين سيدنا محمد بن الإمام على كرم الله وجهه الذى كان ابنا للحنفية وليس من السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها، وبين أخيه من أبيه سيدنا الحسين رضى الله تعالى عنه، فأرسل ابن الحنفية خطابا لأخيه سيدنا الحسين، وكان منه: إذا وصلك خطابى هذا فبادر وصالحنى قبل أن أسبقك إلى هذا الفضل الذى أنت أهله، فأبوك لاتفضلنى فيه، لأنه أبى أيضا، ولكن أمى ليست كأمك فلو ملئت الأرض بمثل أمى ما بلغت درجة أمك؛ لأن أمك السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها سيدة نساء أهل الجنة».

ب - وبالنسبة للمشاكل العارضة: فقد ورد عن أبى الوليد الباجى قال: لما حج الخليفة المنصور العباسى أقاد الإمام مالكا من جعفر بن سليمان وأرسله إليه ليقتص منه - حيث إنه كان قد ضربه بالسوط فرفض الإمام مالك أن يقتص من جعفر بن سليمان نظرا لقرابته من الرسول ﷺ وقال: أعوذ بالله. والله ما ارتفع سوط عن جسمى إلا وأنا أجعله فى حل منه فى ذلك الوقت وما ذلك إلا لقرابته من رسول الله ﷺ».

وقال الفروى: «لما ضُرِبَ مالك، ونيل منه، حُمل مغشيًّا عليه، فدخل الناس عليه، فأفاق، فقال: أشهدكم أنى جعلت ضاربى فى حِل - قال - فعدناه فى اليوم الثانى، فإذا به قد تماثل - أى للشفاء - فقلنا له ماسمعناه منه، وقلنا له قد نال

منك؟، فقال رضى الله عنه: «تخوفت أن أموت أمس، فألقى النبى ﷺ فأستحى منه أن يدخل بعض أهله النار بسببى».

هكذا يكون الحب والاحترام والمودة لرسول الله ﷺ فى قرابته، وهكذا يكون العفو، حيث تسمو الأخلاق، ويربو الإيمان، وتتفانى النفوس حبا فى النبى ﷺ وذوى قرباه.

وفى العصر الحديث: منح الله علما لدنيا غزيرا وعطاء ربانيا وافرا لولى من آل البيت المطهرين هو سيدى الحاج محمد أبو خليل رضى الله عنه، ومن المعلوم أن الإناء لكى ينسكب من جوانبه فلابد أن يمتلئ، وهكذا ماحدث بالنسبة لوعاء النور والمعرفة الربانية ـ قلب الشيخ ـ فإنه لما فاض وزاد: انسكب فى قلوب أتباعه بما لم يعرف فى طريق القوم حتى الآن، ولا حرج على فضل الله، وكان من هؤلاء المريدين المنفوحين: الشيخ رضوان عثمان الذى منحه الله عطاء من عطاء الشيخ فصار يفسر القرآن إلهاما ويتحدث فى كافة العلوم والمعارف التى لم يقرأ شيئا عنها، ويتحدث بفراسة الإيمان والعلم الربانى الذى كان يغزو قلوب السامعين فتزداد إيمانا بالله تعالى وحبا وشوقا إلى جنابه الأقدس، فيجتمع الإخوان فى الله الذين يزورون سيدنا الشيخ فى داره المباركة بالزقازيق حول الشيخ رضوان متحلقين حلقا حلقا، ليتمكن الشيخ رضوان الله عليه من خلوته بربه، وفى يوم من تلك الأيام المباركة كان سيدنا الشيخ فى خلوته مع ربه فى داخل غرفة فى بيته المبارك قد أغلقها على نفسه المباركة والشيخ رضوان عثمان يجلس فى صحن الدار والإخوان فى الله حوله يستمعون إلى العلم الربانى الفريد فى هذا العصر والذى يشحذ همم الذاكرين والمتعبدين ويغرى العصاة المارقين بجميل الصلح على الله والانضواء تحت لواء شرع الله الحكيم.

وحينما توقف لسان الإلهام ليستريح دخل عليهم أحد من أبناء سيدى أبى خليل «صلبا» وكان إذ ذاك فى سن الطفولة، فوقف الإخوان كلهم احتراما له كعادتهم ولكن الشيخ رضوان أبى هذه المرة أن يقوم، وقال ـ فى خاطره ـ دون صوت: «هذا طفل يريد أن يخرج إلى الحارة ليلعب مع الأطفال هل من المعقول كلما دخل علينا طفل من أطفال الشيخ وقفنا حتى يخرج من بيننا وإنى رجل كبير السن. لا، لن أقوم بعد ذلك لأحد من هؤلاء الأطفال ـ فإن كان هو ابن الشيخ صلبا فأنا ابن للشيخ عهدا، وكأنه قد اعتد بنفسه بسبب الفتوحات والأنوار التى

كان يعيشها بسبب تلمذته على يد الشيخ. ولكن سيدنا الشيخ أبا خليل الذى يختلى فى الغرفة المجاورة رد على خاطر الشيخ رضوان عثمان بقوله: ياشيخ رضوان عثمان: قال: نعم ياعم قال: اذهب إلى بلدك والزم بيتك، فعرف الشيخ رضوان أنه سينسلخ من طريق القوم وأحس بقبض شديد فى صدره وعتمة فى كيانه الداخلى، وسلب لما منحه الله من أنوار، فبكى منتحبا!! فسأله الإخوان عن السبب فأخبرهم عن خاطره وهاجسه الذى تحدث به إلى نفسه، فوقفوا على باب الغرفة المباركة ليعفو الشيخ وليطلب له الصفح من ربه، ولكن الشيخ بادرهم بقوله: «الأمر ليس فى يدى فقد نفذ السهم وسبحان من له الأمر» فقام الشيخ رضوان إلى موطنه «البحر الصغير» الذى أصبح الآن ضاحية من ضواحى «المنصورة» وقبع فى منزله، ونهى الشيخ الإخوان أن يزوروه لأنه سيصبح فتنة عليهم؛ لأن الله تعالى سلب ما كان معه من الفتوحات التى كانت أصلا عطاء للشيخ ولكنه وزعها ليتفرغ لخالقه بتركيز شديد فى معظم أوقاته التى يحاول الفرار فيها من الخلق.

وحينما كان سيدنا الشيخ فى سياحته السنوية التى يمر فيها بمديريات مصر إذ ذاك وذهب إلى «البحر الصغير» فأرسل الشيخ رضوان يستأذن سيدنا فى الجلوس بحضرته ولو لخمس دقائق فأذن الشيخ له وحضر فأكب الإخوان على سيدنا الشيخ وألهمهم الله أن يستشفعوا بحبيبه وجده المصطفى ﷺ أن يصفح عن الشيخ رضوان وأن يقيله من عثرته فقالوا: لأجل حبيبك وجدك سيدنا النبى ﷺ اصفح عن الشيخ رضوان، فقال الشيخ: ولكن بشرط - قال الشيخ رضوان: أوافق ياسيدنا الشيخ، فما الشرط؟ قال أن تعتكف فى مسجد سيدنا الحسين رضى الله عنه أربعين يوما وليلة: صائم النهار، مقيم الليل ولاتفطر كل يوم من صومك إلا على تمرة واحدة. فذهب الشيخ رضوان ونفذ شرط سيدنا الشيخ لرجوعه إلى الطريق، ولما أن أكمل المدة وافته علة ومرض نقل على إثره إلى بلدته «البحر الصغير» فأذن سيدنا الشيخ للإخوان فى زيارته، وفى يوم بعد صلاة العصر كان سيدنا الشيخ يجلس أمام داره المباركة فى كفر النحال بالزقازيق إذ نظر إلى السماء فجأة ثم قال رضى الله عنه:

«إلى رحمة الله تعالى ياشيخ رضوان: لقد مات على درجة أربعين وليا» فقال بعض الإخوان: وقبل طرده من الطريق كان على أى درجة فقال رضى الله عنه: كان على درجة مائة ولى». إنه إذًا لما قل احترامه لأبناء الشيخ صلبا

واستصغر الطفل منهم وسـوى بينه وبينهم سلبه الله درجات الولاية كلها ثم عادت بدرجات أقل حـينما نفذ الاعـتكاف الذى عاد به إلى حظيـرة الأدب مع آل البيت صغيرهم وكبيرهم والله يتولى الصالحين.

الخلاصة:

أن المحبة هى ثمرة المعـرفة، فعلى قدر المعرفة تكون المحـبة، فمن عرف الله أحب الله وأحب كل أحد أحبه الله وعلى قدر درجة العبد فى المعرفة تكون درجته فى المحـبة، ومن أجل ذلك كـان رسول الله ﷺ أشد الـناس حبا لله؛ لأنـه كان أعرفهم بالله.

قال ﷺ: «إن أعرفكم بالله أنا».

فمن لايعرف الله قلبـا ومذاقا لايعرف راحة فـى الدنيا ولا جنة فى الآخرة. وفى كتاب «إحياء علوم الدين» يقول الإمام الغزالى:

«إن كل من لايعرف الله فى الدنيا لايـراه فى الآخرة، وكل من لم يجد لذة المعـرفة فـى الدنيا لايجـد لذة النظر فى الآخـرة، ولايحـصـد أحد إلا مـا زرع، ولايحشر المرء إلا على ما مات عليه».

إن نعيم الجنة بقدر حب الله تعـالى، وحب الله تعالى بقدر معرفـته، فأصل السعادة هى المعرفة التى عبر عنها الشرع بالإيمان.

وأعلى درجات المحبة هى درجة خواص الخواص التى هى الفناء فى المحبوب والفناء المادى الذى هو فناء الجزء فى الكل، وامتزاج الفانى بالـباقى شيء مستحيل فى حق الله تعالى ولايجوز الأخذ به؛ لأن ذلك كفر والعياذ بالله تعالى.

فالمولى سـبحـانه نور ذاتى لايعرفه ولايراه أحـد، فلا تدركـه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو سبـحانه منزه عن الشريك والولد والتحيز والحـدود وعن الجهة وعن النهاية والمقدار.

إذاً فـالفناء فى الإسـلام الذى يقـول به الصـوفـيـة هو: الفـناء المعنوى فى المحبـوب إنه فناء عن النفس الأمارة بالسوء، فناء عن الهـواجس والوساوس، فناء عن التعـلق بالمادة والماديات، فناء عن الحس والمحسـوسات بل هو تجـرد لله تعالى وبقاء بحبه وعشقه والهيام فى محبته. إنه: أن تفنى عن نفسك وأن تبقى بربك.

إنه فناء شهود لا فناء حلول، إنه فناء العبد فى محبة مولاه، بأن يكون هدفه: الله ورضاه والنظر إلى وجهه الكريم فى الجنة.

فإن أعطاه الله الكون كله من العرش إلى الفرش رفضه بأن يكون فى قلبه وقال لربه: إياك أعنى يا ألله يا حبيبى، إنى أريد المكوِّن لا الكون، أريد المنعم المعطى ولا أفتن بالنعمة والعطاء. إن العطاءات الدنيوية والنعم الدنيوية الحاضرة والغائبة لا وجود لحبها والشوق إليها فى قلبه ولا وزن لها ولا قيمة فى وجدانه.

فسواء أقبلت على المحب الواله الدنيا أم أدبرت فهى ليست فى قلبه الذى شغل تماما بمحبة مولاه والهيام فى ذكره والأنس به سبحانه.

بل إذا امتحن الله حبه بنزول البلايا به أو بأهله فإنه يرضى مذعنا لقضاء الله وقدره بل قد يُسَرّ بذلك ويفرح، لأنه يعتبر رسالة من الحبيب لحبيبه فيهش لها ويبش أكثر من النعم الحسية، إذ إنه يرى من خلال رضاه بذلك رضاء حبيبه (الله) رب العالمين.

إن المحب لمولاه يعيش مع الخلق ويحيا حياتهم بالقالب فقط ولكن قلبه مع ربه دائما من يوم أن سجد ذلك القلب لله، فلن يقوم من سجدته إلا يوم أن يناديه حبيبه لينظر إلى وجهه الكريم، إنه لايرى لنفسه وجودا مع وجود خالقه سبحانه إنه يرى أن الوجود الإنسانى «عدم» كباقى الكون، لكن وجود الله تعالى هو الوجود الحقيقى «الباقى».

إنه يتمثل قول القائل: والكل إن حققته عدم بعد الإله على التفصيل والإجمال. إن المحب يضع نصب عينيه قول الله سبحانه: ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)** ﴾ [**الرحمن**].

فالفناء فى «دائرة الحب» المراد به: فناء إرادة العبد فى إرادة مولاه وليس فناء وجود العبد فى وجود مولاه فذلك محال وكفر ولايقول به مسلم فضلا عن محب عارف بالله تعالى.

إن المحب المستغرق يحيا حياة اللذة والمتعة الروحية وكفاه من حياته ومن حبيبه ذلك فلا يريد شيئا آخر إلا وجه محبوبه، فَمنْ فَرَط هذه المتعة فإنه يخاف فواتها، وسر بقائها ونمائها فى كتمانها عن الخلق جميعا، فهو التخفيف عن كبده الذى أحرقه الشوق وأضناه الحب، فيخاف من كشف السر الذى بينه وبين

معشوقه، فينزع إلى الرمز التعبيرى وإلى الاستعارات والكنى، فيحكم الناس عليه بحقائق الألفاظ لابمجازاتها وكناها فيحكم بعضهم بكفره حيث لم يقفوا على مراده.

لكن شعار المحب لله تعالى:

ومن عرف المحبة عن يقين محال أن يميل إلى فراق

وكيف أحب غير الله يوما وليس سواه فى الأكوان باق

وشارة المحب التى تَدُلُّه على الطريق ذلك الحديث القدسى:

«من طلبنى وجدنى ومن وجدنى عرفنى ومن عرفني أحبنى ومن أحبني عشقنى ومن عشقنى عشقته ومن عشقته قتلته ومن قتلته فعليّ ديته ومن كانت على ديته فأنا ديته ومن كنت أناديته كنت مناصبا بين عينيه لايسهو إذا سها الناس». ومن عجب أن هذا الحديث يرفضه بعض الناس ويقولون: إنه من كلام الصوفية مع أنهم لم يحيطوا بالسنة كلها حتى يرفضوه، مع أن المسلم ذواق بقلبه فكل حديث صحيح له جرس فى القلب واطمئنان فى العقل ويهدف إلى قيمة سلوكية وله رصيد من السلوكيات لدى عباد الرحمن فكيف يرفض بجرة قلم ممن يصدق فيه قول القائل:

قل لمن يدعى فى العلم فلسفة حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

إن الحديث الثابت الصحيح يقع فى قلب المسلم وقع الماء العذب من ذى الغلة الصادى، فلابد من إنصاف قضية الحب العليا، ومحاولة بثه ونشره بين الناس عامة والمسلمين مع ربهم ومع بعضهم البعض بصفة خاصة لتعود للمسلمين حياة العزة والتمكين.

أهمية الحب فى الطريق الصوفى

الحب الإلهى:

هبة من الله لأحبابه، وعبور ناجح إلى مرضاته، وسلم لمعراج قدسه، وروح وريحان، ونور مشع يهدى القلب الحيران، إنه وضاءة وطهارة، وسِلْمٌ وسلام، وأمن دائم وأمان، وهدى وتقى وعرفان ووصال واتصال، ورضا وإقبال، وسكينة واطمئنان، ورحمة وحنان لقلب يحتمى فى حمى الرحمن: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن].

جنة فى الدنيا، وهى: جنة الأنس بجمال الله وجلاله، فصاحبها دائما نشوان، وبذكر حبيبه هيمان، وبعشقه سكران، وأرقى ما فى الدنيا: هذه الجنة الخاصة بأهل الصفاء والنقاء فى دار البقاء.

وجنة فى الآخرة، وهى: جنة النعيم والخلود الدائم فى دار البقاء وأرقى مافيها: النظر إلى وجه الله الكريم.

الحب الدنيوى: وهو: حب الفتاة والمرأة، وحب الزوجة والأولاد، وحب الجاه والسلطان وحب المظهر الحسن، وحب المال، وحب كل ما يتصل بالشهوات والملذات الحسية، وهذا الحب نوعان نوع محرم وهو: حب الأجنبيات من النساء؛ وخصوصا إذا كان الغرض غير شريف فهو حب شيطانى، يجب على المسلم أن يتخلص منه فورا قبل الإدمان.

وكذلك يحرم الافتتان بالجاه والسلطان، والمال، وما يتصل بالشهوات من طريق غير مشروع فإن هذا الحب العفن: يؤدى إلى ظلمة القلب والحيرة والاضطراب، وقد يوقع صاحبه فى المعاصى، وفى الكسب الحرام، ويسلمه إلى الأمراض النفسية والعصبية، فتكون حياة صاحبه جحيما لايطاق؛ إذ تخيم عليه التعاسة والانتكاسة النفسية، فيطلب الموت ولايجده، فيظل معتم القلب، سوداوى النفس، كئيب المحيا، مكفهر الطلعة، متشائما حزينا، تلاحقه أمراض العصر من كل جانب، وتلازمه الحسرة، وتتغشاه سحائب الحقد والحسد والكراهية والغل لكل من يتخيل أنه معافى سليما مما حاق به. وصدق رسول الله ﷺ حيث قال فيما رواه البخارى فى صحيحه:

«تعس عبدالدرهم تعس عبدالدينار تعس عبدالقطيفة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش».

فما أشقى إنسانا!! وما أتعس امرءا قد وضع نفسه فى هذا الجحيم الدنيوى، وياليته تقف حالته عند ذاك الشقاء الحياتى العاجل، بل إن ذلك مقدمة لشقاء أبدى ينتظره فى الآخرة فى الحياة السرمدية.

فلو أنا إذا متنا تركنا　　لكان الموت راحة كل حى

ولكنا إذا متنا بعثنا　　ونسأل يومذا عن كل شى

وإذا ما نظرنا الآن إلى ساحة الوجود الإنسانى، فسوف نجد أن عاطفة الحب التى أوجدها الخلاق العليم لنسعد من خلالها: هى التى قد استغلت فى توافه الأمور وجعلت الأرض بأهلها تمور، حينما كثر عليها الباطل والزور والفجور، واستمرأ ابن آدم أكل الحرام، وتدنس بالفواحش، وشرب المسكرات، وتعاطى المخدرات وخان الأمانة فى كل مجال، ولم يراقب الملك الديان. وأكل مال اليتيم، وقطع صلته بربه، فلا صلاة ولا ذكر إلا النادر القليل، وعق الوالدين، وقطع الأرحام، ونهب الميراث، واستجاب مسرعا لوساوس الشيطان، وأصم أذنيه عن نداء الرحمن، وآثر إيذاء الناس فى شتى الميادين فأصبح شيطانا فى صورة إنسان، لايعترض ولاينتقد أحدا إلا الصالحين، ولايسىء الظن إلا بالعارفين، يزخرف القول وكأنه المصلح الأمين، وقلبه غارق فى ظلمة الذنوب. وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ...** ﴿١١٢﴾ ﴾ [**الأنعام**].

حب الفتاة: إن حب الفتاة للتغرير بها، أو للتسلية وقتل الوقت حرام شرعا ويعد خيانة لأعراض الناس، وهو حرام على الطرفين، بل مجرد النظر لا لغرض الخطبة ولا البيع والشراء ولا لأمر ضرورى يقتضيه. يعتبر إثما وذنبا، بل وسهما من سهام إبليس يصوب إلى قلب الرائى فيقتل مناعة العفة فيه، سواء أكان الناظر فتى أم فتاة، رجلا أم امرأة؛ إذ يقول الرسول ﷺ: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله فمن تركها مخافة ربه أبدله الله إيمانا يجد حلاوته فى قلبه**».

ولكن الذى ينتصر على هواجسه ووساوس نفسه، فيترك النظر خوفا من عقاب الله وتقربا إليه فإن الله تعالى يكافئه مكافأة عظيمة هى خير من الدنيا وما فيها: إنها الإيمان الحق الذى يدعمه نور الرضوان من الله جل شأنه كدليل على التوفيق الربانى؛ ولذلك يقول الرسول ﷺ: «**فمن تركها - أى النظرة الخائنة - مخافة ربه أبدله الله إيمانا يجد حلاوته فى قلبه**».

إن هذا الإيمان المذاقى، المزدان بالنور والتقوى هو الذى يجعل خشية الله تعالى سمة لازمة، فتكون العفة كاملة: لليد واللسان والفرج وكل جارحة لدى هذا العبد الأواب.

وأما النوع الثانى من الحب فهو نوع مباح وهو حب الرجل لزوجته بعد

الزواج، فهذا حب شرعى يعترف به الإسلام ويُستَحْسن فيه أن يكون بقصد العفة ورضاء الله تعالى.

وكذلك حب الذرية من بنين وبنات شريطة ألا يفرق بينهم فى هذا الحب، بل لابد من العدالة، وأن يقصد بذلك شكر الله ورؤية فضله فيما أنعم به: ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴿١١﴾ ﴾ [**الضحى**].

فمن صفات عباد الرحمن: ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴿٧٤﴾ ﴾ [**الفرقان**].

لكن الحب قبل الزواج لايعترف به الإسلام؛ لأنه إضاعة للوقت فى غير مفيد، وشغل القلب فى أمر خيالى، يبعث على القلق الدائم والحيرة وسهر الليل والتفكير المضنى فيما لا طائل من ورائه؛ لأن الغالب فى هذا النوع من الحب، أنه لايتم به الزواج فقد يكون للأقدار دور آخر، وإن تم، وهذا نادر الحصول، فكثيرا ما يكون الزواج فاشلا؛ لأن الشىء الممنوع مرغوب فيه، ففى فترة الحب الجارف الذى يكون قبل الخطبة والزواج يكون خياليا، يجنح نحو اللامعقول، إذ كل منهما يرى الآخر بعين الخيال، وكأنه أتى هابطا من السماء أو من جنة عدن، فلما يتحول الخيال إلى حقيقة بالزواج، يرى كل منهما الآخر على حقيقته على صورة أقل بكثير مما كان يراه من قبل، فيقول كل منهما: هذا ليس فلانا ويدب الشقاق حينما يطلع كل منهما على عيوب الآخر التى كان لا يراها من قبل ولهذا كان العرب قديما لايشجعون هذا الزواج.

وفى رأيى الخاص: أن عدم استجابة القدر لهذا الحب فى أن يؤتى ثماره بزواج ماهو إلا عقوبة من الله تعالى؛ لأن الإنسان فيه قد أعطى قلبه كله لمن أحبه من مخلوق قد يكون حتفه على يده، ولايملك لنفسه ضرا ولانفعا فكيف يملك لغيره؟!.

والمفروض أن يكون التوجه القلبى بالحب لله تعالى الذى يملك كل شىء. ولذا فإن الحكماء يقولون: «إن الحب الفاشل ينقلب إلى تصوف» أى أن الإنسان حينما يجعل قلبه وكل مشاعره لإنسان ثم يغدر به هذا الإنسان ويرفضه فإن الإنسان تلقائيا يفزع إلى الله تعالى محبا له راجيا رضاه؛ لأنه جرَّب حب الإنسان فلم ينصفه، فهو يهرع إلى الله الذى ينصفه فى حبه، ويكافئه عليه، ويحقق ما

يؤمله ومايسعده لأنه سبحانه أكرم الأكرمين. فهذا هو حب السعادة والعطاء وتحقيق الرجاء:

ومن عرف المحبة عن يقين محال أن يميل إلى فراق
وكيف أحب غير الله يوما وليس سواه فى الأكوان باق

الحب الذى ينبغى أن يكون:

إن الحب الذى ينبغى أن يتشبث به المسلم هو: حب الله تعالى، ولن يتحقق حب الله تعالى إلا بحب سيدنا رسول الله ﷺ: ولايتحقق حب الرسول ﷺ إلا بحب أولياء الله الصالحين: الأدلاء على الله من عترة النبى المختار.

فهى سلسلة متصلة الحلقات: لا يكمل الحب إلا بها جميعها.

ومن ذاق عرف ومن لم يذق لم يعرف: ﴿ ... **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ... ﴿١٢٤﴾ ﴾ [**الأنعام**].

فالحب هو روح الإسلام، وأعنى به الحب الإلهى، وكفى بالحب فخرا.

إن الإسلام يجعل المتحابين فى الله، المتزاورين لجلاله مستظلين تحت ظل عرش الرحمن يوم القيامة فى الوقت العصيب.

ففى الحديث القدسى يقول رب العزة جل جلاله: «المتحابون فىَّ المتزاورون لجلالى أظلهم يوم القيامة تحت ظل عرشى».

وفى الحديث النبوى الشريف أن الرسول ﷺ قد بين أن من السبعة الذين يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: «رجلان تحابا فى الله تعالى اجتمعا عليه - أى على الحب فى الله - وافترقا عليه» أى على الحب فى الله لم يفرق بينهما إلا الموت.

الإسلام والحب:

إن كل من وافاه الله بحظ من الفهم والتذوق لنصوص الإسلام من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية ليعلم علم اليقين: أن الإسلام دين الحب، وأن المؤمن لايجد حلاوة الإيمان إلا إذا أحس حرارة الحب ونشوة تَوجُّه القلب إلىَ مولاه.

يقول الله سبحانه: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٣١﴾ ﴾ [**آل عمران**].

فقد أثبت القرآن الكريم أن حب الله هو أساس سعادة الوجود، وهو لا يتحقق إلا بحب النبى ﷺ الذى يتطلب اتباعه والاقتداء به ﷺ مما يترتب عليه حب الله تعالى للعبد بإيصال الخير له ومغفرة الذنوب السابقة ورضوان من الله أكبر.

وفى السنَّة المحمدية أحاديث كثيرة فى الصحاح، وكلها تدعو إلى الحب فى كافة روافده - حب الله تعالى وحب الرسول ﷺ وحب الصالحين الذى لايشوبه غرض ولا مصلحة وإنما هو حب فى ذات الله تعالى وذلك مايحقق المذاق الإيمانى والشفافية الروحية التى يحتاجها المجتمع المسلم الآن بعد سيطرة المادة والشهوات على معظم القلوب مما ترتب عليه الضياع النفسى والتردى فى مهاوى العقد النفسية والأمراض العصرية الجامحة.

ففى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار».

بل إن ديننا الإسلامى يأمرنا بالحب أمر إيجاب، ويحثنا عليه؛ لأنه روح الحياة، وقوتها الدافعة وترجمان السعادة الحقة عاجلا وآجلا.

فالحياة بلا حب جحيم لايطاق، وشقاء أبدى، وانتكاسة إلى الحسرات والويلات والهلاك والثبور: ﴿ ...وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النحل].

فعلى المسلم العاقل أن يستجيب لدعوة الإسلام إلى الحب الذى هو إكسير كل سعادة، إذ يقول الرسول ﷺ فيما رواه الترمذى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبونى لحب الله إياى، وأحبوا آل بيتى لحبى».

الحب فى حياة سلفنا الصالح:

لقد كان الرسول ﷺ المثل الأعلى فى حبه لربه ولآل بيته وصحابته وأمته فآية حبه ﷺ لربه: كثرة ذكره له فى جميع الأوقات والأحوال، فمن أحب أحدا أحب أن يذكره دائما، وكذلك طاعته لربه دائما، فلقد ظل يتهجد لربه حتى

تورمت قدماه الشريفتان ولا ننسى كفاحه وجهاده ﷺ فى سبيل دعوة ربه. ومن حبه ﷺ لآل بيته قوله عليه الصلاة والسلام لعلى وفاطمة والحسن والحسين: «أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم» رواه الترمذى وابن ماجه وأحمد فى المسند والحاكم فى المستدرك.

أسمى منزلة للعبد فى الوجود:

إن أرفع الدرجات وأعلى المنازل وأسمى شرف أن يوجه الله الخلاق العليم إليك خطابا بالحب، سواء أوصلك الخطاب فى الصدر أم في السطر كأن يقول الله تعالى لعبده: ﴿ ... **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي** ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] نعم إن ذلك أكمل مقام وأعزه فى الدنيا والآخرة.

فالقرآن الكريم هو النص المتجدد الذى يخاطب العقول والمشاعر المؤمنة فى كل زمان ومكان، وكأنه يخص كل متلق ما دام فى حوزته شهادة الإيمان والإسلام وكما يقول علماء التفسير والأصول: «العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب».

وفى الواقع أن مايبرر ذلك ويعضده قول الله سبحانه:

﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾. فلولا حب الله تعالى لأحبابه ماعرفوا حبه، ولولاه ماعرفوه،فالحب يصدر من الأعلى إلى الأدنى، ثم تبدأ عملية الصياغة الروحية، والانصهار الربانى فى بوتقة الحب، بإسباغ نعم البلاء والاختبار المتكرر، والعبادة والسهر حتى لايعرف طريقا فى الحياة إلا طريق المحبوب سبحانه. وكيف لا؟! والمحبوب يقول لعبده: ﴿ **ولتصنع على عينى** ﴾.

فما أجمل وأروع أن يشعر العبد الضعيف الذليل أن الله القوى العزيز مالك الملك يحبه ويتوج هذا الحب بجذبه إلى ساحة الصالحين؛ ليأخذ الخبرة الناجحة فى معاملة المحبوب، ويفيض على قلبه من إشعاعات الحب فى الله، مايضمن استمرارية هذا الحب ويدعمه بذكر المحبوب فى جميع الحالات فى عسر أو يسر، مرض أو عافية، ضنك أو رخاء، فرح أو ترح. فقد أمده الله المحبوب بأعظم وأسمى ما فى الوجود وهو: «حبه له» فما قيمة دنيا تقبل أو تدبر، وماقيمة المال والجاه: قل أو كثر، وما قيمة عافية الجسد مع صحة القلب ورقى الروح فى عالم السبوح، فإن ذلك هو نعمة النعم، والفضل والتكريم الذى لايحد، قال الله

سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس].

مفهوم المحبة من سجل المحبين:

يقول الإمام الغزالى قدس الله سره[١]:

«إن محبة الله لعبده هى: أن يتولى أمره ظاهره وباطنه، سره وجهره، فيكون هو المدبر لأمره، المزين لأخلاقه، المؤنس له بلذة المناجاة فى خلواته، الكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته بقول الرسول ﷺ: «إذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه وزاجرا من قلبه يأمره وينهاه».

وقال ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه».

وقال الإمام القشيرى[٢]: «والمحبة حالة شريفة شهد الحق سبحانه وتعالى بها للعبد، وأخبر عن محبته للعبد فالحق سبحانه وتعالى يوصف بأنه يحب العبد، والعبد يوصف بأنه يحب الحق سبحانه. . محبة العبد لله سبحانه مدحه له وثناؤه عليه بالجميل . محبة الله للعبد هى إحسان مخصوص يلقى الله العبد به، وحالة مخصوصة يرقيه إليها».

وإذا أحب الله عبدا جعله عبدا ربانيا . . يكفل له العطاء والنصر، ويشمله بالولاية والحماية.

يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فى حديث قدسى رواه عن رب العزة جل شأنه: «من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب مما افترضته عليه ولايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى عليها، ولئن استنصرنى لأنصرنه، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت فى شىء أنا فاعله كترددى فى قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولابد له منه».

---

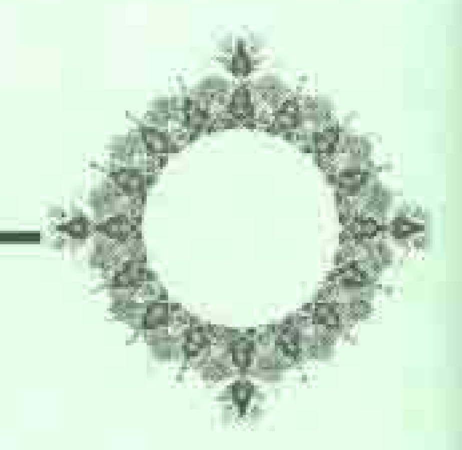
(١) إحياء علوم الدين، ص٢٦٢٩ .

(٢) الرسالة القشيرية للقشيرى .

وورد أيضا فى كتـاب إحياء علوم الدين للإمام الغـزالى، أن الله تعالى قال لداود عليه السلام: «ياداود، أبلغ أهل أرضى أنى حـبيب لمن أحبنى، وجليس لمن جالسنى، ومؤنس لمن أنس بذكرى، ما أحبنى عبد من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحببته حُبًّا لايتـقدمه أحـد من خلقى. من طلبنى بالحق وجـدنى ومن طلب غيـرى لم يجـدنى. . يا أهل الأرض. . هلمـوا إلى كـرامـتى . . وائتنسـوا بى أؤانسكم. . وأسارع إلى محبتكم. . ».

وروى عن بعض السلف: أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين: «إن لى عبادا مـن عبادى يحبـونى وأحبهم . . ويشتـاقون إلىَّ وأشتاق إليـهم، ويذكرونى وأذكرهم، ويـنظرون إلىَّ وأنظر إليهم . . . فـإن حذوتَ طريقـهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك فـقال: يارب وما علامتهم؟ قال: يراعـون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفـيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس، كـما يحن الطائر إلى وكره عند الغـروب . . فإذا أقبـل منهم الليل . . واختلط الظلام وفـرشت الفرش ونصبت الأسرة. . وخلا كل حبيب بحبيـبه . . نصبوا إلىَّ أقدامهم، وافترشوا إلى وجوههم، وناجونى بكلامى، وتملقوا إلى بإنعامى، فهم بين صارخ وباك. . وبين متأوه وشاك . . وبين قـائم وقاعد . . وبين راكع وساجد، بعينى مـايتحملون من أجلى، وبسمعى مايشتكون من حبى، أول ما أعطيهم ثلاث: أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم، والثانية لو كانت السموات والأرض ومافيها فى موازينهم لاستـقللتها لهم. والثالثـة: أقبل بوجهى عليهم، فـترى ـ من أقبلت بوجهى عليه ـ هل يعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟».

الفصل الخامس



أولياء الله

لقد كثر الكلام عن الولاية والأولياء فى عصرنا الحاضر، واشتد المراء والجدل حول هذه القضية الهامة، وجُنِّد أناس للطعن فى الأولياء، والنيل من أعراضهم ووصل الأمر إلى درجة الشتم والسب، والمعاداة لأحباب الله، واعتبار موالاتهم وزيارتهم والاعتقاد فى صلاحهم وبركتهم: كفرا لايحتمل السكوت، وأن من الجهاد إعلان النكير على من اتبعهم وأحبهم، واعتبر المارقون أن ذلك هو روح الدعوة والجهاد والاستبسال والجرأة!!.

وما دروا أن ذلك منهم هو مايخطط له أعداء الإسلام؛ لطمس أهل القدوة الحسنة فى الأمة، والانصراف عنهم إلى حيث الأهواء والنزعات الشريرة، والتخبط فى الفسق وظلمات المعاصى، والارتماء فى أحضان الموبقات!! ليتوقف المد الإسلامى وتنحسر دعوة الله فى الخافقين، ويقتصر المسلم على أن يتسمى بأسماء المسلمين ويتظاهر ببعض الشعائر والمظاهر الإسلامية التى تُؤَدَّى وفق القالب فقط، والقلب يكون فى حلكة دامسة وعماء عن الحق، مما يجعل أعضاء الجسم تتخبط العشواء فى الانحرافات والخطايا التى ملأت البقاع والتلاع ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

فحقا من جهل شيئا عاداه والإنسان عدو ماجهل.

إن أبسط درجة الإنصاف قبل أن يحكم الإنسان فى قضية أن يعرف حيثياتها، ولايجوز للعاقل أن يأخذ كل مايصله سماعا على أنه حق، وخاصة بالنسبة للوقوع فى أعراض الناس - لايجوز أن يتناوله على أنه حق، فقد قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِين** (٦) ﴾ [**الحجرات**] ولا يجوز لعاقل مؤمن يرجو الله والدار الآخرة أن يقرأ رأيا واحدا فيجند نفسه له ويتعصب دون معرفة كاملة، بل لابد من

معرفة الرأى والرأى الآخر، وبخاصة من يتصدى للدعوة، ويريد أن يفيد المسلمين؛ لأنه بدون ذلك يكون أساسا للفتنة والفرقة والشتات. والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها.

معنى الولى:

الولي في اللغة هو: الناصر ـ قال الله تعالى: ﴿ ... **لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ** ... ①﴾ [**الممتحنة**]: أى نصراء، وهو لفظ مشترك بين الله تعالى وبين العبد المؤمن المميز وأيضا بين الخلاق سبحانه وبين أى مخلوق تتأتى منه النصرة والغلبة.

والذى يحدد ماهو اسم من أسماء الله تعالى وما يطلق على العبد هو: سياق العبارة. فالولى: فى أسماء الله تعالى هو: الناصر. وقيل المتولى لأمور العالم والخلائق القائم بها.

والولى كلقب للعبد معناه من يناصر من له علاقة به، وقيل إنه يطلق على رجل أسلم على يده رجل آخر فهو مولاه. فقد قال ﷺ: «من أسلم على يد رجل فهو مولاه». وقد سئل النبى ﷺ عن رجل مشرك أسلم على يد رجل من المسلمين، فقال: هو أولى الناس بمحياه ومماته. أى أحق به من غيره.

قال ابن الأثير: ذهب قوم إلى العمل بهذا الحديث، واشترط آخر أن نضيف إلى الإسلام على يده: المعاقدة والموالاة.

وذهب أكثر الفقهاء إلى خلاف ذلك وجعلوا الحديث بمعنى البر والصلة ورعى الزمام أهم من لسان العرب.

فالولى فى لغة العرب وكلامهم له إطلاقات كثيرة، فمنها: المولى فى الدين وهو: الولي وذلك كقوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ** ⑪﴾ [**محمد**] أى لا ولى لهم.

وكقوله ﷺ عن جهينة وأسلم وغفار ومزينة موالى الله ورسوله أى أولياء الله. وقيل المولى: أى الحليف وهو من انضم إليك، وعز بعزك، وامتنع بمنعتك.

وقد ورد أن النبى ﷺ قال: «من تولانى فليتول عليا» معناه: من نصرنى فلينصر عليا. وقوله ﷺ: «اللهم وال من ولاه» أى أحبب من أحبه، وانصر من نصره. وقال ابن الأعرابى: والى فلان فلانا: إذا أحبه.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لسيدنا على كرم الله وجهه: «أصبحت مولى كل مؤمن» أى ولى كل مؤمن.

وقيل عن سبب هـذا الحديث: أن أسامة بن زيد رضى الله عنه قـال لسيدنا على كرم الله وجـهه: لست مولاى إنما مولاى رسـول الله ﷺ، فقال ﷺ: «من كنت مولاه فعلى مولاه».

وأما بالنسبة لولاية الله تعالى فهى كالآتى:

قال الله تعالى: ﴿... **اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا** ... ﴿١١﴾﴾ [**محمد**] قال أبو إسحاق الإسفراييني معناه: الله ولى المؤمنين فى حجاجهم وهدايتهم وإقامة البرهان لهم؛ لأنه يزيدهم بإيمـانهم هداية كمـا قال الله سبـحانه: ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** ﴿١٧﴾﴾ [**محمد**]، والله أيضا وليهم فى نصرتهم على عدوهم وإظهار دينهم على دين مخالفيهم.

وقيل: الله وليـهم: أى يتولى ثوابهم ومجازاتـهم بحسن أعمالهم، فـمعنى تولاه: اتخذه وليا.

ومـعنى قوله الله تعـالى: ﴿...**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ... ﴿٥١﴾﴾ [**المائدة**] معناه: يتبعهم وينصرهم أ هـ.

والولى: بالمعنى المراد لدى العارفين بالله هو: من والى الله ووالاه الله.

ومـعنى والى الله: أى تابعـه بكثـرة عـبـادته وذكـره له فـوالاه الله بعطاياه وإمداداته الربانية ونفحاته القـدسية على الدوام. أو الولى هو من والى الله بأنفاسه ذكرا ودقـات قلبه حبا وشكرا فـوالاه الله فتحا وبشـرا وسرا. أو الولى: هو الذى تولى الناس بدعوتهم إلى الله تعالى على بصيرة الإيمان فنقش الله دعوته فى قلوب الخلق بالهداية والعرفان وذلك بنفحة التأثير والتأثر ومغنطة القلوب بالأسرار الربانية حتى تحلق فى سماء المعرفة واليقين.

فالأولياء: هم الذين يتولون الناس لهدايتـهم وإقامة البرهان لهم، وذلك لما يرى فـيهم من إقـامتـهم على الهدى وطـريق الحق فهم يجـاهدون فى سبـيل الله ولايخافـون لومة لائم ولايضرهم من خالفـهم ولايعتزون بمن حـالفهم من الناس وإنما خوفـهم فقط من الله، واعـتزازهم إنما يكـون بالله لايرجون سواه. فـهم من عناهم الرسول ﷺ بقوله: «لاتزال طائفة من أمـتى قائمة على الحق لايضرهم من

خذلـهم ولا من خالفـهم حتى يأتى أمـر الله وهم ظاهرون» فهم نصـراء دين الله تعالى، وهو وليهم.

قال الله تعالى: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾** ﴾ [يونس].

ولقد سأل الصحابة سيدنا محمدا ﷺ: من هم أولياء الله يارسول الله؟

قال: «أولياء الله الذين إذا رءوا ذكر الله».

والمراد بذلك كمـا يقول سيدى الشـيخ أحمد الشـافعى أبو خليل رضى الله عنه: أن مشاهدتهم رضى الله عنهم تشعـر قلوب أهل الغفلة يقظة تجعلهم يذكرون الله تعالى لما يعلوهـم من البـهاء والنور والهيـبة وآثار الإخبات والخـشوع والسكينة والوقار».

وفى تفسير النيـسابورى: قال ﷺ: «إن من عباد الله عبادا ليـسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء لمكانهم من الله» قالوا: يارسول الله أخبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم، قال: «هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعـاطونها فو الله إن وجوههم لنور وأنهم لعلى منـابر من نور لايخافون إذا خاف الناس ولايحزنون إذا حزن الناس»، ثم قرأ: ألا إن أولياء الله .. إلخ.

وورد أنه ﷺ قال: «وددت أنى لقـيت إخوانى الذين آمنوا بى ولم يرونى». فذلك يدل على بيان فضلهم وشرفـهم وعلو منزلتهم؛ لأنهم أبدا القائمون له بنشر سنته وإحياء طريقته.

فـمن نظر بعين الحق والإخـلاص وأحسن إلـى نفسـه ولم يظلمهـا وطلب الآخرة ومرافقة النبى ﷺ والسيـر على منهج الأولياء والورثة المحمديين، فعليه أن يبحث عن هؤلاء القوم، فإنهم منبثون فى بقاع الأرض، وهم متفاوتون فى العطاء والنفحات والشفاء الذى يقضى على الشـقاء - ولايجوز أن يستسلم المسلم للدعاية المغرضـة التى تحاول أن تصرف الأمـة عنهم، فإن السعـيد من عرفـهم وشرب من راحهم وأراحه الله على أيديهم. فـهم سبب كل سعادة، واليد الحانيـة لمسح دمعة كل بائس، والأمل المـرجّى لكل يائس، رضى الله تعـالى عنـهم من آل بيت قـد ورثوا الرحمة والحنان للأمة عن جـدهم ﷺ؛ ولذا يجب على كل مسلم بل يتعين

عليه أن يتعرف على هؤلاء الكواكب النيرة وأن يوثق صلته بربه عن طريقهم فهو نهج الإسلام الصحيح الذى أوصى به المصطفى ﷺ؛ فإن ذلك من الضروريات ليتخلق بأخلاقهم، ويتأدب بآدابهم، ويعامل ربه معاملة إخلاص لايقصد بها إلا وجهه سبحانه ورضاه.

فلقد حث الشرع الشريف على إزالة أمراض الباطن، ووردت بذلك الآيات والأحاديث الثابتة الصحيحة، ولم يسلم من هذه الأمراض إلا من رزقه الله السلامة فى الدين، كسلفنا الصالح من الأئمة المجتهدين الذين عملوا بما علموه على وجه الإخلاص، ومع ذلك فقد كانوا يهرعون إلى مجالسة الأولياء ويأمرون أبناءهم وأتباعهم بذلك، فلا يعرف الفضل إلا ذووه.

علماء الإسلام والتصوف:

إن معظم علماء الإسلام كانوا متصوفين، أى أنهم قد تتلمذوا على أيدى الأولياء كمريدين وأتباع وذلك بعد أن يصبحوا ضالعين فى العلم، فكان أحدهم إذا اطمأن إلى أنه أصبح جهبذا من جهابذة العلم فإنه يبحث عن ولى يتلقى عنه الآداب مع الله والسير فى طريقه لعل الله تعالى أن يفتح عليه بالمقام الثالث من مقامات الدين وهو: مقام الإحسان الذى لايمنحه الله سبحانه إلا لأهل الولاية والصلة بالله.

فكان أحد هولاء العلماء يقول: أما المادة ـ أى العلوم ـ فقد أحكمناها وأتقناها، وبقى بعد ذلك العمل والإخلاص فيه بقصد وجه الله فى كل همة.

وها هو الإمام أبو حامد الغزالى يقول: كل الناس هلكى إلا العالمون والعالمون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم، أى على شأن عظيم.

فعلى سبيل المثال من علماء الإسلام المبرزين الذين كان لهم شرف الانتماء الصوفى: بعد الأقطاب الأربعة، وعلماء أهل البيت من أهل السنة والجماعة:

الإمام أبو حامد الغزالى، والإمام أبو نعيم والحافظ ابن الصلاح والإمام العز ابن عبدالسلام سلطان العلماء والإمام النووى والإمام السيوطى والإمام ابن حجر الهيتمى والإمام تقى الدين السبكى والإمام عبدالوهاب الشعرانى والإمام تقى الدين

السبكى. وشيخ الإسلام زكريا الأنصارى، وشيخ الإسلام الحفنى وشيخ الإسلام إبراهيم الباجورى وشيخ الإسلام عبدالله الشرقاوى وشيخ الإسلام سالم على المكنى بأبى جماعة والذى كان شيخا لعلماء المسجد الأحمدى وشيخ العلماء سيدى على البيومى وغير هؤلاء كثير جدا.

وذكر أبو نعيم فى الحلية أن من أئمة الصوفية الأئمة الأربعة أبا حنيفة ومالكا والشافعى وأحمد بن حنبل وكفى بهم قدوة فى مشارق الأرض ومغاربها فأتباعهم أهل السنة والجماعة.

فها هو الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة وهو من أئمة أهل السنة والجماعة وقد كان فى القرن الثانى وقد توفى ١٧٩هـ ـ وقد كان يقول: «من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق»[١] لأن العلم بغير أدب وإخلاص ومراقبة لله تعالى قد يصير صاحبه فاسقا.

وتعلم الآداب والعبادة على جهل وبدون علم للأحكام المتعلقة بأركان الإسلام والمفروضة عينا على كل مسلم ومسلمة قد تؤدى إلى الزندقة. أما من جمع بين الفقه المطلوب والتصوف فقد عرف حقيقة الدين وقد ينال عطاء الله الممنوح للعارفين.

كما قال الشافعى: صحبت الصوفية رضى الله عنهم فاستفدت منهم كلمتين: قولهم الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك ـ وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل[٢].

أما أحمد بن حنبل فكان يوصى ولده عبدالله بمصاحبة الصوفية والاستفادة منهم. فهو يقول: ياولدى عليك بمجالسة هؤلاء القوم ـ أى الصوفية ـ فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة «تنوير القلوب للشيخ أمين الكردى ص ٤٠٥».

روى أبو داود والحاكم والبيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه ﷺ قال: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها».

---

(١) قواعد التصوف للشيخ الفاسى ص٣، طريق الله فى التصوف جـ١ للعارف بالله تعالى الشيخ أحمد أبوخليل.

(٢) تأييد الحقيقة العلية للسيوطى ص١٥ .

وهذا الحديث الصحيح نص صريح فى أهل الله تعالى دون سواهم، يبعثهم سبحانه من الراسخين فى العلم ظاهرا وباطنا عند ظهور البدع وكثرة الخلاف وانتشار الباطل ليجددوا ما اندرس من الكتاب والسنة.

وقد ورد فى الحديث القدسى: «ابغونى فى الضعفاء فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم» والمراد بالضعفاء فى الحديث هم: المتواضعون من رجال الله المنكسرون إلى الله تعالى حياء منه وإجلالا، وقد يستضعفهم كثير من الناس ولا يجلونهم لخفاء حالهم وتسترهم.

استتار الرجال فى كل أرض ... تحت كل الظنون قدر جليل

مايضر الهلال فى حندس الليـ ... ل اسوداد السحاب وهو جميل

ما يجب نحو الأولياء:

نحن مطالبون من قبل الله جل شأنه: أن نحبهم ونجالسهم ونوقرهم وأن نحسن معاملتهم ونطلب الدعاء منهم، ومن كان منهم من أهل الدعوة والإرشاد:

أن نتتلمذ على يده، لنتعلم الإخلاص ودروس اليقين.

قال الله سبحانه: ﴿...وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [**الكهف**].

فيؤخذ من هذه الآية الكريمة أن الداعى إلى الله تعالى لكى تكون دعوته مؤثرة فى القلوب، وتهذب النفوس وترقى الأرواح، وتكون سببا فى نقلة تاريخية للعبد، حيث تنقله من ديوان الشقاء والبلاء بالمعاصى إلى ديوان السعداء وكرم الطاعات فلابد من شرطين أساسيين فى هذا الداعى:

١ ـ أن يكون وليا من العارفين بالله تعالى.

٢ ـ أن يكون مرشدا، قد سكب الله تعالى فى قلبه نورا له ولغيره حتى تكون أنفاسه وألحاظه وعباراته مؤثرة فى كل من يحيط به.

فمن أراد الله تعالى له الهداية الكاملة وفقه للسير على درب ولى مرشد يهذب نفسه ويصفى قلبه لربه ويرقى روحه لبارئه جل شأنه.

ومن لم يرد الله سبحانه له هذه الهداية بل أراد له الضلال لاختياره له وإدمانه فيه وافتخاره بمعاصيه فلن يستطيع أحد أن يوجد له الولى المرشد فقد حقت عليه كلمة العذاب.

أنواع الولاية:

الولاية نوعان: ١ ـ ولاية عامة وتكون لجميع المؤمنين، وهى ولاية التوحيد وأساس الإيمان، وهذه الولاية ميزتها: عدم خلود صاحبها فى النار إذا مات على عقيدتها وهى ولاية عقيدة لا إله إلا الله، قال الله تعالى: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ... ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [**البقرة**]، أى من ظلمات الكفر إلى نور التوحيد والإيمان.

ويقول الرسول ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة».

أى أنه إذا مات عليها وكانت آخر عهده بالدنيا، فإنه يدخل الجنة ولايخلد فى نار الجحيم بعد أن يستوفى ما عليه فى النار من عذاب مؤقت إذا لم يتب ولم يؤد الحقوق التى عليه. وأما قول الرسول ﷺ: «من قال لا إله إلا الله خالصا مخلصا من قلبه دخل الجنة» أى أنه يدخل الجنة من أول أمره ولا يعذب فى النار؛ لأن من يستطيع أن يقول لا إله إلا الله خالصا مخلصا بها قلبه فقد عمل بها والتزم شرع الله وكان من عباد الرحمن ومن أهل الإيمان الحق الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ... ﴿٢﴾ ﴾ [**الأنفال**] أى اضطربت قلوبهم شوقا إلى لقاء الله سبحانه وخوفا من عقابه، وهذا لايكون إلا للمؤمنين الكاملين.

ومن العلماء من قال: إن حديث من قال لا إله إلا الله حديث مطلق، ولكن حديث «خالصا مخلصا..» مقيد بهذا القيد فيحمل المطلق على المقيد؛ لأن من قالها مخلصا من قلبه فقد عمل بها وطبق كل أحكام شريعة الله.

٢ ـ ولاية خاصة، وهى الولاية التى خص الله بها أحبابه الذين قال الله فيهم: ﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴿٦٢﴾ ﴾ [**يونس**] فهم المتقون بتقوى خواص الخواص، فالتقوى ثلاثة: ١ ـ تقوى عامة بالتوحيد من الشرك ٢ ـ تقوى خاصة بالطاعة بدل المعصية ٣ ـ تقوى خواص الخواص وهى: الإعراض عما سوى الله فليس فى القلب إلا الله ولا على اللسان إلا ذكره وليس أمام البصر إلا عظمته فى كونه.

فالتقوى العامة مآل صاحبها فى علم الله الأزلى؛ لأن أمره مفوض إلى الله لأنه مسلم عاص إما أن يغفر الله له، وإما أن يعذبه حينا من الزمان.

وتقوى الخواص تجعل مآلهم - إن شاء الله - إلى جنة أصحاب اليمين.

وتقوى خواص الخواص تجعل مآلهم - إن شاء الله - إلى جنة السابقين السابقين لأنهم هم المقربون من أولياء وأنبياء وملائكة.

فالولاية الخاصة هى ولاية المقربين، الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴿٦٣﴾﴾ [**يونس**] والتقوى التى يعيشون فى كنفها هى تقوى خواص الخواص؛ لأن النبى ﷺ قد بين محل هذه التقوى بأن أشار بأصبعه الشريف إلى صدره الشريف وقال: «التقوى ها هنا التقوى ها هنا».

إذن هم أصحاب القلوب النقية التى تتلألأ بنور الإيمان دائما، فليس فى قلب صاحبها: حقد ولا حسد - ولا غيرة - ولا رياء - ولا سوء ظن بالمسلمين - ولا أثرة ولا أنانية - ولا حب للدنيا - ولا وساوس ولا هواجس ولا طمع وجشع.. إلخ.

فأنعم بقوم قال الرسول ﷺ فى حقهم: «وددت أنى لقيت إخوانى الذين آمنوا بى ولم يرونى» ومعلوم أن مايوده الرسول ﷺ لابد أن يحدث، فمقابلته فى عالم البرزخ لهم وهم فى الدنيا مؤكدة فى الرؤيا، وقد تكون فى اليقظة لبعض الأولياء عن طريق المشاهدة النورانية فعطاء الله تعالى ليست له حدود، وقد ثبت عن سيد الخلق ﷺ أن أهل الشفافية المستمرة تزورهم ملائكة الله فى بيوتهم ويصافحونهم بأيديهم.

فقد ورد أن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم قالوا: يارسول الله إنا إذا كنا معك فى مجلسك رقت قلوبنا وأقبلنا على الآخرة وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا فشممنا نساءنا وأبناءنا فقال ﷺ: «لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التى كنتم عليها عندى لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتكم فى بيوتكم».

فمما هو معروف ضرورة أن حال الشفافية النورانية يختلف من مؤمن لآخر، بحسب التفاوت فى العطاء والتفاوت فى درجات المعدن: «الناس معادن خيارهم.. الحديث».

وهذا بالنسبة للصحابة ومن جاء بعدهم من التابعين وتابعيهم إلى أن تقوم الساعة، «الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة»، وقد قال ﷺ: «إذا رأيتم إخوانى فأبلغوهم منى السلام» قالوا: يارسول الله: نحن إخوانك، أوَ لك إخوان غيرنا، قال: «لا، بل أنتم أصحابى إن إخوانى من آمنوا بى ولم يرونى، عمل الواحد منهم كعمل سبعين» قالوا: منا أو منهم؟ قال: «بل منكم لأنكم تفعلون الخير وتجدون له أعوانا وهم يفعلون الخير ولايجدون له إخوانا» إذًا فإذا وُجِد مسلم الآن صافى القلب نقى السريرة كصفاء قلب الصحابى كانت درجته مثل درجة سبعين صحابيا؛ لأن الصحابى كان يساعده على الاستقامة الجو العام الصالح، أما الآن - بعد انتقاله ﷺ، وخصوصا فى هذه الأيام فقد تغير الوضع تماما، وصار الجو العام هو الانحراف عن الصراط المستقيم. فالقابض على دينه فى عصر الفتن والمعاصى كالقابض على الجمر - والصالحون الآن غرباء فى وسط هذا الزحام الهائل من الغفلة عن الحق جل شأنه والعكوف على كثير من الموبقات صباح مساء، فالولى الكامل الآن بدرجة سبعين صحابيا فى عهد الصلاح والتقوى، ولذلك فإن الكرامات وبخاصة كرامات الاستقامة وإصلاح الخلق على الله تنهمر عليه كالمطر المنهمر؛ ليقيم الله حجته على خلقه مرتين: مرة بمعجزة النبى ومرة أخرى بكرامة الولى الذى اتبعه.

فضل المتابعة لسيد الخلق ﷺ

لقد حقق سيدنا رسول الله ﷺ عبوديته لربه كاملة تامة، حتى كان أول العابدين: قال الله تعالى عنه ﷺ: ﴿ ... **فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ** ﴿٨١﴾ ﴾ [**الزخرف**].

لقد حققها فى قمتها وذروتها، حتى كان أول المسلمين، قال سبحانه:

﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴿١٦٣﴾ ﴾ [**الأنعام**].

لقد حققها رحمة الله للعالمين موفورة كاملة بما لم يتأت من أى عابد فى الأرض ولا فى السماء، فكان أول المسلمين، قال سبحانه آمرا له: ﴿ ... **وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴿١٦٣﴾ ﴾ [**الأنعام**].

إن الأولياء ما نالوا البشرى فى الدنيا والآخرة إلا لكمال متابعتهم للرسول ﷺ؛ إذ أنهم ورثة محمديون، تخلَّقوا بأخلاقه صلى الله عليه وسلم، واقتدوا به

فى كل العبادات والمعاملات، ووهبوا قلوبهم لربهم، واستعذبوا الصعب حُبًّا فيه سبحانه وطلبا لرضاه، صفُّوا قلوبهم من الأكدار، وهذبوا نفوسهم من الأغيار، فوصلوا إلى مقام الإحسان فكانوا أدلاء على الله، يصلحون الخلق عليه بما وهبهم الله به من تمام التوفيق والسعادة فكانوا من جملة أهل الحسنى وزيادة. فلقد سار أحباب الله من الصوفية على درب سيدنا رسول الله ﷺ، ومن سار على الدرب وصل وبلغ الأمل.

فلا تقل ذهب الأولون ولكن من سار على الدرب وصل.

يقول الإمام السهروردى فى «عوارف المعارف»:

الصوفى: هو الذى يكون دائم التصفية، لا يزال يصفِّى الأوقات عن شوب الأكدار، بتصفية القلب عن شوائب النفس.

ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه. فبدوام الافتقار ينقى من الكدر.

وكلما تحركت النفس، وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة، وَفَرَّ منها إلى ربه.

فبدوام تصفيته: جمعيته، وبحركة نفسه: تفرقته وكدره.

فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه، قال الله تعالى:

﴿ ... **كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ** ... ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة].

وهذه القوامية لله على النفس: هى التحقق بالتصوف». ويقول الإمام السهروردى فى موضع آخر:

«والصوفى يضع الأشياء مواضعها، ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم، يقيم الخلق مقامهم، ويقيم أمر الحق مقامه، ويستر ما ينبغى أن يستر، ويظهر ما ينبغى أن يظهر.

ويأتى بالأمور فى مواضعها. بحضور عقل، وصحة توحيد، وكمال معرفة، ورعاية صدق وإخلاص»[١].

---

(١) عوارف المعارف جـ١ ص٢٣٢ بتصرف.

فلقد أخذ الصوفية أنفسهم بالاقتداء برسول الله ﷺ فيما دَقَّ من الأمور، وما هو واضح منها، وفى اليسير من أعمالهم، والعظيم منها.

وغنى عن البيان: أن الأسوة الحسنة للعارفين من الصوفية جميعا، إنما هو سيدنا محمد ﷺ، فهم دائما يتابعون السير على منواله،ويحاولون باستمرار أن ينهجوا نهجه فى غير تكلف وتصنع، بل لأنهم عناصر ممتازة، غالبا ما ينتمون إلى ذاته الشريفة نسبا وتبعا أو حُبًا وحسبا، فيخلع الله تعالى عليهم خلع التوفيق والتحقيق بدوام الصلة بالله تعالى، المؤسسة على نور الحب المحمدى الذى منحهم الله إياه، فلا استحالة فى ذلك ولا شك، بل ذلك هو الواقع؛ لأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو إمامهم الأسمى فى كل ما يفعلون، ويذرون، إنهم يتابعون هديه الشريف ومنهجه القرآنى المؤسس على قوله سبحانه: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** ﴿٢١﴾﴾ [**الأحزاب**].

وخلاصة القول فى الولاية: أنها نوعان: ولاية عامة لجميع المسلمين وهى ولاية تكون قاسما مشتركا بين أهل الملة أجمعين، وهى ولاية «لا إله إلا الله» وهذه لا تنجى صاحبها من دخول النار، بل إنه لو مات معتقدا إياها ومعتقدا للعقائد الخمس الباقية فإنه لا يخلد فى النار وإن عذب فعلى قدر معاصيه إذا لم يتب منها.

فلابد من تدعيم العقائد الإيمانية بالعمل كدليل راسخ على وجود الإيمان، قال الله تعالى: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...** ﴿٢٥٧﴾﴾ [**البقرة**] فهذه الولاية لمن اعتقد العقائد الست المعروفة لكنها لم تطبق فى دنيا العمل، فهى وإن كانت قد أخرجته من ظلمات الكفر إلى نور التوحيد لكنه عرضة للمساءلة أمام الله سبحانه على ترك العمل.

فما من آية فى القرآن الكريم ذكرت «الإيمان» إلا وقرنته بـ «العمل الصالح»: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...** ﴿٢٧٧﴾﴾ [**البقرة**] وفى الحديث الشريف الذى رواه أحمد فى مسنده: «الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل» وفى الحديث القدسى: «ما أقل حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل كيف أجود برحمتى على من بخل بطاعتى» من الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية.

وأما الولاية الخاصة: فهى منحة الله تعالى لعباده المخلصين، الذين جاهدوا أنفسهم ومحوا الصفات الذميمة، وقطعوا العلائق كلها، وأقبلوا بكنه الهمة على الله تعالى: «ومهما حصل ذلك، كان الله هو المتولى لقلب عبده، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم. وإذا تولى الله أمر القلب، فاضت عليه الرحمة، وأشرق النور فى القلب، وانشرح الصدر، وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغفلة بلطف الرحمة، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية، فليس على العبد إلا الاستعداد، بالتصفية المجردة، وإحضار الهمة، مع الإرادة الصادقة، والتعطش التام، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله من الرحمة». اهـ كلام الإمام الغزالى.

نعم إن أرباب هذه الأحوال والمقامات الشريفة هم من أحبهم الله فأحبوه، ورضى عنهم فرضوا عنه، إنهم من قال حبيبهم فيهم: ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)**﴾ [**يونس**].

كيف يعرف الناس الولى؟

من المعلوم أن الولى له حالتان، فقد يكون مجذوبا، مأخوذا عن الخلق، هائما مع الله تعالى، منصرفا عن الناس ودنياهم، لا يعرف إلا الله الذى جذب قلبه وعقله إليه، فهذا الولى نسلّم له حاله، ولا نستقذر هيئته الرثة غالبا، ونجنب الناس مضايقته، ونتركه لربه، ولا نعترض عليه، بل نساعده فى أموره الضرورية كلما يقبل ذلك، وهذا النوع لا يربى الروح، ولا دخل له فى الإرشاد، وفيه يقول الرسول ﷺ: «رُبَّ أشعث أغبر ذى طمرين لا يعبأ له يطرق الأبواب لو أقسم على الله لأبره» فهؤلاء معروفون، قد يدورون فى الطرقات، ويطرقون الأبواب، أو يهيمون فى المقابر والجبال، والفيافى والقفار، فيجب إكرامهم واحترامهم إن ظهروا لنا ويحرم إيذاؤهم ومضايقاتهم؛ لأن ذلك يستجلب مقت الله وغضبه، وقد يكون الانتقام سريعا، فإنهم من أهل الانكسار فلا جاه لهم ولا سند فى دنيا الناس إلا الله تعالى الذى يغار عليهم، فى الحديث الشريف يقول ﷺ: «وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم». وفى الحديث القدسى: «ابغونى عند المنكسرة قلوبهم فإن عندهم تنزل رحمتى» وفى رواية أخرى: «ابغونى فى الضعفاء فإنما ترزقون

وتنصرون بضعفائكم» فالمراد بالضعفاء: المتواضعون من رجال الله الذين يستضعفهم الناس ولا يجلونهم لخفاء حالهم وتسترهم.

وقال ﷺ: «ذروا العارفين المحدَّثين من أمتى لاتنزلوهم الجنة ولا النار حتى يكون الله هو الذى يقضى فيهم يوم القيامة».

فالمراد بهذا: أن فى الأمة مجاذيب ملهمين يتحدثون بالغيبيات وربما يبدو منهم ما ظاهره يخالف الشرع فلا تحكموا عليهم بأنهم من أهل النار؛ نظرا لما بدا من المخالفات، بل لا تتعرضوا لهم بشىء وفوضوا أمرهم لمولاهم.

ومن أجل ذلك فقد صدر تنبيه من السادة الفضلاء العارفين بالله تعالى على مريديهم بتلك العبارة «لا بِهِمْ تَقْتَدوا ولا عليهم تَعْتَدوُا».

وهناك نوع من الأولياء وهم العقلاء المكلفون بإقامة شرع الله تعالى، فهذا النوع فى المعرفة بالله تعالى، وقضية التأثير والتأثر درجات، وسبحان من يعطى من شاء ما شاء، فهم متفاوتون فى العطاء، فمنهم من ولايته قاصرة على نفسه فلا يربى غيره، وإنما هو عبد صالح مستجاب الدعوة، له روح خيرة، يفوح طيبها ويعبق محليا فقط، وهؤلاء كثيرون، وقد يكون فيهم المغمور الذى لا يعرف أحد ولايته، بل ربما لا يعرف هو نفسه.

ومنهم من يزداد عطاؤه، وتَعْظُم نفحاته وإمداده، فقد رزقه الله نورا كثيرا له ولغيره ممن يؤذن لهم بالسلوك والتربية على يديه، فالإناء لكى ينسكب من جوانبه: لابد أن يمتلئ. وهؤلاء قد منحهم الله قوة التأثير الروحى فى مريديهم؛ حيث يغيرون السلوك المنحرف إلى سلوك سَوِىّ، ويصلحون العاصى على ربه فينيب إلى الله تعالى، ويُرقُّون أرواح الصالحين فتزداد تقوى وصلاحا وهدى ورحمة، وقد يتخرج أولياء على أيديهم، فيفيدون الدعوة الإسلامية نشاطا وحيوية.

طبقات الأولياء:

مما لا شك فيه تفاوت العطاء والنور والنفحات، فمن الأولياء مثلا من هو فى درجة الخفير، ومنهم من هو فى درجة الوزير، والأولياء الكُمَّل يعرف بعضهم بعضا.

ومن الأولياء طبقة النقباء، طبقة النجباء، وطبقة الابدال، وطبقة الأخيار، وطبقة العمد، وطبقة الغوث.

فقد أخرج أحمد فى مسنده عن شريح بن عبيد قال: ذُكِرَ أهل الشام عند الإمام على بن أبى طالب رضوان الله عليه، حينما قالوا: العنهم يا أمير المؤمنين، قال: لا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الأبدال بالشام وهم أربعون رجلا، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا: يسقى بهم الغيث وينتصر على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب».

قال الحافظ السيوطى: رجاله رجال الصحيح غير شريح ـ وهو ثقة.

وأخرج الحاكم وصححه وأقره الذهبى عن عبدالله بن زريرالغافقى أنه سمع على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه يقول: «لا تسبوا أهل الشام فإن فيهم الأبدال وسبوا ظلمتهم».

وأخرج ابن عساكر عن عياش بن عياش القتبانى أن الإمام على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال: «الأبدال من أهل الشام، والنجباء من أهل مصر، والأخيار من أهل العراق».

ويحتمل أن ذلك كان فى عصره رضى الله تعالى عنه، وأن كل عصر له رجاله، والله تعالى يفعل ما يشاء، ويعطى من شاء متى شاء وفى أى مكان شاء: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... (٣٠)﴾ [الإنسان]؛ إذ إنه قد أصبح من المعروف أن كثيرا من قادة الأولياء الأحياء وبخاصة قطب الغوث من مصر منذ قرن من الزمان متواصلا فى أغلبه وكذلك الأبدال وعمد الأولياء، وهذا ما يعرفه جميع أولياء العالم الذين لهم قدم فى القطبانية والمعرفة الكاملة بالله تعالى، وإنما يعرف الفضل وأهل الفضل من الناس ذووه. والله أعلم.

فقد أخرج أحمد بن حنبل رحمه الله فى مسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه: عن النبى ﷺ قال: «الأبدال فى هذه الأمة ثلاثون مثل خليل الرحمن كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا آخر» قال الحافظ السيوطى: ورجاله رجال الصحيح. وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن تخلو الأرض من أربعين رجلا فَبِهِمْ تُسْقَوْنَ وبهم تُنصرون، ما مات رجل إلا أبدل الله مكانه آخر».

قال الهيثمى فى مجمع الزوائد: إسناده حسن.

وأخرج الطبرانى، وأبونعيم فى الحلية، وابن عساكر عن ابن عمر رضى الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ: «خيار أمتى فى كل قرن خمسمائة والأبدال أربعون فلا الخمسمائة ينتقصون ولا الأربعون، كلما مات رجل أبدل من الخمسمائة مكانه، وأدخل فى الأربعين، قالوا: يارسول الله دلّنا على أعمالهم، قال: «يعفون عمن ظلمهم ويحسنون إلى من أساء إليهم ويتواسَوْن فيما آتاهم الله عز وجل».

مكانة الأبدال وأثرهم فى الأمة:

أخرج الطبرانى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لايزال أربعون رجلا من أمتى قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام، يدفع الله بهم عن أهل الأرض، يقال لهم: الأبدال، إنهم لم يدركوها بصلاة ولا صوم ولا بصدقة، قالوا: يا رسول الله فَبِمَ أدركوها؟ قال: بالسخاء والنصيحة للمسلمين».

الأبدال ودخولهم الجنة:

ورد فى حديث شريف عن البيهقى أن رسول لله ﷺ قال: «إن أبدال أمتى لم يدخلوا الجنة بالأعمال ولكن دخلوها برحمة الله وسخاوة الأنفس وسلامة الصدور والرحمة بجميع المسلمين».

محبو الأولياء والجنة:

أخرج الشيخان عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: قال رجل للنبى ﷺ: يا رسول الله، كيف ترى فى رجل أحب قوما ولم يلحق بهم؟

فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب».

وأخرج الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن عن حذيفة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم».

كبار الأولياء من آل البيت وكرامتهم الدليل والبرهان:

من السنن الكونى أن يظهر الله تعالى فى كل عصر من يجدده بخوارق العادات، فتظهر على يديه الكرامات إكراما منه سبحانه وتعالى، ليلفت القلوب

إليه ويجتمع الناس على حبه لكى يستطيعوا استقبال نور الهداية من روحه الشفافة، فتترقى أرواحهم فى سماء المعرفة بالله تعالى، ويتم تقويم المعوج من العصاة حتى يصبح من قمم المطيعين لله رب العالمين.

وإن طبقات الأولياء مشحونة بأعمالهم فتراهم مصابيح الهدى وكواكب الصلاح ومواكب النور والإخلاص وشموس اليقين: حيث يسطع نورهم فى كل عصر.

حيث يؤيدهم الحق سبحانه بالمناقب العالية والكرامات الحسية والمعنوية.

فقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد: «يبعث الله على رأس كل مائة سنة رجلا من أهل بيتى يجدد لها أمر دينها».

فمن نهج نهجهم الذى هو منهج الشرع الشريف، وتأدب بآدابهم التى هى آداب النبى ﷺ، وتعلَّم من علمهم الذى أفاضه الله تعالى على قلوبهم فقد فاز بالرضا وحسن الختام.

سمات الولى الكامل وخصائصه:

إن أول ما يخص الله تعالى به العبد إذا أراد أن يتولاه ويعلّمه العلم اللدنى فيكون وليا عالما بالله تعالى أن يتجلى عليه بالأمور الثلاثة الآتية:

١ ـ أن يخصه الله تعالى من علوم التسعة والتسعين اسما بخصائص ينفتح له بها من العلم مالا ينفتح للعالم بطريقة النظر.

٢ ـ أن يرقيه إلى معرفة الأسماء الباطنة التى أولها: «هو» و «هو» اسم مركب من حرفين موضوع للإشارة إلى هويَّته التى ترجع إليه الأسماء الباطنة والظاهرة كلها، وبعد معرفة «هو»: يعلم بقية الأسماء الباطنة التى من جملتها: الحروف المقطعة فى أوائل السور.

٣ ـ بعد أن يفهم الأسماء الباطنة: يطلعه الله تعالى على «اسمه الأعظم» بتعليم الخضر إياه ـ فى الغالب ـ وقد يتَلَقَّى بإلهام يُقْذَف فى الروع، وذلك عند هبوبٍ لريح الفضل على العبد المراد بالوصل مِنْ جَوٍّ نَجْدٍ وَجودِ الجودِ بنفحات الإله المعبود.

دعامة قيام الوجود بأسره:

لقد قام الوجود كله بأسماء الله الباطنة والظاهرة المقدسة، وأسماء الله المعجمة الباطنة أصل لكل شيء من أمور الدنيا والآخرة.

وهى خزانة سره، ومكنونة علمه، ومنها تتفرع أسماء الله تعالى، وبها قضاء الأمور، وأودعها أم الكتاب.

تجلى الله تعالى على أهل العرفان:

إن هؤلاء القوم قد غاصوا فى تيار تدقيق وتحقيق علوم بدائع أحوال أرواحهم ولطايف أنوار نفايس أسرارهم، وأتقنوا الوزن بإتيان إحكام الموازنة بين العوالم المثالية والعوالم الروحانية والبرازخ النورانية والأسرار الربانية: بموازين دقائق رقائق عجائب معانى مراتبها البهية العلية، ولترقى تدريجا فى مراقى درجات أسرار أعلام أنوار الهداية البهية: من أعالى شوامخ معالمها المعنوية والصعود فى مصاعد الارتقاء إلى رفيع أوج نهايات شموس أنوار مسالكها السَّنِيَّة: لما أقلعوا فى بحر مناهج الوصل إلى الحقائق المحمدية أفلال عزائم الطرائف المصطفوية بشراع العلوم والأعمال النبوية حتى وصلوا إلى تيار زخار خضم بحور أنوار الحقيقة الأحدية وشاهدوا شموس أسرار الدقائق الوهبية وأقمار عوارف معارف الأنفاس الإلهية، ونزلوا فى ساحات حضرات غيوث فيض جذبات الفضل الفيضية وحَقَّ لهم ذلك وَهَنُوا بما هنالك، وبما نالوا من عظيم الممالك؛ وذلك أنهم بعد ما تحققوا بحقائق الترقى فى شوامخ المقامات العلا، وصعدوا فى أعالى منازل منازلات الأحوال الحسنى وانمحت صفات نفوسهم الدنية، وانمحت آثار مراسيم نظرهم إليهم بالكلية ولم يبق فيهم منهم بقية، وانسلخوا عن رذائل نفوسهم وظلمة أوصافهم انسلاخ الحيَّة، وتحلوْا بحلى محاسن أنوار الأرواح وترعرعت لهم كاسات الصفاء فى جواهر الأقداح، فعند ذلك أشرقت لهم شموس المكاشفات، وسطعت عليهم بدور حقائق المشاهدات فشاهدوا جمالا ليس كمثله جمال، ووردوا منهلا عذبا حَالِى الصفا والزَّلال، ودارت عليهم فى الحضرات القدسية كئوس راح الوصال متكئين على منصات أرائك سرر التمكين بالتصريف المكين: فى خيام الإفضال وقباب خصائص تخصيص خصوص الولايات العوالى، وانسحقت بمساحق معاول أنوار عوارف معارفها ظُلَم سحب البينْ، وكسائف

حجب الانفصال الحائل عن الحقيقة بالمحال المحاكى للحال، وبقَواْ غرقى فى غَبَّة بحبوح بحر فناء الفنا عما سوى المولى حيث لا حيث لحيث ولا أَيْنَ لأين ولا أثر ولا عين بل استهلكت حقيقة كليتهم، وذابت ذرات دقائق جزئيتهم فى سرٍّ عين نقطة دائرة دوائر حقائق جواهر منْ صفا خلوص خصوص زُبَد حقيقة توحيد الذات وتمجيد مجيد محامد الصفات.

أثر الأولياء فى عروج المصاعد والمنازل الربانية:

«طوبى لهم، طوبى لهم من رجال أتقياء وعباد أصفياء وخاصة أولياء: وزنوا حركاتهم وسكناتهم وجُمَل أعمالهم وتفاصيلها بموازين حقائق الانتقا، وقسطاس الكتاب القويم بالاقتدا، ورَقَوا إلى أوج جناب المولى فى مراقى الصفا بسلاليم الأسما، وعرجوا إليه فى معارج الاصطفا بمراكب السر الأسنى، طارت بهم فى سفرهم السنى الأهنا كطيران طيور الهوا فى السما بأجنحة حقيقة اتباعهم للمصطفى إلى شريف رفيع عوالى حضرات أسرار أحدية المسعى ففتحوا بمفاتيح مقاليد أسراره، ومجال حقائق أنواره أغلاق أنوار خزائن الفقه الأنور والسر الأبهر والنور الأزهر والياقوت الأشهر والجوهر الأنضر والدر الأقمر والكنز الأفخر والإكسير الأحمر وجداول المسك والعنبر بسواحل البحر المحيط الجامع الخضم الأزهر المحتوى على درر معارف اليواقيت وبدائع الجوهر وعجائب عجب المحكم الأزهر ومجامع مسك الأسرار والعنبر وجميع أنواع غرائب غوالى الأطياب المعنوية بعودها الأخضر فى بحبوح حضرات الأنوار المشرقة البهية، وبساتين فواكه حقائق العلوم الدقيقة الدنية، وحدائق فرادق توالى جذيات المواهب الأنيقة ذات الثمار الذكية الوريقة وجداول أنوار روح بحر الحياة الدائمة الخضرة الغريقة ذات الجمالات الجذية المشعة بأسرار مغاطيس سرها حقائق أسرار القلوب إلى حضرة جناب المحبوب والفوز بالوصول إلى غاية المنى والمطلوب»(١).

الكرامة: أمر خارق للعادة والناموس الكونى غير مقرونة بالتحدى ولا بدعوى النبوة وليست مقدمة لها: يظهرها الله تعالى على يد رجل ظاهر الصلاح والتقوى قد لزم شرع النبى ﷺ ولم يحُدْ عنه.

---

(١) طريق الله جـ٢ للعارف بالله تعالى سيدى الشيخ أحمد الشافعى أبى خليل.

والكرامة يجب الاعتقاد بأنها من فعل الله تعالى وليست من فعل الولى ولكنها ظهرت على يده لا بقصد المتاجرة ولا المفاخرة، وإنما الهدف القدرى منها أنها تجدد الروح الدينية فى العصر المادى وتستميل العصاة نحو المتاب والرجوع إلى الله الوهاب. وما من كرامة لولى إلا وهى فى نفس الوقت معجزة للنبى الذى اتبعه.

وأما المعجزة فهى أمر خارق للعادة مقرونة بالتحدى يظهرها الله تعالى على يد النبى تصديقا له فى دعواه. والهدف منها: بث الإيمان فى قلوب الكفار.

فكل من الكرامة والمعجزة تشترك فى أنها من عند الله إيجادا ولكن الكرامة تظهر لولى، ليتوب العاصى، ويزداد المطيع طاعة وإنابة.

والمعجزة لا تكون إلا على يد نبى يصدقه الناس أنه مرسل من الله تعالى فيعتنق الكافر دين الله ويصير مؤمنا.

وأما السحر فهو عبارة عن قواعد معروفة بالتعلم وليس من خوارق العادات فإن الله تعالى يغير ناموس الكون - أى ارتباط الأسباب بالمسببات - للكرامة والمعجزة، ولكن السحر لا يغير طبيعة الأشياء، فالشىء يبقى هو هو - ولكن التغيير يكون للبصر أو خيال الإنسان المسحور. وقصة سيدنا موسى مع سحرة فرعون توضح ذلك أتم توضيح؛ لأن السحرة حينما ألقوا عصيهم وحبالهم وقرئت عليها تعاويذهم وسحرهم التى عقدوها على أن ترى فى صورة ثعابين تتحرك كان ذلك منْصبًا على نظر الرائين فقط ولم يحدث تغيير لطبيعة الحبال والعصى، فرآها الناس كأنها ثعابين تتحرك وما هي بثعابين، فالله تعالى يقول فى ذلك: ﴿ ... **سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ** (١١٦) ﴾ [**الأعراف**]. فلقد كان السحر منصبا على البصر والخيال فقط ولا دخل له بتغيير حقيقتها، قال الله سبحانه: ﴿ ... **يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ** (٦٦) ﴾ [طه].

﴿ **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ** (٦٧) **قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ** (٦٨) ﴾ [طه] وحينما أمره الله تعالى بإلقاء العصا فإنها تغيرت طبيعتها إلى حية حقيقية، إذ إنه لا يستطيع أن يخرق النظام إلا واضعه، يقول سبحانه: ﴿ **وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ** (٦٩) ﴾ [طه] انظر إلى قوله سبحانه:

﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [طه] فعرف السحرة أن ذلك ليس سحرا ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأعراف].

حكم السحر: السحر حرام ومن الكبائر، بل وردت أحاديث ثابتة تحذر السحرة بالارتداد عن دين الله والعياذ بالله تعالى قال ﷺ: «الساحر كافر». ولا يجوز لمسلم أن يذهب إلى ساحر ليتسبب فى ضرر إنسان آخر بأى نوع من الضرر؛ لأن المتسبب فى السحر والساعى إليه يعتبر كافرا أيضا مرتدا عن الملة والعياذ بالله تعالى. فهؤلاء الذين يعملون على إيذاء الخلق برباط أو كراهية أو مرض نفسى أو جسمانى أو أى نوع من الإيذاء فسوف يدخلون جهنم ويحرقون بسعيرها، وهذا لمن عمل «العمل» وكذلك من شجع عليه وأمر به من رجل أو امرأة.

السحر والتصوف:

لما كان السحر من أخطر الموبقات المحرمة التى قد تؤدى إلى الكفر والخروج عن الملة والعياذ بالله؛ لأنه قتل إرادة الإنسان، وهلاك معنوياته، وتدمير مستقبله فإنه يتنافى مع التصوف الذى هو حقيقة شرعية[1]، واستجابة روحية تدعو صاحبها إلى التمسك التام بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وبذل الخير والسعادة للناس، وتخفيف آلامهم الظاهرة والباطنة، والسعى إلى إسعادهم فى الآخرة بإصلاحهم على ربهم وتعويدهم طاعته وذكره سبحانه بقلب منيب إلى الله، شعاره «لا ضرر ولا ضرار» إذًا فالتصوف برىء براءة تامة من السحر الذى هو من أبشع المعاصى، وقد أتى ذكره بعد الشرك بالله وقبل القتل؛ لأنه يؤدى إلى الشرك، قال رسول الله ﷺ فى الحديث الصحيح: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله والسحر والقتل..... الحديث».

ولكن وياللأسف لما ضعف الوازع الدينى لدى البعض الآن، وآثروا الحطام الفانى أصبحت الدنيا الرخيصة كأنها إله يعبد من دون الله، فاستحوذت على قلوبهم وخضعوا لها الخضوع التام حتى أنستهم ذكر الله وخشيته، فوقعوا فى براثن الكبائر تساقط الفراش على النار دون تفكير.

وذلك ما يحدث لبعض من ينتمون إلى الطرق الصوفية زورا وبهتانا وضلالا

---

(١) إشراقات فى طريق الله للمؤلف.

وتضليلا، بل إنهم يتسترون فى أسماء قد نسوا معناها، وأعطوا الفرصة لأعداء الإسلام بالهجوم على قداسة «التصوف» الذى يمثل الروح الإسلامية الحقيقية التى هى: «مقام الإحسان» وبذلك قد اختلط الحابل بالنابل، بل إن بعض المثقفين لا يعرفون التصوف إلا من زاوية ذلك العبث الدجلى، والتردى فى مهاوى «الجن» والشياطين. التى أثاروها على الخليقة نشعيذتهم الرخيصة.

وكان الواجب على مشيخة الطرق الصوفية أن تضرب على أيدى الدجالين والسحرة، والمشعوذين ومحترفى المقذعات، والعاكفين على فضيحة الإسلام باسم التصوف المظلوم، أو تحت أسماء لأولياء بررة أتقياء، هم برآء من هؤلاء الأفاقين براءة الذئب من دم ابن يعقوب!!.

هذا هو أقدس واجب على المشيخة والمجلس الصوفى الأعلى: إن أرادوا للإسلام خيرا ولروح التصوف أن تصقل قلوب الأجيال بهدى الإسلام الصحيح الذى كم صنع أبطالا صاغوا النصر المؤزر على الأعداء فى كل زمان ومكان، ومن قبيل المثال لا الحصر: سل حطين وعين جالوت، وسل الأقطار التى انتشر فيها الإسلام بسببه وهى تتساقط الآن على أيدى الروس والصرب وتدمر بأهلها الذين منهم أحفاد للفاتحين الذين آمنوا بالله ورسوله.

إنه يتعين على المشيخة والمجلس إقصاء كل من ثبت لعبه بالنار والصبار، والسحر والتهريج من القائمة حتى لا تقوم لهم قائمة فى نقض عُرَى الإسلام، وبث البدع والمنكرات بين الكافة باسم الطريق والمشيخة، نعم هذا من ألزم الواجبات لتنقية الأجواء من العفن والفوضى التى ترتكب باسم الدين والتصوف حتى صار بعض من لا يعرفون عن التصوف إلا اسمه: ينفرون من ذلك الاسم. مما أحرج الأمة وأحرج رجاله المخلصين، الذين هم خير خلف لخير سلف ولا شك أنه لا زال فى العرين أسود «ولينصرن الله من ينصره».

الكهانة والعرافة والتنجيم:

إن التصوف برىء كل البراءة من الكهانة والعرافة والتنجيم؛ لأن هذه الأمور فى خطورتها كالسحر فى تحريمها وتجريمها؛ لأن أصحابها فسقة، إن لم يكونوا قد وقعوا فى بؤرة الخروج عن الملة، فهم يدعون أنهم يعرفون الغيبيات، ويؤثِّرون بأنفسهم ويتعاملون مع «الجان» فى معرفة بعض الأشياء الحاصلة، فيغررون بالضحية من السذج والدهماء وفاقدى الثقة، والطامعين فى المناصب الوهمية،

وكشف المستقبل، فقد قال ﷺ: «من صدَّق كـاهنا أو عرافا أو منجما فقد كفر بما أنزل على محمد» رواه البخارى.

الكشف والإلهام الصوفى:

لاشك أن الله تعالى هو وحـده علام الغيـوب، وهو سبحـانه النافع الضار والمؤثر فى الكون وحده دون أحد سواه.

فالجان: لا يعلمون الغيب ولا غيرهم. وقصتهم فى القرآن الكريم مع سيدنا سليمـان توضح ذلك، فقـد مات وهو متـكئ على عصاه ومكث مـدة طويلة ولم يعرفوا ذلك حتى أكلت الأرضة أسفل العصا فخر ساقطا على الأرض وقد أعياهم قيامهم بالعمل المضنى المتواصل ببناء القـصور والدور والهياكل دون معرفة بموته إلا بعد وقوعه على الأرض.

قال الله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** ﴿١٤﴾ ﴾ [**سبأ**].

إن بعضا ممن ينتمـون كذبا وادعاء إلى التصوف قد لجئُـوا إلى كتابة الأوفاق والتمائم ثم توسـعوا فى ذلك فلجئوا إلى كـتب التعامل مع الجان ليـسخروهم فى معرفة أشياء أو محاولـة التأثير فى بعض الناس أو علاجهم من الأمراض، بعد أن أفلسوا من صلتهم بربهم، وآثروا الدنيـا على الآخرة، ووقعوا فى قضيـة التهجين النسَـبى فضـاعت الوراثة النورانية الـتى كانت عـادة تساعـد على منح الله الولاية للسالك طريق الله.

فلما كان الآباء والأجداد من ذوى البصائر يستـشفون بالفاتحة وبالدعاء، فإن الأحفاد الآن قلما يستجاب لـهم، وبذلك انكشف أمرهم أمام مريديهم فلجئوا إلى ما يسمى العلاج بالقرآن الكريم للمرضى من مـحبيهم ومريدى آبائهم وأجدادهم، فلم تفد فى العلاج لقلة صفاء القلب وانشغـاله بالدنيا الفانية والتكاسل عن الطاعة والذكر وعدم سهر الليل فى العبادة؛ لتـعلق قلوبهم بالدنيا والعرض الفانى فجلبوا الكتب الخاصة بالجـان ودرسوا ما فيها حـتى أوصلهم ذلك إلى السحر؛ لأن الجن يهمـهم تعليم الإنس السـحر قـال الله سبـحانه: ﴿ ... **يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** ... ﴿١٠٢﴾ ﴾ [**البقرة**].

وبذلك وقعوا فى المحظور، هذا علاوة على المتخصصين فى هذه المزالق الكفرية الذين هم كالسوس الذى ينخر فى عظام المجتمع.

ولكن مع ذلك فإن الله تعالى قد قيض لهذه الأمة أولياء وعارفين بالله لا دخل لهم فى هذه المستنقعات المتردية فى حمأة الرذائل.

ومن هؤلاء الأقطاب الذين أفادوا الأمة بنور الإسلام وهداية الإيمان العارف بالله القطب الربانى سيدى الحاج محمد أبو خليل الذى بهر العالم بدعوته إلى الله تعالى على بصيرة الإيمان، وأفاد الأمة من أقصاها إلى أدناها على كافة المستويات العلم اللدنى والكرامات التى مسحت دموع البائسين واليائسين وجذبت العصاة إلى ساحة الطاعة والإيمان وكل ذلك يتم فى خطوات متهادية بلا ترفع ولا افتخار ولا ضجيج.

فإنه رضى الله عنه قد أوصى أبناءه صلبا وعهدا عدم التعامل مع الجان مهما كشف الغطاء عنهم فرأوهم بسبب الذكر الكثير والإنابة إلى الله تعالى، وألا يعتزوا إلا بالله ولا يؤملوا إلا فى رضاه، ولا يخشوا أحدا سواه، فبقيت مدرسته الخليلية المحمدية تهدى السارين والسائرين إلى طريق الوصول إلى الله رب العالمين.

وما زالت تلك المدرسة المباركة تؤدى دورها البارز فى تخريج العلماء العاملين المخلصين والأولياء العارفين المتمكنين بمقام الإحسان؛ لأنها تعود بالمسلم إلى الإسلام النقى والإيمان الحق.

إذ إنها تحرره من الأغراض الدنية، وتذكى فيه علو الهمة، كما كان سلفنا الصالح من أهل المذاقات النورانية، الذين أفاض الله عليهم: الفراسة والإلهام والكشف والسمع والبصر الربانى - فهى المدرسة الحية التى تخرج أجيال الأولياء والعلماء بالله تعالى حتى الآن ولا حرج على فضل الله.

الفراسة:

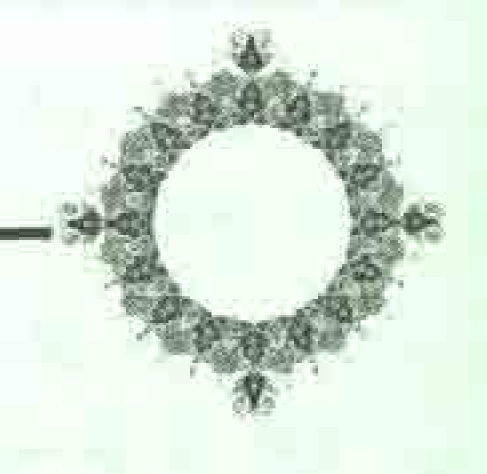
الفراسة: نور يقذفه الله سبحانه وتعالى فى القلب بسبب إخلاص السالك طريق الله فى محبته وسلوكه مقامات الوصول؛ فيهتدى إلى الحق ويميز به

الظلمات من النور، فيدرك بعقله مسارح الأرواح وتقلبات القلوب مهما خفيت ولذلك فقد أوجب علماء السلوك المحمدى أن يكون المريد حارسا على قلبه وخاصة أمام الشيخ الواصل؛ لأن القلب إن شطح فالشيخ يعرف شطحه بفراسته «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله».

وقد قالوا: إذ خالطت أهل الشريعة فأمسك عليك لسانك، وإن خالطت أهل الحقيقة فأمسك عليك قلبك.

ولذلك حث السادة الصوفية على ضرورة حفظ القلب مع السالكين خوف اتصال النظر بطريق استدلال الأرواح بنور الفراسة لخواطر القلوب فيحصل تغيير فى التقابل فتتغير القلوب ويتكدر صفوها، والله تعالى مع المتقين. فقد قال الله سبحانه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل]، وفى الحديث القدسى: «أنا مع المنكسرة قلوبهم من أجلى» وفى الحديث الشريف: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله».



الفصل السادس

«التوسل»

مقدمة:

(أ) لقد أنكر الظاهرية: الـوسيلة والتوسل والاستـغاثة والشفـاعة مع أن كل ذلك ثابت بالكتاب والسنة وعـمل السلف الصالح ومن خَلَفهم من العـارفين بالله من العترة المـطهرة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيـرا، والذين أمرنا الرسول ﷺ أن نحـبهم وأن نقتـدى بهم؛ لأنهم خاصـة الأمة والذين توارثوا من أخلاق النبى ﷺ ومن صفـاته؛ فهم عاملون بالقرآن الكريم، حـيث تنبع أخلاقهم من هديه وهدى جدهم خير الأنام ﷺ، الذى كان خلقه القرآن.

ولما كانت هناك فجوة دائما بين النظر والتطبيق، فقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نعرف بأن حلقـة الشبك التى تربط بينهـما هى: ملازمة آل البـيت والتلقى عنهم، ليـسهل التـخلق بأخـلاق القرآن الكريم؛ لأن النـبى ﷺ قال: «إنى تركت فـيكم الثقلـين كتاب الله وعـترتى آل بيـتى وإنهمـا لن يفتـرقا حتى يردا عـلىّ الحوض، فانظروا كيف تخلفونى فيهما» فهـؤلاء العترة المطهرة قد وضع فيهم رسول الإسلام ﷺ ثقته فى أمر تشريعى وهو لا ينطـق إلا بوحى من ربه، وهؤلاء قد أجاز الخليفة العادل سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه: التوسل بهم ـ حينما توسل بالعباس رضى الله عنه ـ والتوسل بهم فى حضورهم وسماعهم دليل على الجواز.

فكيف ينكر الظاهرية ومن لف لفهم ذلك الأمر المفيد للأمة؟!!

(ب) إن الذى غَرَسَ غَرْسَ التوحيد فى حـقل قلوب الأمة الإسلامية غارس ماهر: وهو سيدنا محمد ﷺ صاحب الرسالة الشاملة الخالدة.

وليس هو سيدنا موسى بن عمران صاحب الغرس المؤقت الموسمى وهو فترة وجوده فى وسط من أرسل إليهـم، فإذا اختفى عنهم بموت أو غيـاب مؤقت خرج الغرس من القلوب وتوقف سريان التـوحيد، كما حدث لجميـع المرسلين السابقين للإسلام، ومنـهم سيدنا مـوسى بن عمـران، الذى ما إن غاب عن بنـى إسرائيل أربعين يوما إلا وجاء فوجدهم قد عبدوا العجل من دون الله.

إن دعوة سيدنا محمد ﷺ باقية إلى يوم القيامة؛ ولذلك فإن غرس التوحيد فيها فطرى إلى أن تقوم الساعة لأن دعوته باقية إلى قيام الساعة.

وهذه العقيدة الفطرية مركوزة فى وجدان الأجنة التى تتخلق بعد بعثته حتى يرث الله الأرض ومن عليها، بل ومنقوشة فى الأرواح التى لم تخلق ومركوزة فى وجدان الأمة جمعاء.

قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا وهو يولد على الفطرة - أى فطرة الإسلام - فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، ثم تلا - عليه السلام - قوله تعالى: ﴿ ... **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴿٣٠﴾ ﴾ [**الروم**] وربما يسأل البعض ويقول: ما ذنبهم: أن تُغَيَّر فطرتهم على الإسلام بيهودية أو نصرانية أو مجوسية؟!! وإجابة ذلك: أن التأثير على الأبناء الذى يكون قبل البلوغ فإنه يعذر به الأبناء، أما بعد البلوغ فلا يعذرون؛ لأن العقل مناط التكليف؛ ولأن سن البلوغ يعقبه تغيير شامل فى طبيعة الإنسان الفكرية فيرفض أن يقلد غيره، ويفسح المجال لعقله للتفكير فى كل شىء، فلماذا فى أمر الدين يقبل التقليد ويرفض فيما دون ذلك بل يُعْمِلُ عقله الخاص ويرفض أى شىء إلا إذا اقتنع به، وهذا ما أنكره عليهم القرآن الكريم ورفض احتجاجهم به، حيث يقول الله تعالى عنهم: ﴿ ... **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** ﴿٢٣﴾ ﴾ [**الزخرف**]، فيرد الحق سبحانه عليهم بقوله: ﴿ **قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴿٥٤﴾ ﴾ [**الأنبياء**] أى أتتبعون آباءكم حتى ولو كانوا بعيدين عن الحق تائهين عنه واضحا منهم الكفر؟!!

من المعلوم ضرورة فطرية أن ارتباط الأسباب بالمسببات هو ما ينبنى عليه الكون.

وأن الفطرة التى أوجد الله تعالى عليها الخليقة من بعد البعثة المحمدية إلى يوم القيامة هى: فطرة التوحيد بأن المؤثر فى الكون إله واحد، وما على الرسل إلا بلورة هذا المعتقد الفطرى وتوجيهه ونماؤه أن المؤثر والنافع والضار فى الكون هو خالقه وموجده تبارك الله رب العالمين. فلا تأثير لغير الله تعالى، ولا نافع ولا ضار ولا محرك ولا مسكّن إلا الله سبحانه، فأمره جل شأنه بين الكاف والنون،

وما حركة الخلق على الأرض إلا أسباب فقط ليعمر كون الله من خلالها وفق الناموس الذى أعده الله لمخلوقاته.

فعقيدة التوحيد ترن أصداؤها فى قلب المسلم أيا كانت درجة إيمانه وإسلامه، فإذا انتحى نحو وسيلة أو شفاعة، فإنما ليأخذ ـ فقط ـ بالسبب الكونى مع كمال عقيدته فى ربه، فقد قال ﷺ: «إن للخير مفاتيح وللشر مغاليق فطوبى لعبد جعله الله مفتاحا للخير مغلاقا للشر».

فقضية الرزق مثلا: يوضحها القرآن فى كونها فى السماء مع تأكيد البيان القرآنى بالقسم فى ذلك، يقول الله تعالى: ﴿ **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)** ﴾ [**الذاريات**].

ويأتى القرآن ليأمر الناس بالضرب فى جنبات الأرض ليحصلوا على رزقهم، إذًا الرزق فى الأرض. فلابد من الجمع بين النصين والتناسق بينهما؛ لأن بيان الله تعالى قطعى الثبوت والدلالة، وذلك بأن يفهم النص الأول على أن الرزق فى السماء أى مسجل فى اللوح المحفوظ كتابة ووعدا وتسجيلا فقط.

والنص الثانى: على أن الرزق فى الأرض حركة وسعيا وطلبا لتحصيله.

إذًا لابد من ارتباط الأسباب بمسبباتها.

فقضية الهداية وإجابة الدعاء لنيل المأمول لابد لها من أسباب، وقد تتعدد هذه الأسباب التى أظهرها الآن «الوسيلة والتوسل والشفاعة والاستغاثة» فى عصر كثرت فيه المعاصى ولم يبال الإنسان فى كسبه أمن حلال أم من حرام، فالدعاء متوقفة إجابته على التقوى ظاهرا وباطنا، وهذا لا يتم عادة إلا للصديقين من أولياء الله وعارفيه: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)** ﴾ [**يونس**]، ﴿ **... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)** ﴾ [**المائدة**] ولقد أشار النبى ﷺ إلى محل التقوى فأشار بأصبعه الشريف إلى صدره الشريف وقال: «التقوى ها هنا التقوى ها هنا».

فما معنى الوسيلة والتوسل وما الحكم؟

الوسيلة ـ كما يقول شيخنا ولى الله سيدى الشيخ أحمد أبو خليل رضى الله عنه[1]:

---

(١) كتاب طريق الله جـ٢، ص٤.

الواسطة العظمى التى يتقرب بها إلى المقصود، وكل مؤمن تقى مأمور من الله بابتغائها، قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ... ﴿٣٥﴾ ﴾ [**المائدة**].

وقيل: التوسل هو: التوجه إلى الله فى الدعاء بجاه النبى أو عبد صالح، مثل قولك: «اللهم بجاه نبيك ﷺ اغفر ذنبى واستر لى عيبى».

والتوسل جائز - على رأى جمهور علماء السلف، بل إنه مستحب بالأنبياء والأولياء والصالحين، سواء أكانوا أحياء أم أمواتا والأدلة الثابتة كثيرة وسوف نذكر طرفا منها إن شاء الله.

وقال ابن حجر الهيتمى: التوسل والاستغاثة والتشفع، والتوجه به ﷺ جائز به وبغيره من الأنبياء والأولياء.

ولفضل الوسيلة وعظم منزلتها فقد جمع الأنبياء عليهم السلام بينها فى عبادتهم وبين الدعاء، قال الله جل وعلا: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ** ... ﴿٥٧﴾ ﴾ [**الإسراء**].

وفى ذكر الوسيلة عقب الدعاء، الذى هو أكبر مظاهر الخشوع: إشارة جلية، وحكمة علية، لا يلقاها إلا ذو قلب سليم وحظ عظيم، ومع ذلك فالوسيلة موضوع نزاع متواصل بين المجيزين والمانعين، والمفروض فى المسلم أن يستقبل هدى الله فى وحيه كتابا وسنة بالتسليم التام، وخاصة إذا وضحه أهل الذكر، ﴿ ... **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴿٧﴾ ﴾ [**الأنبياء**]، ولا يجوز أن يشارك فى فتن هوجاء وأن يعمد إلى رأى ضعيف ينادى به مخالفا رأى الجمهور وأهل العدالة والورع الذين هم الهداة الحقيقيون للأمة، فالفتنة نائمة لعن الله من أيقظها، فلا تعدو هذه الوسيلة والاستغاثة والشفاعة إلا أن تكون أسبابا من الأسباب العادية التى طالبنا بها الشرع الشريف، ليتحقق المطلوب الشرعى، وإلا لما فعلها سيدنا عمر بن الخطاب حين استسقى بالعباس عم النبى ﷺ كما سيأتى ذلك، وكما نصح النبى ﷺ الأعمى بها لقضاء حاجته التى هى رد بصره، وذلك فى حديث عثمان بن حنيف.

وذلك مع كمال الاعتقاد بأن الخالق للأشياء والنافع الضار هو الله وحده وهذه من بداهة الأمور لا تحتاج إلى فلسفات ولا نصائح ولا خوف على العقائد

فهى مـركوزة فى جبلة الإنســان، منقوشة نقـشا معنويا فى فـطرته أنه لا تأثير فى الكون كله إلا تأثير الله وحـده، وما عدا ذلك فهى أسبـاب طبيعيـة فلا يوجد فى اتخاذ الأسبـاب خطأ ولا كفر وإلا لحكمنا بالشرك على السـاعى على رزقه، والذى يبحث عن طبيب لعلاج مرضه، والذى يكافح أعداء الأمة.. وهلم جرا، لأننا إذا أبطلنا الأسباب فقد عطلنا الكون كله وذلك مالا يقول به عاقل.

إن القضـايا العقدية لا يجـوز أن تعالج بهوى النفـس والإصرار على اللَّغَط وإثبات الذات والتلقى عـمن لا باع له فى معرفـة أحكام الله تعالى ومعرفـة أسرار التشريع، بل يأخذ بظاهر اللفظ ويطيح فى الناس متوعدا منذرا لهم بالكفر والشرك والقبـورية دون روية وتعقل ورجوع إلى الحق الـذى أمر الله تعالى به حـينما يدب الخلاف فى قضيـة شرعية؛ امتثالا لقـول الله سبحانه: ﴿ ... **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ... ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء] وفى التقييد بـ «إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر»: حث على أن يكون سر البحث عن حقيقـة الحكم ليس غرضا دنيويا ولا مجدا شخصـيا ولا جدلا من أجل الجدل ولا رياء وتظاهرا وحب السـمعـة الكاذبة، ولا تكبرا وحـملا للناس على رأى يـعرف صاحبـه أن ضعفه فى طوياته ولكنها المكابرة والعناد الأجـوف وعدم خوف من الله تعالى وإيثار للدنيا على الآخرة، فمن لم يقبل الحق الذى وضحه الله ورسوله ﷺ واستمـرأ الجدل والعناد، فإن القرآن يحذره مـن عاقبة وخيـمة ألا وهى موته على غير الإسلام، وهذا هو السر فى أن أصحـاب هذه الآراء يحكمون على مخالفيهم بالشرك والكفـر، وفى الواقع هذا ـ كما فـى علم النفس ـ إسقاط ـ حـيث يسقط حالتـه الداخلية على غيره، وهذا من لـطف الله تعالى به ليعرف جـوانبه الذى لا يراه، ولكن الله سبحانه يُعَرِّفهُ ويُحَذِّره مغبته، فليراجع كل من كَفَّر المسلمين نفسه وليهرع إلى حكم ربه وسره فى تشريعه قبل فوات الأوان.

قضية التوسل

فبالنسبة إلى قضية «التـوسل» إذا رجعنا لعرضها على الكتاب العزيز لوجدنا الآتى:

إن الله تعالى قد ذكر «الوسيلة» مطلقة فى آيتين اثنتين وهما: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ...﴿٣٥﴾ ﴾ [المائدة]، ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ**

يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ... ﴿٥٧﴾ [الإسراء]. ويقول سيدى الشيخ أحمد أبو خليل رضى الله عنه: ولقد رجعنا إلى الكتاب العزيز فألفيناه ذكر الوسيلة مطلقة فى الآيتين السابقتين، ولم نجد إلى علم تعيينها فيه سبيلا، فأمعنّا النظر فى السنة، ليتبين لنا ما اختلفنا فيه مما نزل إلينا، فوجدنا الوسيلة قد تكفلت بها السنة، وبينتها خير بيان، وقررت اتساع دائرتها؛ فلقد أطلقت السنة «الوسيلة» على: كل محبوب لله من: اسم أو صفة أو فعل أو عمل صالح أو نبى أو ولى حى أو ميت، فانجلى لنا أن ثبوت الوسيلة أمر قطعى لا ينكره إلا من زاغ قلبه، وآثر دنياه على أخراه، فعميت بصيرته فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور.

فقد أخرج الترمذى وصححه والنسائى والطبرانى بأسانيد صحيحة اعترف بها الحفاظ عن عثمان بن حنيف رضى الله عنه أن رجلا ضريرا أتى النبى ﷺ وهم جلوس معه فشكا إليه ذهاب بصره فأمره بالصبر، فقال: ليس لى قائد وقد شق على فقد بصرى، فأمره النبى ﷺ أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلى ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى لى اللهم شفعه فى»، وفى رواية «وإن كان لك حاجة فمثل ذلك».

قال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرق بنا المجلس حتى دخل علينا بصيرا.

فهذا الحديث يثبت جواز التوسل بالنبى ﷺ أثناء وجوده بالرواية الأولى، وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى بالرواية الثانية: «إن كان لك. .إلخ».

عمل الصحابة بذلك الحديث وثمرة هذا العمل:

روى الطبرانى والبيهقى والترمذى بسند صحيح عن عثمان بن حنيف: أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان فى زمن خلافته وذلك فى حاجة له، فكان لا يلتفت إليه، فرجا الرجل عثمان بن حنيف أن يكلمه فى شأنه، فعلمه دعاء التوسل السابق: فتوضأ الرجل وصلى ثم دعا كما علمه، ثم جاء الرجل إلى باب الخليفة عثمان بن عفان بعد ذلك، فأخذه الخادم وأدخله عليه وأجلسه بجانب الخليفة على الطنفسة ثم قضى حاجته، وقال له: إذا عرضت لك حاجة فأتنا، فلما قابل الرجل عثمان بن حنيف، قال له: جزاك الله خيرا ما كان ينظر فى حاجتى قبل ذلك.

فقال له والله ما كلمته. ولكنى كنت مع رسول الله ﷺ فدخل عليه رجل أعمى وذكر حديث الضرير الذى علمه إياه.

ولذلك فقد كان السلف رضى الله عنهم يفعلون ذلك إذا أرادوا قضاء مهمة، أو نزلت بساحتهم ملمة فكان الله تعالى يقضى حاجاتهم ويفرج كرباتهم ببركة حبيبه ومجتباه ﷺ.

حرمة الرسول ﷺ ميتا كحرمته حيا

لقد ورد فى كتاب الشفا فى أحوال المصطفى:

أن أبا جعفر المنصور العباسى قد ناظر الإمام مالك فى مسجد رسول الله ﷺ، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد، فإن الله تعالى قد أدب قوما فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ** (٢) ﴾ [**الحجرات**].

ومدح قوما فقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** (٣) ﴾ [**الحجرات**].

وذم قوما فقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** (٤) ﴾ [**الحجرات**].

وإن حرمته ميتا كحرمته حيا، فاستكان لذلك أبو جعفر.

ولا غرابة، فقد ورد أنه ﷺ فى قبره حى يسمع من يسلم عليه ويرد عليه السلام، وتعرض عليه أعمالنا دائما بما يثبت أن تلك حياة مستمرة؛ إذ أنه من المستحيل أن يخلو الوجود كله من واحد يسلم عليه فى أية لحظة من ليل أو نهار.

معنى موت الرسول ﷺ:

إن معنى موته عليه الصلاة والسلام: أن روحه الشريفة قد فارقت دار التكليف وصارت فى عالم آخر لا تسرى عليه أحكام هذا العالم ونظمه.

قال ﷺ: «حياتى خير لكم تحدثون ويحدث لكم، وفى رواية: تحدثونى وأحدثكم - فإذا مت كانت وفاتى خيرا لكم تعرض على أعمالكم فإن وجدت

خيرا حمدت الله وإن كانت شرا استغفرت الله لكم» هذا الحديث أخرجه البزار عن عبدالله بن مسعود، ونص «ملًّا على القارى» على أن إسناده صحيح، وهذا الحديث متواتر تواترا معنويا لورود معناه فى حديث جماعة من الصحابة يبلغ عددهم حد التواتر وهم: عبدالله بن مسعود، ولحديثه طرق تزيد على الخمسة، وأنس بن مالك، ولحديثه طرق تزيد على الستة، وأبو هريرة، ولحديثه طرق تزيد على العشرة، وعمار بن ياسر وأبو أمامة وعلى بن أبى طالب وابنه الحسن وابن عباس وأبو بكر الصديق وأوس بن أوس الثقفى وأبو الدرداء وأبو مسعود البدرى الأنصارى وعمر بن الخطاب وابنه عبدالله بن عمر.

وروى هذا الحديث مرسلا عن جماعة من التابعين منهم بكر بن عبدالله المزنى والحسن البصرى وخالد بن معدان وابن شهاب الزهرى ويزيد الرقاش وأيوب السختيانى - وهناك كثير من الصحابه والتابعين ولكنا نكتفى بهذا القدر من التواتر، وخصوصا على رأى من يكتب التواتر بسبعة أو عشرة، وهو الذى رجحه الحافظ السيوطى فى ألفيته حيث قال:

وما رواه عدد جم يجب   استحالة اجتماعهم على الكذب

فمتواتر وقوة حَدَّدوا   بعشرة وهو لدىً أجود

وبذلك قد ثبت أن حديث فرض الأعمال هذا متواتر على جميع الاصطلاحات؛ لوجود ما يزيد على العشرين فى كل طبقة من طبقات رواته.

وأهمية هذا الحديث أنه عمدة فى حياة الرسول ﷺ وعرض الأعمال عليه وذلك يثبت وجاهته عند ربه ووجاهة آل بيته والصالحين وسماعهم للمتوسل والداعى وتأمينهم على الدعاء، ففى صحيح البخارى أن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه قال: «ارقبوا محمدا فى آل بيته».

وأحاديث التوسل بالمصطفى ﷺ فى حياته وبعد مماته كثيرة جدا ودلالة حياته البرزخية وسماعه سلام المصلين المسلمين عليه واضحة كل الوضوح من الكتاب والسنة:

فمن القرآن يقول الله تعالى آمرا بالصلاة والسلام عليه - والأمر باق إلى يوم القيامة -: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴿٥٦﴾﴾ [**الأحزاب**]. ومعلوم أن السلام لا يكون إلا على حيّ ليرد السلام سواء أكان فى عالم التكليف أم فى عالم التشريف.

وهذا ما دعا الصحابة أن يقولوا كما فى الصحيح: يا رسول الله، عرفنا كيف نصلى عليك فكيف نسلم عليك وقد أرمت - يعنى عرفنا معنى الصلاة عليك بأنها الرحمة، والرحمة تجوز للحى والميت، فما معنى السلام عليك بعد الموت وربما لحقتك أسباب البلى والفناء فقال ﷺ: «إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء».

دحض فرية أن من مات فقد انتهى:

إن هؤلاء الأفاقين الذين ينكرون الوسيلة يقولون: إن من مات فقد انتهى وأن الرسول محمدا قد أدى رسالته وانتهى كما أداها موسى وغيره!!

ونقول: إن رسالة الإسلام خالدة لا تنتهى كرسالة الرسل السابقين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ... ﴿٧﴾ ﴾ [الحجرات] فحب النبى ﷺ وهديه الشريف وشرعه فى قلوبنا حتى نلقى الله جيلا بعد جيل - وقد ثبت أن الموت فى حقيقته ليس فناءً، وإنما هو انتقال من دار الفناء إلى دار البقاء - وهذه القضية لجميع المؤمنين من رسل وغيرهم، بل وللكفار، كما حدث من مخاطبة الرسول ﷺ لقتلى بدر من المشركين، حينما وقف على حافة البئر، ونادى كل واحد منهم باسمه فقال عمر: يا رسول الله أتكلم الجيف البالية والعظام المكسرة؟ فقال ﷺ: «ما أنتم بأسمع لى منهم ولكنهم لا يتكلمون».

التوسل بغير النبى ﷺ:

مما لا شك فيه بعد ما اتضح من جواز التوسل أصلا، أنه طالما فتح الباب وذهب الغيم الفكرى المفتعل فإنه يجوز التوسل بغير النبى ﷺ، وذلك من وجوه:

الأول: للأحاديث الكثيرة الثابتة، والتى ذكرنا طرفا منها.

الثانى: أن المانعين للتوسل قد أوضحوا أن العلة: خوف الإشراك بالله.

ويرد عليهم بأننا إذا أجزنا التوسل بالنبى ﷺ وفقا للنصوص الصحيحة الكثيرة فإنه يجوز لنا أن نتوسل بغيره؛ وذلك لأن العلة منتفية عن غيره عليه الصلاة والسلام بانتفائها عنه، فإذا قال المانعون: إننا نجيزها وفق الأدلة للرسول ﷺ فقط: قلنا لهم: لا، [بل لابد أن تجيزوها له ولغيره ﷺ] وذلك لأمرين:

الأول: أنكم تقولون: إن سبب منعكم: الإشراك، والإشراك يعنى الوحدانية؛ أى أن الله تعالى إله واحد ورب واحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله.

فإذا أجزتم النبى ﷺ فقط للتوسل فقد أدخلتم معه سبحانه شريكا، لأن الله تعالى واحد أحد فرد صمد - لأنكم إذا قبلتم الأحاديث الثابتة - ولابد أن تقبلوها - إن كنتم مؤمنين حقا وأجزتم التوسل به عليه الصلاة والسلام فقط فقد انتفت العلة من أصلها وهى الإشراك الذى تقولون به؛ لأنه لا يوجد إله اسمه «الله» وإله آخر اسمه «محمد» فالعلة مع المعلول وجودا وعدما.

الأمر الثانى - فى جواز التوسل بغير النبى ﷺ: الحديث الشريف الذى رواه البخارى فى صحيحه فى باب الاستسقاء: أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أتى بالعباس رضى الله عنه عم النبى ﷺ ليستسقى به حينما غاب عنهم مطر السماء وها هى الصيغة التى قالها خليفة المسلمين العادل على ملأ من الصحابة والتابعين ولم ينكر عليه أحد منهم فصار إجماعا له شأنه فى الاستدلال مع ضميمة الأحاديث الموجبة علينا أن نقتدى بهؤلاء الراشدين المهديين، فقد قال ﷺ: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ» فليس المقصود بالسنة «النوافل» فقط وإنما هى المصدر الثانى فى التشريع الإسلامى فالسنة هنا هى الطريقة التى وصلتنا عن النبى ﷺ من جميع أقواله وأفعاله وتقريراته وأحواله وصفاته فى جميع الأحكام. ويقول ﷺ: «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» فما الصيغة التى قالها ذلك الخليفة الورع الذى كان الشيطان يهاب ظله، ويتحرى أحكام الله بكل دقة إنه قال بعد أن وقف مع العباس رضى الله عنهما وقال:

«اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا محمد ﷺ فتسقينا والآن نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، فنزل المطر من السماء»[1]، ومن عجب أن المانعين حينما يَرَوْنَ هذا الحديث الثابت فإنهم يقرون متنازلين عن علتهم فى التحريم الوهمية وهى «الإشراك» فيقولون: نعم يجوز التوسل بالحى لكن لا يجوز بالميت. وبذلك قد أوقعوا أنفسهم فى الشِّرك؛ لأنهم قد أثبتوا أن للحى تأثيرا لا يكون للميت ونحن لا نقول بذلك إطلاقا. فلا تأثير لغير الله، وإنما التأثير كله لله وحده، وهذا من المانعين تخبط وعدم توفيق.

---

(١) هذا الحديث رواه البخارى فى صحيحه فى باب الاستسقاء.

وبذلك يثبت جواز التوسل بغير النبى ﷺ من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أولياء الله الصالحين.

حكمة التوسل بالعباس فى الاستسقاء:

إن الخليفة العادل قد توسل بعم النبى ﷺ لبيان جواز التوسل بغير النبى ﷺ وهو الخليفة الملهم الذى قد وافق نزول القرآن فى أربعة مواقف وهو صاحب «ياساريةُ الجبلَ».

ولأن المتوسل به فى قضية الاستسقاء يلزم أن يكون حيا واقفا أمام الناس حياة دنيوية، أما من فارق الحياة من الأنبياء والأولياء فللبرزخ حكمه عليهم، ومن أحكامه عليهم أنهم لا يخرجون منه يمشون، أمام الناس نهارا جهارا يكون المتوسل به معهم خارج البلد، فالواقع أنه فى غير هذه الصورة يجوز الاستسقاء بالحى والميت على السواء.

عقيدتنا فى التوسل:

إن مانعى التوسل فهموا المسألة خطأ، فحكموا خطأ على المتوسلين بأسباب الرحمة والرضوان. إن معشر القائلين بجواز التوسل كما هو واضح فى الشريعة الإسلامية من عمل جمهور الصحابه والعلماء من بعدهم: هؤلاء لا يقولون بأن المنح والهبات والنفحات النورانية القلبية التى تتهاطل عليهم بسبب التوسل: أن صالحى الأمة هم الذين يخلقونها ويخترعونها بذواتهم حتى يتوقف فى ذلك من يتوقف وينادى بالويل والثبور، أو يقول حينما تحاصره الأدلة أن ذلك يليق بالحى دون الميت، ويجعلنا معه فى محظور مضمونه: إسناد الخلق والاختراع إلى الإنسان الحى دون الميت وإنما الذى نقوله فى أولئك الصالحين أنهم مواضع مباركة، يفاض عليها من سماء الفضل الإلهى غيوث الرحمات والبركات وأنواع الكرامات.

وليس بعاقل من يقول: إن الحى أهل لأن تفاض عليه تلك البركات وإلا لما دعا الرسول ﷺ إلى زيارته بعد أداء الحج بثوابت الأحاديث، فكيف يجعلون للحى أهلية هطول البركات ويمنعونها عن الميت مع أن المسألة بالعكس؛ لأن الميت أولى بالإحسان من الحى لشدة حاجته إليه؛ وذلك لانقطاع عمله الذى به تزداد درجاته عند الله؛ ولذلك فهم يفرحون كثيرا بالزائرين والمتصدقين على أرواحهم

والتالين كلام الله وذلك يعتبر تحية لهم من الأحياء يفرحون بها، ولكن لا يملكون الرد على التحية: ﴿ **وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ... ﴿٨٦﴾** ﴾ [**النساء**] فالله الكريم الذى كان يتولى الصالحين فى الدنيا هو الذى يتولى رد التحية بأحسن منها على من قَدَّم إليهم التحية وذلك هو سر قبول الدعاء بالتوسل بهم وشفاء الأمراض وقضاء المصالح إلى غير ذلك؛ ولأن قبورهم مواطن رحمة من كثرة الزوار الذين يبادرونهم بالتحية بالفاتحة وبالسلام وبالصدقة وبالدعاء ﴿ **نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ... ﴿٣١﴾** ﴾ [**فصلت**] فى الدنيا ولانا الله حفظكم وكتابة أعمالكم وفى الآخرة: سخرنا الله لنجلس على قبوركم فنستغفر الله لكم إلى يوم القيامة، فهؤلاء الملائكة جميعا مع روح الولى: يؤمِّنون على دعاء الداعين والمتوسلين بهم إلى الله تعالى وهذا أمر جائز، ومن أراد مزيدا من الأدلة فعليه بالكتب الستة التى روت أحاديث النبى ﷺ فإن لم تتح له كلها فعليه بالصحيحين ومسند أحمد بن حنبل وصحيح ابن خزيمة وابن نعيم فى عمل اليوم والليلة والبيهقى فى كتاب الدعوات، والطبرانى - فى الدعاء - وابن السنى وابن ماجه.

وطريق الله فى التصوف للعارف بالله فضيلة الشيخ أحمد أبى خليل رضى الله عنه. وبذل الماعون لابن حجر الهيتمى، وفتح البارى لابن حجر جـ٢ ص٤٩٥ - والترمذى - والنسائى والحاكم وابن حجر الهيثمى فى مجمع الزوائد ونحوها مما يستطيع العثور عليه.

قضايا هامة حول شبه المانعين للتوسل

أولا: قضية تكفير المتوسلين

قال العلماء المحققون:

إن أول من كفر الموحدين هم «الخوارج» فى عهد أمير المؤمنين على كرم الله وجهه فاستباحوا دماء المسلمين وهلكوا مع الهالكين.

الخوارج قديما:

الخوارج فى عصر سلفنا الصالح، هم مرقة قد مرقوا من الدين واستباحوا دماء المسلمين، وكفَّروا من خالفهم من الموحدين، ومن أجل ذلك: كفَّروا مرتكب

الكبيرة، واعتبروا أن مخالفة فكرهم كبيرة من الكبائر ـ وكل هذا اعتنقوه ـ كفكر متطرف ـ لأمر سياسى، وليس مقصودا به العقيدة والدين فالدافع هو: الإمامة والحكم فمن أجلها أثاروا هذه الفتن الهوجاء.

فكفروا أمير المؤمنين ومن شاءوا من أصحاب رسول الله ﷺ وتابعيهم.

حكم السلف الصالح على الخوارج:

مع أنهم قد كفروا سلفنا الصالح وعلى رأسهم باب مدينة العلم: الإمام على كرم الله وجهه، إلا أنه رضى الله عنه حينما سئل عن الخوارج أكفارٌ هُمْ؟ فقال: «لا، : إنهم من الكفر فروا» فقيل له: أمنافقون هم: قال: «إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا، وهؤلاء يذكرون الله كثيرا. فقيل أى شيء هم: فقال: قوم أصابتهم فتنة فعموا وصموا»[1].

الخوارج حديثا:

الخوارج فى عصرنا الحديث، كأنهم نسخة من الأقدمين فى تكفيرهم لمن لا يدين بفريتهم وافتراءاتهم بوجه عام، والباعث على فكرهم المتطرف ذلك هو أمر سياسى وهو «الحكم» وسيل اللعاب عليه، فمن افتراءاتهم يرمون الصالحين المتوسلين بالكفر والشرك والوثنية مع أن المتوسلين لم يمرقوا من الدين، ولم يكفروا أحدا من الموحدين، ولم يستبيحوا دماء المسلمين، و قد اتضح لنا أن أهل الوسيلة والاستشفاع قد بَنَوْا ذلك على أدلة نقلية ثابتة كتابا وسنة، وعلى عمل السلف الصالح وجمهور علماء الأمة خلفا وسلفا.

والنبى ﷺ يقول: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»[2].

الإسلام والإيمان:

معنى الإسلام هو: الانقياد والاستسلام لله وحده وإسلام الوجه له تعالى وذلك بالانقياد لأوامر الشرع الشريف.

مراتب الإسلام: له مرتبتان:

---

(١) شواهد الحق للبنهانى ص٢٣٩ . (٢) صحيح البخارى.

١ ـ أصل الإسلام ويتحقق بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن سيدنا محمدا رسول ﷺ، تعبيرا عن وجدان قلبى.

٢ ـ كمال الإسلام: ويتحقق بإقامة أركان الإسلام الخمسة: فمع الشهادتين، إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.

أمور تتعلق بالمسلم:

١ ـ مسلم عند الله وعند الخلق، وهو: من ينطق بالشهادتين، معتقدا بها قلبه.

٢ ـ مسلم عند الله فقط وليس عند الناس وهو: من يبطن الإسلام فى قلبه ولم ينطق به أمام الناس.

٣ ـ مسلم عند الناس وليس مسلما عند الله وهو: من يظهر الإسلام ويبطن الكفر.

قال الله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ...** ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النساء].

وقال الله تعالى: ﴿ **وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ...** ﴿٢٢﴾ ﴾ [لقمان].

وقال الله سبحانه: ﴿ ... **فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ** ﴿٣٤﴾ ﴾ [الحج].

الدليل على الإسلام الكامل، حديث جبريل ـ فى صحيح البخارى ـ حينما سأل النبى ﷺ عن الإسلام؟ فقال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن تقيم الصلاة وأن تؤتى الزكاة وأن تصوم رمضان وأن تحج البيت إن استطعت إليه سبيلا».

معنى الإيمان:

الإيمان هو: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقضاء والقدر، خيره وشره، حلوه ومره.

مراتب الإيمان: له مرتبتان.

١ ـ أصل الإيمان وهو الإيمان العَقَدىّ أى التصديق القلبى بالعقائد الإيمانية الست المذكورة آنفا.

ودليله أيضا - حديث جبريل - في البخاري - حينما سأل النبي ﷺ: ما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقضاء والقدر، خيره وشره، حلوه ومره.

٢ - الإيمان الكامل وهو: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان وقيل: إنه يسمى: الإيمان الحق.

وعلاماته في سورة الأنفال: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ... ﴿٤﴾**﴾ [**الأنفال**] وهذا الإيمان هو: ما يسعى إليه الصوفية بسلوكهم طريق الله.

الكفر:

الكفر: لغة: الستر والتغطية، وشرعا: هو: عدم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر. خيره وشره، حلوه ومره.

قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يؤمن بأربعة أشياء:

يشهد أن لا إله إلاالله وأني رسول الله ويؤمن بالبعث بعد الموت وبالقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره»؛ إذ أنَّ الإيمان بالله عز وجل هو: التصديق الجازم من صميم القلب بوجود ذاته تعالى الذى لم يسبق بضد، ولم يعقب به، هو الأول فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، والظاهر فليس فوقه شيء، والباطن فليس دونه شيء، حي قيوم أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فهو سبحانه واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله.

حكم من كفَّر مسلما:

إن من رمى إنسانا بالكفر، فقد باء به: إن لم يكن كذلك، فلا يجوز أن يكفِّر المسلم بذنب قد ارتكبه مهما كان هذا الذنب؛ لأننا كلنا مذنبون، والذى يحكم على الناس بالكفر هو مذنب آخر، فليس من المعقول أن تكفر الأمة كلها - بعد انتقاله ﷺ بسبب معاصٍ أو خطايا فقد أمر الله تعالى العصاة بالتوبة مع وصف الإيمان لهم فالتوبة عادة لا تكون إلا من معصية، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا... ﴿٨﴾**﴾ [**التحريم**].

والتوبة لا تكون إلا من معصية، ولكن الحق سبحانه ناداهم بوصف الإيمان، وقال أيضا: ﴿ ...وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور] بأحسن وصفهم وهو الإيمان أى التوحيد. ولأجل أن تباشر الرحمة عملها فى دنيا الناس فإن الله تعالى سيمنحك الفلاح والنجاح قال الله تعالى: ﴿ ...وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور].

فالخطر كل الخطر على إيمان وإسلام من رمى إنسانا بكفر فقد قال رسول الله ﷺ معالجا تلك الظاهرة: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله».

فكل من نطق بالشهادتين ولم يظهر منه ما يناقضهما: لايجوز تكفيره مطلقا، وإلا عاد الكفر على من كفره، فالله سبحانه يقول: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المائدة].

فإن هذه الآية تبين أن من دخل على جماعة مؤمنة ورماهم بالكفر وهم ليسوا كما رماهم، فقد حمل هو وزر هذا الكفر وخرج به.

ويقول الرسول ﷺ: «من كفر مسلما فقد كفر» وفى رواية «فقد باء به أحدهما».

أنواع الكفر: المفروض أن يطلق الكفر على من لم يؤمن بالله أو لم يؤمن بالملائكة أو لم يؤمن بالكتب المنزلة من عند الله تعالى أو لم يؤمن برسل الله، أو لم يؤمن باليوم الآخر، أو لم يؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره؛ لأن هذه الأشياء هى مناقضات ما يجب الإيمان به. وكذلك من أحلَّ حراما متفقا على تحريمه، أو حرم حلال متفقا على حلِّيته. أو قال قولا مكفرا، أو فعل فعلا مكفرا والعياذ بالله تعالى، وكذلك يكفر من أنكر أمرا معلوما من الدين بالضرورة كفرضية الصلاة أو الصوم. . . إلخ.

فذلك ما ندين لله تعالى به فى هذه القضية الخطيرة التى أصبحت كلأ مباحا لكل من هب ودب، وقد رأينا ورع الإمام على كرم الله وجهه فى أن يطلق لفظة الكفر على الخوارج الذين يكفرونه هو وكثير من الصحابة والتابعين العدول، ويستبيحون دماءهم، وقد حدث فعلا بعد ذلك حينما قتله عبد الرحمن بن ملجم الخارجى، لكن الإمام على رضى الله عنه قد خرجت روحه الشريفة على عقيدة

إيمانية راسخة، وابن ملجم هلك على عقيدة زائغة والفصل فى يوم العرض على الله.

ومن عجب أن بعض العلماء قد خالفوا رأى السلف فى مفهوم «الكفر» وبذلك فتحوا الباب أمام خوارج العصر الحديث، فكفروا خواص الأمة وعدو لها من أولياء وعلماء عاملين ممن لايدين بزيفهم، ولاسيما فى قضية التوسل والاستغاثة بالموتى وزيارة القبور المضروبة على الصالحين وبالأخص القبر الشريف لسيد المرسلين ﷺ والاستشفاع به والصلاة فى تلك المساجد، وشد الرحال إليها وقراءة القرآن والدعاء عند الموتى وغير ذلك من مطاعنهم. وقبل الردود على هذه الافتراءات التى جعلوها أساس دعوتهم فى كل زمان ومكان، بل كأنها الإسلام كله!! فإننا لن نتعرض لموضوع التقسيم اللفظى لكلمة «الكفر».

لقد اتضح الحكم الشرعى فى مسألة الكفر إطلاقا وحكما وخصوصا عند باب مدينة العلم الإمام على كرم الله وجهه ولكن بعض العلماء قد فتحوا بابا للكفر فى إطلاقه وتقسيمه مما جعل كثيرا من أهل الزيغ والأهواء أن يتساهلوا فى إطلاق الكفر على كل من خالفهم، وذلك كالآتى:

يرى ابن القيم، كما فى ـ كتاب الصلاة فيقول: «الأصل الرابع» أن الكفر نوعان: كفر عمل، وكفر جحود وعناد.

فكفر الجحود والعناد هو: أن يكفر بما علم أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد جاء به من عند الله ـ جحودا وعنادا ـ من: أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه التى أصلها توحيده وعبادته وحده لا شريك له وهذا مضاد للإيمان من كل وجه.

وأما كفر العمل فمنه: «ما يضاد الإيمان كالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف وقتل النبى وسبه».

ثم يقول ابن القيم ـ فى تساهل عجيب وتعميم ـ لا يجوز لمثله من أهل الباع علما وفقها؛ إن لم يكن ذلك عليه حيث قال: «وأما الحكم بغير ما أنزل الله وترك الصلاة فهذا كفر اعتقاد».

والمعروف أن ترك الصلاة فيه تفصيل، فقد يكون متكاسلا مع اعتقاد وجوبها فلا يخرج عن الملة وكذلك الحال فى الحكم بغير ما أنزل الله، فقد يكون متكاسلا

أو القرار العام ليس بيده، وليس متخصصا فى فقه العقيدة، فلا يجوز تكفيره؛ لأنه لا يوجد مسلم إلا وهو يريد تحكيم شرع الله؛ لأن من آمن برسالة سيدنا محمد ﷺ فإنه قد اعتقد أن أحكامها أساس السعادة وينبغى العمل بها ولا يمكن أن يعتقد مسلم أن القانون الوضعى خير من أحكام الشريعة فلماذا يساء الظن بالمسلم، ويكثر الشقاق والخلاف والتكفير ويغيب عن العقل البواعث التى قد أدت إلى هذه أو تلك؟

الشرك:

هو: اعتقاد أن غير الله قد ينفع أو يضر بنفسه، وأن له تأثيرا خاصا فى الموجودات مع تأثير الله، وملاحظة القلب لغير الله أثناء العبادة فَتُحَسَّنُ لأجل إرضائهم وأخذهم فكرة جيدة عنه، أو التظاهر بالصلاح أمام الناس بغية الثناء عليه.

أنواع الشرك:

١ ـ شرك ينقل عن الملة وهو الشرك الأكبر.

٢ ـ شرك لا ينقل عن الملة وهو الشرك الأصغر، كشرك الرياء، قال الله تعالى فى الشرك الأكبر: ﴿ ... **إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** (٧٢) ﴾ [**المائدة**].

وقال سبحانه: ﴿ ... **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** (٣١) ﴾ [**الحج**].

وهذا الشرك الأكبر غير موجود الآن فى هذه الأمة، سواء أكانوا مطيعين أم عصاةً مذنبين، وليس من المعقول أن آحاد الأمة يفهم دين الناس ومِلَّتهم أكثر من النبى ﷺ الذى أتى بهذا الدين، ولا يصح فى أى ذهن أن هؤلاء من خوارج العصر الحديث يغارون على الدين أكثر ممن بعث بهذا الدين، وكان لا يألو جُهْداً فى تبليغه ونُصْرته، ومع ذلك فهو ﷺ يُطَمْئِنُ هذه الأمة أن عقيدة التوحيد مازالت فى سويداء قلب مسلمى هذه الأمة ماثلة إلى يوم القيامة.

نعم إن هذا النوع من الشرك لا يوجد فى أمة فُطِرَتْ على الإسلام، ولذلك فصاحب هذه الرسالة المحمدية مطمئن على أمته من ناحية الشرك الأكبر ولكنه ﷺ يخاف على أمته من التنافس على الدنيا من منصب وكرسى وجاه ومال وكل ما يندرج تحت هذه الحياة الدنيا من أمور.

قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى فى صحيحه فى باب «الفتن والملاحم»: «والذى نفسى بيده إنى لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدى بالله شيئا ولكن أخوف ما أخاف عليكم أن تبسط عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من كان قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم».

وكيف يكون فى الأمة الإسلامية «شرك أكبر» والله تعالى يخاطبها خطاب التكليف فى القرآن الكريم بوصف «الإيمان» فيقول الله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ... ﴿٥٩﴾**﴾ [**النساء**]، ويقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ... ﴿٧٧﴾**﴾ [**الحج**]، (﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ... ﴿١٠٢﴾**﴾ [**آل عمران**] وهكذا: كل خطاب من الله سبحانه لهذه الأمة فى الآيات المدنية وسورها، فإن الخطاب يكون بوصف «الإيمان» أى التوحيد فإذا ما قال الله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ فكأنه قال: (يا أيها الموحدون).

فالتوحيد: سمة لازمة لوجدان هذه الأمة التى يطلق عليها أمة التوحيد دون سواها من الأمم التى ما إن يغيب عنها رسولها أو يموت إلا وتختفى معه عقيدة التوحيد؛ لأن غرس التوحيد لديها غرس مؤقت بوجود رسولها فى وسطها، ولكن عقيدة التوحيد الإسلامية ثابتة فى الوجدان لدى الأجيال المتلاحقة، وفى الفطر التى لم تُخَلَّق إلى يوم القيامة، فهى خالدة أبد الدهر بخلود رسالتها التى ختمت بها الرسالات، ورسولها قد ختم الله به دائرة الرسل فليس رسولا أتى ليلحقه آخر (ولكن رسول وخاتم النبيين).

فرسولنا سيدنا «محمد» ﷺ، ليس محدد المهمة مكانا وزمانا وأناسا، كسيدنا «موسى» مثلا الذى غاب عن بنى إسرائيل أربعين يوما فلما رجع إليهم وجدهم قد عبدوا العجل من دون الله.

نداء إلى الذين يحكمون على خواص الأمة بالشرك:

إننا نهيب بالذين يحكمون بالشرك الأكبر على محبى الأولياء والأصفياء والمتوسلين بهم إلى الله وزوار قبور الصالحين ألا يجازفوا بدينهم، وألا يأخذوا

بظواهر آيات قرآنية قد نزلت فى مشركى قريش، وأن يُحسنوا الظن بأهل الملة وبخاصة العلماء العاملين والعارفين بالله، وأن يقرأوا النصوص الكريمة بروية وصدق نية فى التلاقى مع مراد الله تعالى، دونما عصبية ولا تحجر مذهبى، وألا يسوقوا ألفاظ الكفرية والشركية والوثنية جزافا تجاه أقوام حينما يدعون يستجيب الله دعاءهم «دائما» وإذا أملوا حقق الله رجاءهم وإذا قرأوا فاتحة على مريض كثيرا ما يشفيه الله عاجلا أو آجلا وإذا ذهب إليهم عاص دعوا الله بهدايته فيهديه الله ويصير من عباد الرحمن، فهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن الله تعالى راض عنهم؛ لأنه سبحانه يؤيدهم دائما بفضله وبرحمته، ومن ذلك التأييد بالكرامات الحسية والمعنوية التى لا يمكن لمخلوق أن تتأتى منه. إلا أن تكون عناية من الله تعالى مع أحبابه.

إن الأمر جِدُّ خطير وأمتنا الآن فى منعطف تاريخى هام «إما أن تكون وإما ألا تكون» مادة ومعنى وقد انزلق الكثيرون إلى معصية الله تعالى.

فالأوبة الأوبة إلى الله يا عباد الله، وكفى تمزيقا لهذه الأمة، ومحاربةً للدين باسم الدين، فالنبى ﷺ أكد بالقسم أنه لا يوجد شرك فى هذه الأمة إلى أن تقوم الساعة فغارس التوحيد فيها غارس ماهر هو سيدنا محمد ﷺ وقد أمده ربه بمقومات الخلود لرسالته، فلا تحرقوا هديه وحبه وحب أحفاده الذى وضعه فى وجدان الأمة ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ...** ﴿٧﴾ ﴾ [**الحجرات**].

ولا تقلبوا على أنفسكم ظهر المجن بتكفيركم وتشريككم للمسلمين الصادقين فينكفئ الكفر والشرك عليكم، وضعوا نصب أعينكم دائما قول الصادق المصدوق ﷺ: «من كفر مسلما فقد كفر» وفى رواية «فقد باء بها أحدهما». وإنى أود من كل قلبى الذى يتسع لكل من يريد أن يفر إلى ربه: ألا تكونوا من قوم عناهم النبى ﷺ بقوله: «بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا».

فإن هذا الحديث الشريف يحذر وينذر من يكفر المسلمين فى صباحه أو ممساه بانكفاء الكفر عليه هو، مهما كان يعد نفسه فى عداد المؤمنين، فإياكم والتلاعب بألفاظ الكفرية أو اعتقادها فى مسلم موحد، وألا يكون الباعث الحطام الفانى، والذى يثبت أن هذا ما يعنيه الحديث هو إعلان عدم خوف الرسول ﷺ

على أمته من الشرك الأكبر لأنها أمة التوحيد والرسالة الخالدة، ولكن خوف الرسول ﷺ لا يتأتى إلا حينما تتطور حياتها، وتتسع أرزاقها، ويسيطر حب الدنيا وبريقها على القلوب، ويتفاخر الناس على بعضهم البعض، وتنتشر الأنانية والطمع والجشع، فيتنافسون على المناصب والجاه والسلطان وأدوات الحياة الرغدة، فينضب معين الدين فى القلوب حينما تقسو وتظلم وتسود، فينتشر الهرج والمرج، وتكثر الفتن والمظالم، ويسوء حال الأمة التى تصبح لقمة سائغة لأعدائها المتربصين الذين يتحكمون فى مقدراتهم ومصيرهم، بسبب تطاحنهم وعدوانيتهم على بعضهم البعض تحت شعارات زائفة براقة ما أنزل الله بها من سلطان.

فالرسول ﷺ الذى قال: «والذى نفس محمد بيده إنى لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدى بالله شيئا ولكن أخوف ما أخاف عليكم أن تبسط عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم».

هو ﷺ الذى قال: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أو من قلة نحن يا رسول الله؟ قال: لا، بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل وليضربن الله تعالى على قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

الشرك الأصغر: وأما الشرك الأصغر، فهو الرياء الذى هو التباهى وإظهار الفضائل والأعمال الصالحة وهذا لا يخرج من الملة، ولكنه يحبط ثواب العمل الصالح، ولا تجده عند السالكين لطريق الله تعالى؛ لأن طريقتهم هى: تصفية القلب تماما من أدرانه مثل: الرياء وحب السمعة الكاذبة وسوء الظن بالمسلمين و.... إلخ.

والعجب العجاب أن المعارضين للأولياء ومحبيهم، يظهر فى سلوكياتهم: الرياء والتظاهر وسوء الظن بصورة عجيبة؛ لأن ما فيك يظهر على فيك، فنسأل الله لنا ولهم الهداية.

الشبهات التى يثيرها المجافون للتوسل

إن تكفيرهم للمسلمين المتوسلين يعتمد على نصوص قد فهموها أو تفاهموها خطأ، فوقعوا فى أفدح الأخطاء. وحكموا على المتوسلين بأن شركهم أخطر من المشركين السابقين على الإسلام، حيث قالوا: إن شرك السابقين كان

شركا فى «الألوهية» فقط. وأما مشركو المسلمين، فقد أشركوا فى «الربوبية» كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا.

فهـذه دعواهم المغالطة، والتى أوصلهـا إليهم أعداء الإسلام فى الخـفاء من دهاقنة المستشرقين ومعظمهم من اليهود، فإن أى دعوى لابد أن تؤسس على دليل وبرهان واضح وبخاصة فيما يتعلق بعقائد الإيمان!!

إن دليلهم على فـريتهم أنهم حـمّلوا جمـيع الآيات القرآنيـة التى نزلت فى المشركين، وخصوصا مشركى مكة على الموحدين من أمة سيدنا محمد ﷺ وتمسكوا بذلك فى رميـهم بالشرك الأكبـر فمن هذه الآيات: ﴿ ... **فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴿١٨﴾ ﴾ [**الجن**].

وقوله سبحانه: ﴿ **وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ** ﴿١٠٦﴾ ﴾ [**يونس**].

وقوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ** ﴿٥﴾ **وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ** ﴿٦﴾ ﴾ [**الأحقاف**].

وقوله جـل شأنه: ﴿ **فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ** ﴿٢١٣﴾ ﴾ [**الشعراء**].

وقوله سبحانه: ﴿ ... **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ** ﴿١٣﴾ **إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** ﴿١٤﴾ ﴾ [**فاطر**].

وقوله تعالى: ﴿ **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** ﴿١٤﴾ ﴾ [**الرعد**].

وقوله تعالى: ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا** ﴿٥٦﴾ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** ﴿٥٧﴾ ﴾ [**الإسراء**].

إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التى نزلت فى المشركين من كفار مكة.

ولكن خصوم الأولياء ومجافيـهم زعموا أن كل من استغاث بالنبى ﷺ، أو

توسل به أو بغيره من الأنبياء والصالحين أو ناداه أو سأله الشفاعة، يكون معدودا فى عداد هؤلاء المشركين الذى عنتهم هذه الآيات، وداخلا فى عمومها.

وشبهتهم فى ذلك: أن هذه الآيات وإن كانت نازلة فى المشركين إلا أن العبرة «بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب» ولكن عموم اللفظ وعدم خصوص السبب: كلمة حق أريد بها باطل، فلا يجوز التعميم ولَىّ الآيات ووضعها فى غير موضعها، فلا توجد علة ولا سبب يربط بين المشركين وبين الموحدين من هذه الأمة الذين خاطبهم الله بوصف الإيمان أى التوحيد وعدم الشرك كما فى القرآن الكريم، والذى أكد ذلك هو النبى ﷺ فى حديثه السابق الذى يثبت اطمئنانه على أمته من الشرك ولكن يخاف على المسلمين الذين يكفرون المسلمين بسبب تقاضيهم مبالغ مالية أو يؤملون فى جاه أو منصب أو أى عرض فان، ولا يهمهم أن تختلف الأمة وأن تحل الفتن بها، فقد تستروا تحت عباءة الإسلام، واكتفوا بشكلياته وأعلنوا أنهم حراس الإسلام والعقيدة، وأن غيرهم يتيه فى الجهل المركب وهذا هو عين «الإسقاط» الذى يقول به علماء النفس.

نعم «العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب» ولكن ليس فى كل شىء، فالعلة تدور مع المعلول وجودا وعدما، ولا يوجد سبب ولا علة تربط معتقد مشركى مكة وبين المسلمين الموحدين الذين يتبركون بأحباب الله؛ لأن المسلمين يعتقدون أن التأثير فى الكون والنفع والضرر لا يكون إلا لله وحده، وما تبركهم وتوسلهم إلا أخذا بأسباب أحلها الله وجعلها من نواميس الكون وقد اتخذها من قبل خواص الأمة وتسعفهم النصوص الواضحة التى بينا شيئا منها غير قليل.

فقد يكون الدعاء فى تلك الآيات معناه العبادة وبذلك يُفَنَّدُ ما زعموه لأن المسلمين لا يعبدون إلا الله تعالى، وليس فيهم من اتخذ الأنبياء والأولياء آلهة، أو جعلهم شركاء لله تعالى، حتى تعمهم تلك الآيات، ولا اعتقدوا أنهم يستحقون العبادة، ولا أنهم يخلقون شيئا، بل إن عقيدتهم أنهم عبيد لله سبحانه مخلوقون له، وما قصدوا من التوسل بالصالحين إلى الله تعالى، إلا التبرك بهم لكونهم أحباب الله المقربين، الذين قذف فى قلوب الخلق حبهم، فعرفوا وجاهتهم عند ربهم، فتبركوا بهم وأحبوهم، فرأوا فرج الله على أيديهم، وانتفعوا بصحبتهم وتوسلهم بهم إلى الله تعالى.

التوسل توبة متجددة:

إن من شروط إجابة الدعاء: أكل الحلال الطيب، قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا» والبعد عن المعاصى الحسية والقلبية، قال الله سبحانه: ﴿ ... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة] وقد أشار النبى ﷺ إلى محل التقوى، فأشار بأصبعه الشريف إلى صدره الشريف، وقال: «التقوى ها هنا التقوى ها هنا».

ومعلوم أن من أكل ولو لقمة واحدة حراما لا يستجيب الله دعاءه أربعين صباحا. والعبد لا يستغنى عن باب ربه إطلاقا فى أى لحظة، فماذا يفعل آكل الحرام؟ هل ييأس من قرع باب خالقه هذه المدة كلها وهو يعلم أنه لن يستجاب له بلسانه الذى لوثه بأكل الحرام وجوفه ودمه الذى سار فى عروقه وأَظْلَمَ قلبه وقساه؟ ماذا يفعل المضطر وقد عرف خطأه حينما وضعه القدر فى موقف المضطر الذى لابد أن يلجأ إلى مولاه؟ إن الله تعالى لطيف بعباده، ورحمته قد سبقت غضبه، وحلمه قد تَغَلَّبَ على مؤاخذته، ففتح لعقله بابا إليه ليرده إلى جنابه الأقدس منيبا تائبا إلى حضرته، فدلَّه على أحبابه ليعلموه الأدب مع خالقه، وجربهم فى التوسل إلى ربه بقضاء حاجته وتفريج كربته فتوسل إلى الله تعالى بحبه لهم، فإن محب الحبيب حبيب، فاستجاب الله له حينما دعوا له، أو دعا هو مستشفعا بهم إلى ربهم بالقبول فقبله، فأى مخالفة هنا إذا كان المدعو للشفيع والمستشفع، والمتوسل والمتوسل به هو الله وحده صاحب الخلق والأمر فى ملكه وملكوته.

نعم إن التوسل: توبة تتجدد بتكرره؛ لأن لسان حال العبد معه كأنه يقول يارب لقد عصيتك بقول وفعل وكسب حرام، وإنى جئتك تائبا عن طريق أحبابك وأوليائك الشهداء على توبتى فإن كنت قد قبلت توبتى ففرج كربتى ويسر أمرى فلن أعود لذنب يعطل مسيرتى نحو رضاك والآن أعاهدك بأن آتيك مع ركب الصالحين.

ومن الأحكام المتفق عليها جواز التوسل بالأعمال الصالحة بدليل الحديث الصحيح الذى ورد فى أصحاب الغار الثلاثة الذين سُدَّ الكهف عليهم بصخرة كبيرة فتوسل كلٌّ منهم إلى الله تعالى بصالح عمله حتى خرجوا جميعا.

هذا، وإن حب الصالحين «عمل صالح» فيجوز أن يتوسل به، وما التوسل إلا دعاء لله وحده. وقد قال رسول الله ﷺ: «من أحب قوما حشر معهم» فما

قَرَّبَ المحب ليكون فى الجنة مع محبوبه إلا حبه، إذ الحب عمل فيجوز أن يتوسل المسلم بحبه للرجل الصالح الذى لا يحبه إلا لله ولسوف يستجيب الله الكريم له ذلك وفى ذلك درس له يفيده فى التوبة والرجوع إلى ربه فقد عرف خطأه وتماثل للشفاء منه بتواضعه وانكساره إلى ربه حينما أجاته ضرورة كشف الكرب والهم والعناء والبلاء أن يفزع إلى الله مع شفيع يدعو الله معه.

فإن لفظة «شفيع» مشتقة من الشفع وهو «الزوج» أى أن الداعى ليس وحده فى ميدان الدعاء بل دعّم نفسه بداع آخر يدعو معه، فإذا لم يستجب للأول المكبل فى ظلمات الآثام والمعاصى، فسوف يستجيب الله تعالى للثانى التقى الولى وتلك رحمة من الله وعطية ولطف بعباده حتى العصاة فيجذبهم ذلك نحو هداه وتقواه ولله الفضل والمنة فى كل شىء، وكيف نعجب من ذلك ولا يعدو الأمر أن يكون سببا من الأسباب التى ترتبط بمسبباتها ونتائجها التى هى من فعل الله وحده:

قال رسول الله ﷺ: «إن للخير مفاتيح وللشر مغاليق فطوبى لعبد جعله الله تعالى مفتاحا للخير مغلاقا للشر».

شبهة دعاء المسلم لنفسه:

أولا: لا مانع من أن يدعو المسلم لأخيه بظاهر الشهادة أو بظهر الغيب، فإن ذلك أمر قد تقرر وتكرر من السلف الصالح مع بعضهم، بل قد حدث كثيرا من النبى ﷺ فقد كان أحدهم يدعو ويؤمن الباقون على دعائه.

وهذا هو عين ما يفعله علماء السلوك إلى الله تعالى.

ومعلوم أن دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجاب، فقد قال ﷺ لسيدنا عمر حينما توجه لعمل عمرة: «لا تنسنى يا أخى من دعائك».

ففى ذلك تشريع للأمة فى ألا يقتصر دعاء المسلم لنفسه فقط، فالمؤمنون كرجل واحد، وها هو القرآن يعلن تكافل المسلمين مع بعضهم البعض أمام الله تعالى، فقد أوجب عليهم تنزيلا إذا قرأوا الفاتحة فى صلاة أو غيرها:

كما هو النص القرآنى الحكيم ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ۝٥﴾ [**الفاتحة**] حتى ولو كان يصلى منفردا وحده بحيث لا يراه أحد، وكان القياس أن يقول: إياك أعبد وإياك أستعين وأن يقول: اهدنى الصراط المستقيم. لكن التربية الإلهية

تقتضى غير ذلك بأن تكون الروح الإيمـانية السائدة روح واحدة وقلب واحد للأمة يخفق بالإيمان على الدوام.

ثانيا: إن منكرى الوسيلة يلزمون المسلم بأن يشذَّ دائما عن الروح الإسلامية الواحدة التى شرعها القرآن الكريم وقررتها السنة المطهرة.

فهم يقولون: لا يجوز التـوسل ولا زيارة الأولياء؛ لأن الله تعالى لم يجعل واسطة بينه وبين العبـد فهو سبـحانه يقول: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ... ﴿١٨٦﴾ ﴾ [**البقرة**].

وللرد على هذه الشبهة أقول: وبالله التوفيق:

أولا: سـبب نزول هذه الآية: أن بعض الصـحـابة قـالوا: يا رسـول الله: أقريب ربنا فنـناجيه أم بعـيد فنناديه؟ فأنزل الله هـذه الآية الكريمة: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ... ﴿١٨٦﴾ ﴾ [**البقرة**]. إذًا يؤخذ من سيـاق الآية أن المقصود بـ «عبـادى» هنا الصحابة الأجـلاء العدول المتحقـقون بعبـادتهم والذين شهد الرسـول ﷺ لهم بطول الباع فى التقـرب إلى الله تعالى، حينمـا نهى الأمة عن سبـهم والطعن فيهم بقـوله: «لا تسبوا أصـحابى فلو أنفق أحدكم مثل جبل أحد ذهبا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه».

ومعـلوم أن المد نصف قدح من البـر أو الذرة ـ والنصيف: ربع القـدح منه وذلك لأن قلوبنا ليـست كـقلوبهم، وتوجـهنا إلى الله تعالى ليـس كتـوجهـهم، فقلوبهم مع الله بكليـتها ولا يرجون إلا الله والدار الآخـرة، وأما نحن فتوجـهاتنا إلى الدنيا وزخرفها أكثـر من الآخرة، بل إن الكثيرين منا أصبح يخضع لحب المال والجاه والعرض الفانى أكثر من خضـوعه لما يقربه إلى ربه، بل إن صلاتنا أصبحت تخلو من الصلة الكاملة بالله تعالى، فهى حـركات جسومية وعبـارات كلامية فى أغلب الأحيـان، فتـحولت إلى عادة بـدل أن تكون عبادة تغـسل القلب من أدران المعاصى وتنقيه كما فى حديث: «أرأيتم لو أن نهرا. . .إلخ».

فقد كانوا يبـترون العضو التالف لأحدهم فى الصلاة، ثم يغـمسون ما بقى فى الزيت المغلى لكيـلا تنزف الشرايـين ولا يشعـر لأنه بكليتـه مع ربه، لكننا أى الكثيرين منا والأعم الأغلب إلا من رحـم تجسدت فى قلوبنا محبة الدنيـا وكراهية

الناس والغل والشحناء وسوء الظن وقد قال ﷺ: «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعسى عبد القطيفة والخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش».

فكيف يستجيب الله تعالى دعاء من أصبح يعبد سواه من جماد هو مال أو ثياب أو سيارة أو قصر أو امرأة جميلة لأن العبادة معناها: الخضوع والامتثال، فقد أصبح الإنسان المعاصر يخضع لهذه الأمور المادية خضوعا كاملا وتشغل باله أغلب وقته. فإن كان غنيا سال لعابه على كرسى فى مجلس الشعب أو فى إدارة أو وزارة مثلا أكثر مما هو فيه «لو كان لابن آدم واديا من ذهب لتمنى أن يكون له الثانى... الحديث».

وإن كان أقل من ذلك فهو يهفو إلى أن يحسن وضعه ولو عن طريق غير مشروع، يعصى الله من خلاله، فإذا لم يجد فإنه يندب حظه ويحزن على نفسه، ويحقد على غيره ويحسده بقلبه وإن لم يظهر ذلك.

مع أن القرآن يضع القياس العبادى الصحيح للمتعبدين وهو عدم فرح القلب بإقبال الدنيا عليهم مالا أو ولدا أو جاها وسلطانا، فكل ذلك زائل، فلا يحل له أن يضع حب الدنيا فى قلبه إن هى أقبلت بل عليه أن يضعها فى يده فقط ليؤدى منها حق الله وحق أهله ونفسه. ولا يجوز للمسلم الذى يريد رضاء الله: أن يحزن قلبه على فوات الدنيا أو شىء منها إن هى أدبرت وليكن حزنه على ذنب قد ارتكبه أو قلب قسا أو أظلم أو مال تدنس قال الله تعالى: ﴿ **لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ...** ﴿٢٣﴾ ﴾ [**الحديد**].

ثانيا: أنه فى دفع شبهة تحريم التوسل والدعاء عند قبر الولى باستدلالهم بقوله سبحانه: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي ...** ﴿١٨٦﴾ ﴾ [**البقرة**] فإنهم أى خصوم الأولياء والتصوف قد يقولون: إن الأمر لا يقتصر على الصحابة فقط انطلاقا من قاعدة ـ العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب ـ نقول: نعم نحن معكم فى ذلك، ولكننا لابد أن نفكر فى معنى «عبادى» فهناك فرق كبير بين العبيد والعباد، فلفظ «عبيد» يشمل الكافر والمؤمن والمطيع والعاصى، فهؤلاء جميعا عبيد الإحسان من الله تعالى انطلاقا من قوله تعالى: ﴿ ... **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ...** ﴿١٥٦﴾ ﴾ [**الأعراف**]، أى فى الدنيا الكل يعيش فى كنف هذه الرحمة الدنيوية التى تنتهى بحياة الإنسان والحياة، ولكن الرحمة الأخروية خالدة دائمة ثابتة مستقرة أبد

الدهر، فهى عزيزة ولـذا لا تعطى إلا لعبد من العباد عـزيز على الله، ولذلك قال الله سبحانه عنها: ﴿... فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ... ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف].

إجابة الدعاء للعباد وليس للعبيد

فالعبيد يعرفهم ربهم بإحسانه إليهم فى الدنيا حتى ولو كانوا عصاة أو حتى لو أنهم كفار، فالدنيا فترة قصيرة فليمتعهم فيها، ليقيم حجته عليهم فى الآخرة بعصيانهم وعدم إيمانهم. ولكن العباد يعرفون ربهم فيشكرونه على السراء والضراء فيحبهم ويحبونه لأنهم وقفوا قلوبهم على حضرته ولا يعتزون إلا بجنابه ولا يخافون إلا من عقابه فهم دائما على بابه عاكفون أفقرهم أو أغناهم، أمرضهم أو عافاهم، أذلهم من الخلق الأرذال أو أعزهم: إنهم متعبدون متلذذون بأنوار عبوديته وذكره وحبه فلا يغفلون عن ذكره وتعظيمه طرفة عين، لزموا بابه فصاروا من جملة أحبابه، فكيف لا يستجيب دعاءهم كرما منه وهم الأدلاء للناس على بابه، الذين يحببون خلقه فيه بعد أن أحبوه، ويرغبون فى ذكره بعد أن ذكروه، ويذكرونهم بحنانه وعطفه بعد أن عرفوه.

فلله در قوم أحبهم فأحبوه، ولاذوا بجنابه الأقدس فأعزهم من ذل وأغناهم من فقر، وتوجهم بتاج وصاله، إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم، تقربوا إليه بخالص العبودية، فقربهم من رضوانه، وأرضى قلوب الخلق عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم].

معنى «عبادى» من وجهة النظر اللغوية

لقد أضيفت لفظة «عباد» إلى ـ «ى» ياء المتكلم التى ترجع إلى الذات العلية، فاكتسب المضاف التشريف من المضاف إليه، ولما كان المضاف لازما للمضاف إليه، لاينفك عنه. فإن العباد الذين يستجيب الله دعاءهم هم الذين لزموا بابه وعكفوا عليه بقلوبهم ذاكرين مطيعين له على الدوام ملئوها بنور الإيمان فلا يغفلون عن ذكره طرفة عين ولا يفارقون بابه بل لزموه تلازم المضاف مع المضاف إليه؛ لأنهم تحققوا بمعنى العبودية الخالصة فأنسوا به واشتاقوا لحضرته والنظر إلى وجهه الكريم ليكونوا من قوم قال فيهم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ... ﴿٢٦﴾﴾ [يونس] فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم فى الجنة وذلك أسمى شىء يصل إليه العبد فى الجنة.

معنى «عبادى» من وجهة نظر تفسيرية:

يقول العلماء المحققون: إن أعظم تفسير للقرآن: هو تفسير القرآن لنفسه؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضا. فَمَنِ المعنيون بقوله سبحانه «عبادى»؟ إنهم عباد الرحمن وهم المتصفون بما ذكر عنهم في سورة الفرقان وبالتالى هم من يستجيب الله دعاءهم يقول الله سبحانه: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا** ﴿٦٣﴾ **وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا** ﴿٦٤﴾ ﴾ [**الفرقان**]. إلخ الآيات التى ذكرت صفات عباد الرحمن فلا يجوز أن نفهم «عبادى» جزافا حتى يندرج تحتها كل من هب ودب من العصاة وأهل الغفلة عن الله، ومن لم تتوافر فيهم صفات عباد الرحمن، بل كان الشيطان يتمركز فى قلوبهم مسرحا ومقيلا، ويسيطر على تحركاتهم وأقوالهم وأفعالهم، فإن فعلوا ما ظاهره العمل الصالح يكون الرياء هو الباعث عليه، والحقد والحسد والغرور والكبر والجفاء والفظاظة والغل من صفاتهم!! فكيف ينطبق عليهم قول الله تعالى: (عبادى) وهم عباد النفس والهوى والشيطان.

إن الله تعالى يبين أن من أخص صفات من تحقق بالعبادة المؤهل لاستجابة دعائه: من قال الله فيه: ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ... ﴿٤٢﴾ ﴾ [**الحجر**].

إن الله تعالى لا يستجيب للغاوين مهما دعوا؛ لأن قلوبهم مريضة عليها أغلفة المعاصى، فالغاوون محل لسيطرة الشيطان عليهم، لكن عباد الله الذين يستجيب دعاءهم ويحقق رجاءهم هم المخلصون، قال الله تعالى حكاية عن إبليس الذى توعد الخلق بإغوائهم عن طريق ربهم وإقصائهم عن الصراط المستقيم صراط من أنعم الله عليهم: حيث قال: ﴿ ... **لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴿٨٢﴾ **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴿٨٣﴾ ﴾ [**ص**].

إذًا القضية الآن وهى قضية إجابة الدعاء لها ثلاثة محاور:

١ - مُخٌ لِصٌ، وهذا لا يستجيب الله دعاءه؛ لأنه من الغاوين مطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب له.

قال ﷺ: «الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يقول: يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب له».

٢ ـ مُخْلِصٌ، وهذا كثيرا ما يستجيب الله دعاءه فإنه قد اجتهد فى إرضاء ربه ومن الله علَيه بالتوفيق، فإذا ما وافق دعاؤُه مراد الله فإنه سبحانه يستجيب له عاجلا أو آجلا أو يدخره فى الآخرة، فهو من أصحاب اليمين وهو غالبا يدعو لنفسه وأهله. لايقصد بعبادته ودعائه إلا وجه الله تعالى. وهذا هو المحب للصالحين؛ لأن الإخلاص سر من أسرار الله يمنحه لأحبابه ومحبى أحبابه.

ففى الحديث القدسى: «الإخلاص سر من أسرارى استودعته قلب من أحببت من عبادى».

٣ ـ مُخْلَص، وهذا قد صنعه الله على عينه، واختاره لجنابه الأقدس، فلا يغيب عن ذكره طرفة عين ولا يراه حيث نهاه ولا يفتقده حيث أمره، إنه يتعب ليريح الناس من معاناتهم، ويسهر داعيا للخلق منصرفا عن نفسه إلى ربه، يصل من قطعه ويعطى من حرمه ويعفو عمن ظلمه، قد فنى عن نفسه وبقى مع ربه، شعاره مناجاته لربه «كفانى فخرا أن تكون لى ربا وكفانى عزا أن أكون لك عبدا».

وهؤلاء المخلَصون هم أولياء الله الذين يستجيب الله دعاءهم دائما فهم عباد الرحمن ومن عناهم الله بقوله: «عبادى» فليس فى قلبهم تعظيم لغير الله ولا حب ولا وجل ولا ود إلا له سبحانه، فهم لا يوفقون إلى الدعاء إلا إذا كانت الإجابة محققة بأمر الله فإذا أراد الله تعالى نفاذ أمر من قضائه المبرم فإنه سبحانه يمسك ألسنتهم عن الدعاء ـ بمعنى أنه تعالى لا يوفقهم إلى الدعاء بل يصرفهم عنه ـ لذا قيل: إذا أراد الله نفاذ أمر أمسك ألسنة أوليائه عن الدعاء لئلا يدعوا فلا يستجاب لهم فيفتضحوا. وهذا ما دعا سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذلك الصحابى الولى أن يقول: إنى لا أحمل هم الإجابة بقدر ما أحمل هم الدعاء».

الحرج الذى أوقع المتشددين الأمة فيه

لا هَمَّ لدعاة الهرج والمرج والتشدد المزرى الذى لا تُجْنَى منه إلا تفرق الأمة وتمزقها وحقدها على بعضها البعض وذلك بالآتى:

١ ـ رمى المحبين لله ولرسوله وأوليائه بالشرك والزندقة.

٢ ـ رمى حكام المسلمين بالكفر والظلم والفسق فى دائرة كفرية لافكاك لها لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله.

قضيتان اخترعهما من اختـرع لضرب وحدة الأمة فى الصميم ورميها بالكفر والزندقة ـ وغالب الظن ـ إن وراء ذلك أصابع أعـداء الإسلام الذين تخصصوا فى الملل والنحل فى الجامعات الأجنبية وغالبيتهم من اليهود وذلك لسببين:

السـبب الأول: أن تمزيق الفكر الدينى العـقائدى يتـرتب عليـه تمزيق الفكر السياسى ليسهل ابتلاع الأمة.

السبب الثانى: هو أن محـاور الفكر واحدة فى كل مدينة وقرية ونجع بل فى كل دولة عـربيـة أو إسلاميـة، بل إن الطرح للقـضـايا واحد والألـفاظ واحـدة والأسلوب واحـد مما يدل على أن هناك مخططا وراء هـذه الترهات، فـقد عـجز أعداء الإسلام عن مواجهته كفكر.

فواجـهوه مـن داخل دائرته من مسلمـين حمـقى، وكم عانى الإسـلام من المتنطعين والحـمقى، ومن طبيعة الأحـمق أن يسعى لينفع فيضـر وهذا ما حكم به الإمام على كـرم الله وجهـه حينمـا أرادوا منه أن يكفر الخـوارج قديما فلـم يقبل وقال: هم قوم أرادوا الحق فأخطئوا طريقه وتعصبوا للخطأ.

وما أشـبه الليلة بالبارحة فـإن الخوارج اليوم ينسـجون على نفس المنوال مع زيادة البصمات الخارجية والإغراءات المادية.

فأما الرمى بالكفر ومحاولة التحاكم إلى القرآن فى قضية الحكم بغير ما أنزل الله.

فيـقتـضينا ذلك أن نرجع إلى قـول الصحـابة رضوان الله عليـهم فى تلك القضية، فهم أعلم الأمة بكتاب الله تعالى وبالإسلام والكفر ولوازمهما، فلا ينبغى إلا أن نتلقى عنهم، امتثالا لإرشاد الرسول ﷺ: «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»؛ لأن المتأخرين لم يفهموا مرادهم، فانقـسموا فريقين: فريقا أخرجوا من الملة من ارتكب الكبائر وقـضوا على أصحابها بالخلود فى النار، وفـريقا جعلوهم مؤمنـين كاملى الإيمـان. ولكن قيض الله لدينه من أهل السنة ذوى القـول الوسط فقالوا بكفرين ونفاقين وشركين وظلمين.

وأقول بعون الله وتوفيقه: نعم هناك كفران: كفر يخرج عن الملة، وكفر هو تهديد واقتـراب من دائرة الكفر المخلد فى النار، ويوجد نفاقان: نفـاق أصغر كمن فيـه صفة من النـفاق حتى يدعـها الكذب ـ الخيـانة ـ خلف الوعد ـ الفـجور فى

الخصومة ونفاق أخطر من الكفر الواضح وهو ممن أظهر الإسلام وأبطن الكفر، ويوجد شركان: أكبر وأصغر وقد بيناهما، ويوجد ظلمان: ظلم عظيم وهو الشرك الأكبر وظلم دونه وهو ظلم الإنسان لغيره أو لنفسه بمعصية أقل من الكفر فالرمى بالكفر جريرة خطيرة كما سبق.

رأى الصحابة فى آيات سورة المائدة

يرى ابن عباس رضى الله عنهما فى آيات سورة المائدة بالنسبة للحكم بغير ما أنزل الله الآتى:

ففى قوله تعالى: ﴿ ... **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴿٤٤﴾ ﴾ [**المائدة**] قال رضى الله عنه:

«ليس هو الكفر الذى تذهبون إليه» رواه عنه سفيان بن عيينة وعبد الرزاق، وفى رواية أخرى: «كفر لا ينقل عن الملة» وعن عطاء بن رباح هو «كفر دون كفر وظلم دون ظلم» فى قوله سبحانه: ﴿ ... **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴿٤٧﴾ ﴾ [**المائدة**] وهو: فسق دون فسق فى قوله تعالى: ﴿ ... **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴿٤٧﴾ ﴾ [**المائدة**]. وهذا أمر واضح فى القرآن لمن تأمله. فإن الله تعالى سماهم فى القرآن بذلك للتحذير والتخويف من باب المشاكله اللفظية على حد قوله تعالى: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [**الشورى**] فقد سمى الرد على فعل السيئة بأنه سيئة لأنه ربما يكون بأكثر منها فيكون ظالما معتديا فذلك من باب التخويف والتحذير مثل عقوبة لفت النظر فى القانون.

وكذلك مثل قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴿١٢٦﴾ ﴾ [**النحل**].

فقد سمى الله تعالى الرد: عقوبة للمشاكلة اللفظية والتنبيه على أن الصبر أفضل.

ومثل قوله تعالى: ﴿ ... **فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ... ﴿١٩٤﴾ ﴾ [**البقرة**]:

فقد سمى الله سبحانه: (الرد على الاعتداء بالاعتداء) للتنبيه على مواقع الخطر لكيلا يتمادى فى الرد فيكون عدوانا حقيقيا.

المعانى المشتركة بين كفر الكفر وكفر الظلم وكفر الفسق الواردة فى القرآن الكريم والظلم الذى ليس ظلما فيه.

لقد سمى الله تعالى الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا مع أنه ليس بكافر الكفر المعروف.

وسمى الله الجاحد لما أنزل الله على رسوله ﷺ كافرا وذلك هو الكفر المعروف بعينه. الذى يخلد فى النار.

وسمى الكافر ظالما فى قوله: ﴿ ... **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [**البقرة**] وهذا كفر مقصود ومعروف. والظلم هنا عظيم؛ لأن الإنسان بكفره هذا فقد ظلم نفسه ظلما بينا؛ لأنه يودى بها فى جهنم خالدا مخلدا إلى أبد الآبدين.

وسمى مَنْ يتعدى حدود الله تعالى فى النكاح والطلاق والرجعة والخلع ظالما حينما قال: ﴿ ... **وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ** ... ﴿١﴾ ﴾ [**الطلاق**] وقال يونس النبى عليه السلام: ﴿ ... **إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴿٨٧﴾ ﴾ [**الأنبياء**].

وقال آدم عليه السلام: ﴿ ... **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا** ... ﴿٢٣﴾ ﴾ [**الأعراف**] وقال موسى عليه السلام: ﴿ ... **رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي** ... ﴿١٦﴾ ﴾ [**القصص**] وليس هذا الظلم الذى قال به الأنبياء مثل ذلك الظلم المعروف.

ولقد سمى الله تعالى الكافر فاسقا فى قوله تعالى: ﴿ ... **وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ** ﴿٢٦﴾ ﴾ [**البقرة**] وقوله سبحانه: ﴿ ... **وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ** ﴿٩٩﴾ ﴾ [**البقرة**] وسمى العاصى فاسقا فى قوله تعالى: ﴿ ... **إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا** ... ﴿٦﴾ ﴾ [**الحجرات**].

وقال فى الذين يرمون المحصنات: ﴿ ... **وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴿٤﴾ ﴾ [**النور**] وقال: ﴿ ... **فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**... ﴿١٩٧﴾ ﴾ [**البقرة**] وليس الفسوق فى هذه الآيات كالفسوق المعروف)[1]، وإنما تعرضنا لبيان ذلك هنا؛ للرد على من يطلقون «الكفر» جزافا، على أهل القبلة بلا داع، ويَصِمُونَ خواص الأمة بالشرك الأكبر دون مبرر ولا خوف من الله.

---

(١) إرشاد الطالب إلى أهم المطالب ص٦، ٧ بتصرف.

أنواع الشرك الأكبر:

١ ـ الشرك الاستقلالى وهو: إثبات إلهين مستقلين كشرك المجوس.

وإثبات ثلاثة آلهة مستقلين كشرك البوذيين فإنهم يعتقدون بوجود ثلاثة آلهة مستقلين: أ ـ إله للخلق ب ـ إله للموت جـ ـ إله للرزق

٢ ـ الشرك التركيبى وهو تركيب إله من عدة آلهة يتكون منها وهو كشرك النصارى المبنى على الأقانيم الثلاثة: ابن + آب + روح القدس= إله واحد.

٣ ـ الشرك المقرب إلى الإله، وهو: عبادة غير الله تعالى؛ ليقرب إلى الله زلفى كشرك الجاهليين. وهذا الشرك الأخير هو الذى يرمى به خوارج عصرنا الموحدين من أهل الإسلام الصافى النقى الذين يطلبون من الله «مقام الإحسان» ليتم الدين من إسلام وإيمان وإحسان. فإذا لم يفتح عليهم به فهم يحبون أهل مقام الإحسان ليتعلموا منهم قصد وجه الله وليكونوا مسلمين كاملين ومؤمنين حقا على هدى سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم مع أن حال مشركى الجاهلية لا يتفق بوجه من الوجوه مع المسلمين المتوسلين بالأنبياء والصالحين، فمشركو الجاهلية قد اتخذوا الأصنام آلهة وسجدوا لها من دون الله لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تنفع وتضر بنفسها فعبدوها واعتقدوا أحقيتها ذلك فلما أقيمت عليهم الحجة بأنها لاتنفع ولا تضر، قالوا: ﴿ ... **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ** ... ③ ﴾ [الزمر].

وإنى أوجه سؤالا محرجا لخصوم الأولياء والتصوف المحاربين للتوسل والوسيلة وهو:

ما رأيهم فى توسل سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع جمع من الصحابة العلماء العدول وما رأيهم فى المتوسل به وهو: سيدنا العباس بن عبدالمطلب عم النبى ﷺ؟ وما رأيهم فى إيمان هؤلاء وإسلامهم؟!! أظن أن موقف المانعين للوسيلة حرج للغاية، إذًا فعليهم بالرجوع إلى حظيرة إسلام السلف الصالح والتوبة إن كانوا يريدون وجه الله والآخرة وأن يَدَعُوا التسلف المقيت والتعصب لنحل خارجية قد تكون أصلا من دسائس أعداء الإسلام[1]!!

والله تعالى يوفق الأمة لما فيه رضاه.

---

(١) طريق الله فى التصوف جـ٢ باب الوسيلة للعارف بالله تعالى أستاذنا الشيخ أحمد الشافعى أبى خليل.

دحض فرية عدم اتخاذ وسيط بينك وبين الله:

إذا قال من لا يجيز التوسل: إن المتوسل يجعل بينه وبين الله تعالى واسطة فى مسألته وذلك لا يجوز. قلنا له:

أولا: نحن نعتقد ككل المسلمين بأن المحرك المسكن فى الكون هو الله وحده، والنافع الضار هو الله وحده، وإنه سبحانه هو المهيمن على كل شىء والمالك لكل شىء امتلاكا وتصرفا، ولكن جرت حكمته الأزلية على أن يوجد لكل شىء سببا، فالله تعالى الذى يقول: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ...** ﴿٢٢﴾﴾ [**يونس**] هو الذى يقول: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ...** ﴿١١﴾﴾ [**الأنعام**].

والله تعالى الذى يقول: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ** ﴿٢٢﴾﴾ [**الذاريات**] هو الذى يقول: ﴿... **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴿١٥﴾﴾ [**الملك**].

والرسول ﷺ الذى قال: «لا عدوى ولا طيرة» هو الذى قال: «فر من المجذوم فرارك من الأسد».

وحينما سأل النبى ﷺ الأعرابى عن ناقته قال: أطلقتها يا رسول الله وتوكلت على الله، فقال له: «اعقلها ثم توكل».

إذًا لابد من أخذ الأسباب كسنن كونى، فمن حارب الأسباب فهو يحارب طبيعة كون الله وهذا ضرب من الخيال لا يعول عليه.

ثانيا: من الذى قال: إن الواسطة إشراك بالله تعالى؟ فكيف تكون كذلك والله تعالى قد أقام الدنيا والآخرة على ناموسها، أما فى الآخرة فحسبك فزع الناس إلى الأنبياء وتوسيطهم لهم بينهم وبين الله فى الشفاعة - وسيأتى ذلك فى حينه.

وأما فى الدنيا: فقد جعل سبحانه وتعالى الأنبياء وسطاء بينه وبين خلقه فى هدايتهم وجعل الأغنياء وسطاء بينه وبين عباده الفقراء يعطونهم رزقهم وحاجة معاشهم.

وجعل الأطباء وسطاء بينه وبين المرضى، حيث يتسببون فى دفع الأمراض عنهم وإعادة الصحة إليهم، وجعل الطعام وسيطا بينه وبين الأحياء، فبه يدفعون الجوع عن أنفسهم ويجلبون الشبع، وقل مثل ذلك فى الماء وفى اللبس وفى النوم

الجوع عن أنفسهم ويجلبون الشبع، وقل مثل ذلك فى الماء وفى اللبس وفى النوم وفى النكاح وفى مراكب الماء، وفى السعى على الأرزاق، فإنه لولا الماء لمتنا ظمأ، ولولا اللباس لمتنا من البرد والحر، ولولا النوم لمتنا تعبا، ولولا النكاح لما رأينا الأولاد، ولولا السفن والمراكب لغرقنا فى البحر إذا اقتحمناه، ولولا السعى ما رأينا الأرزاق، فقد ضرب الخليفة العادل الرجل الفارغ من العمل والمستطيع الكسب بِدُرَّته وقال: إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة.

وهكذا كل هذا الوجود مبنى على الوسائط، فلولاها ما فعل ربنا لنا شيئا من حاجاتنا بحسب عادته التى أجراها فى خلقه.

بل إنه فى يوم القيامة لا يدخل الجنة أحد ولا يدخل النار إنس ولا جن إلا بواسطة «الأعمال» ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨**﴾ [الزلزلة]. ﴿**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ۝١٠٤**﴾ [المؤمنون].

فمن أنكر من ذلك شيئا فإنه يهذى بما لا يدرى، ومثل هذا لا يقام لكلامه وزن ولا ينبغى أن يلتفت إليه، فإذا كان من يتوسل بأحباب الله إليه ويجعلهم وسائط كافرا كان من يتخذ هذه الوسائط فى أمور حياته كافرا وبذلك نكون قد كفرنا الدنيا كلها!!

فماذا فى التوسيط بالتوسل الذى جعله الله سببا فى قضاء الحوائج لعباده وقد أمره به وعَمَلُ الرسول ﷺ والصحابة والمسلمين قديما وحديثا يدل على عدم منعه، فقد روى الإمام أحمد فى مسنده وابن خزيمة فى صحيحه وابن نعيم فى عمل اليوم والليلة، والبيهقى - فى كتاب الدعوات - والطبرانى فى كتاب الدعاء وابن السنى وابن ماجه من أنه ﷺ قد توسل، وعلَّمنا أن نتوسل بحق السائلين على ربنا إذا نحن خرجنا إلى المساجد، ولفظ الدعاء: «اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاى هذا إليك.. إلى آخر الحديث». فها هو ﷺ يتوسل - وهو رسول الله - بحق السائلين على ربه، ويدعو كل مؤمن إلى التوسل بهذا الحق الذى جعله ربنا عز وجل للسائلين عليه تفضلا منه وإحسانا كما كتب على نفسه الرحمة، وكما جعل وأوجب على نفسه رزق كل دابة وكما جعل على نفسه أجر من عفا وأصلح.

فالسائلون هم: الذين عرفوا أنه تعالى هو الذى بيده وجوه الخير وليس ذلك لغيره.

فأعرضوا عما سواه وقصروا عليه تعالى سؤالهم عما يحتاجون إليه دقَّ ذلك أو جَلَّ.

فهؤلاء السائلون لهم وجاهتهم عند ربهم بأن جعل الله لهم حق ما يسألون وفوق ما يسألون لمكانتهم السامية عنده تعالى.

زيارة القبور

إن منع المسلمين والمسلمات من زيارة القبور لهو جهل بالسنة المحمدية وجهل بمذاهب المسلمين وبروح التشريع الإسلامى، فالزيارة جائزة بل هى سنة مؤكدة وقد تكون واجبة إن عالجت قلبا قاسيا، وبيان حكمها كالآتى:

١ ـ زيارة الرسول ﷺ للقبور

روى مسلم فى صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أنه ﷺ أخبرها أن جبريل جاءه، فقال له: إن ربك يأمرك أن تأتى أهل البقيع فتستغفر لهم، وأنه ﷺ جاء البقيع فقام وأطال القيام ثم رفع يديه ثلاث مرات، وأنها رضى الله عنها قالت له: كيف أقول لهم؟ فقال: «قولى السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون».

وروى مسلم أيضا عن السيدة عائشة رضى الله عنها: أن زيارة البقيع كانت عادة النبى ﷺ وهذا لفظها: «كان رسول الله ﷺ كلما كانت ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين وآتاكم ما توعدون غدا مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل البقيع الغرقد».

٢ ـ زيارة المؤمنين للقبور فى عهده ﷺ:

وأما زيارة المؤمنين فى عهده ﷺ وتعليمه لهم كيف يزورون، فقد روى البخارى ومسلم حديث المرأة التى كانت تزور قبر صبى لها وتبكى، فلم ينهها ﷺ عن زيارتها، وإنما قال لها: «اتقى الله واصبرى» وقال لها: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى».

وروى مسلم أنه ﷺ كان يعلم الصحابة إذا خرجوا إلى المقابر ليقول قائلهم: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات وإنا إن شاء الله بكم لاحقون أسأل الله لنا ولكم العافية».

إن النهى عن الزيارة كان فى صدر الإسلام فقط والناس قريبو عهد بالجاهلية، ثم نسخ ذلك وشرعت فكانت سنة مؤكدة ولاسيما زيارة سيد الأنام ﷺ التى قد تتعدى إلى الفريضة؛ لأن تركها جفاء وعدمُ وفاء للنبى ﷺ وحرمان من شفاعته يوم لقاء الله عز وجل وذلك لمن استطاع ولم يزر حبيب الله ﷺ.

نعم نُسِخَ مَنْعُ زيارة القبور بفعله وقوله ﷺ.

أما فعله ـ فقد مر بنا الآن، وأما قوله، فقد روى مسلم وغيره أنه ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكركم بالآخرة».

مع أنه من فائدة زيارة القبور: أنها تلين القلوب القاسية، وتنصر الإنسان العاصى على نفسه، فيقدم التوبة قبل فوات الفرصة وانتهاء الأجل.

فقد قال ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها ترق القلب وتدمع العين وتذكر بالآخرة فزوروها ولا تقولوا هجرا» رواه البيهقى.

والهجر: القطيعة عن الله بقول محرم، فقد قال ﷺ: «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية».

فإذا ذهبت النساء وولولن وصحْنَ وبدرت منهن دعوى الجاهلية مثل: تركتنا لمن؟ ومن لنا بعدك؟!! فهذا جزع يتنافى مع الإسلام، ويلعن الله من قام به:

فقد روى الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم أن رسول الله ﷺ قال:

«لعن الله زوارات القبور».

الجلوس على القبور

لقد ظهرت آفات سلوكية أثناء زيارة القبور منها اختلاط الرجال بالنساء فى الطرقات وعلى المقابر اختلاطا لا يقره شرع ولا عقل ولا دين، حيث يأكلون ويشربون وينامون ويتبرزون ويفعلون ما يستحى القلم من كتابته، وبذلك ضاعت فرصة العظة والاعتبار بمن سبقنا إلى ربه فازدادت القلوب قساوة والنفسى ضراوة، فالزيارة المشوبة بهذه المنكرات، والتى تكون على مرأى ومسمع ممن أفضوا إلى

ربهم دونما حياء وقد جلسنا على قبورهم مـتهتكين غافلين - فلتنتظر ذلك الوعيد، فقد روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال:

«لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير من أن يجلس على قبر» فالنهى وارد لمن أساء الجلوس بقهقـهة وغيبة أو اختلاط مشين أو ترك فضلات أو عبث وضلال.

وأما الجلوس مع الاحتشام والأدب وأخذ العبرة حتى تُسْكَبَ العبرة فلا شيء فيه بل هو عين المطلوب من الزيارة «فإنها تذكركم بالآخرة».

لقد روى الإمام مالك فى مـوطئه أن سيدنا عليا كرم الله وجهـه كان يتوسد القبور ويضطجع عليها، ومعروف من هو سيدنا على علما والتزاما وخلقا ودينا.

وروى البخـارى فى صحيـحه عن سيـدنا خارجة بن زيـد أنه قال: «رأيتنا ونحن شبـان فى زمن عثـمان رضى الله تعـالى عنه وإن أشدنا هو الذى يثب قـبر عثمان بن مظعون رضى الله عنه حتى يجاوزه فقـد كان قبرا مرتفعا بأمر النبى ﷺ فقد جعل عليه حجرا كبيرا وقال: «أتذكر به قبر أخى».

وقال عثمان بن حكيم: أخذ «خارجـة بن زيد بيدى فأجلسنى على قبر عمه وأخبرنى بأن عمه يزيد بن ثابت قـال: إنما كُرِهَ ذلك الجلوس على القبر لمن أحدث عليه».

وعن نافع أن عمر رضى الله عنه كان يجلس على القبور».

وهذه الروايات موجودة فى صحيح البخارى رحمه الله.

فالصحـابة رضى الله عنهم كانوا يفهمون أن النهـى عن الجلوس على القبور كان مُقَيَّدا بجلوس على هيئة غير مشروعة.

بل ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه جلس بنفسه على القبور:

فقـد روى سيـدنا أنس رضى الله عنه أنه قال: شـهدنا دفن بـنت رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ جالس على القبر. الحديث».

وروى الطبرانى فى الكبير والأوسط: جلوس رسول الله ﷺ على قبر «سعد ابن معاذ» وذلك يوم دُفِن.

وروى الطحاوى بسند صحيح عن سـيدنا زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه أنه قال: «إنما نهى النبى ﷺ عن الجلوس على القبور لحدث غائط أو بول».

وبعد:

فـلا يليق بأحد من أهل الملة أن يـشذ عن هذا الهـدى النبوى ويُحـرِّم زيارة القبور سواء أكانت قبور أولياء أم مسلمين عاديين، فقد رأينا رسولنا ﷺ وهو إمام الجميع ومشـرع دين الله تعالى: قد زار القبور، بل وعلم أصحـابه كيف يزورونها فى أى وقت شاءوا، وزار أصـحابه فى حياته بـنفسه، وأمر أن يرفع قـبر أول من مات فى الإسلام وهو «عـثمان بن مظعون» بأن يوضع حجر كـبير على مكان دفنه وقال: «لأتذكر قبـر أخى» وتبعه على ذلك كل الأمة سلفا وخلفـا من عهدهم إلى يومنا هذا. وهذه كـتب العلماء الأجـلاء التى روت السنة الشريـفة وكذلك كـتب الفقهاء أئمة الأمة من الأحناف والمالكية والشافـعية والحنابلة بمشروعية زيارة القبور وآدابها. وقد ثبت أن الميت فى قبره يأتنس بزائره ويعرفه وتصله هديته من قراءة أو دعاء أو صدقة، فما بالك إذا كان صـاحب القبر هو النبى ﷺ أو أحد أحفاده من الأولياء الصالحين وأهديته بقراءة أو تصدقت على روحه أو دعوت له بعلو الدرجة إذًا سيكـون الرد على الهدية بأحـسن منها والذى سيتـولى رد التحيـة هو أحكم الحاكمـين وذلك بقضاء حاجـتك أو شفاء مرضك أو المغـفرة لزلتك فهو سـبحانه القائل: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ... ﴿٨٦﴾ ﴾ [النساء]. وإذا كان المنعم الوهاب سـبحانه هو الذى سيتـولى الرد على أحبابه الذين قـد اختارهم لجواره، فـقل فى ذلك ما شـئت فإنه مما لا عـين رأت ولا أذن سمـعت ولا خطر على قلب بشر، بل وأكثـر من ذلك رضاء الله عليك لأن حبيب الحبـيب حبيب، وآية حب الله لك الذى مُنْحْتَهَ بسبب الزيارة هو ما تشعر به من حلاوة الإيمان فى قلبك والرضا النفسى الذىَ حَلَّ بساحتك والبهجة والسرور الذين يحيطان بكيانك، وهذا ما يـجعل الزائرين يعـاودون الكرة تلو الكرة، غيـر عابئـين بالعابثـين ومن يُحرمون ولوج أبواب السعادة دون دليل، إلا إذا كان التلفيق ووضع النصوص رصا فى غير مواضعها، فاللهم لا تحرمنا التوفيق واجعلنا وأحبابنا من أهل التحقيق.

حديث شد الرحال

وأمـا حديث: «لا تشـد الرحـال إلا إلى ثلاثة مـساجـد: المسـجد الحـرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى».

فكم ظلم هذا الحـديث ووضع فى غـيـر مـا ورد وسِيق من أجله، مع أن الموقف جد وليس بالهزل، إنه وحى الله تعالى إلى خلقه بتشريع أحكامه.

فلا يجوز شرح وحى الله تعالى بالهوى والمزاجية بما لا يتفق ومنطوق الحديث ولا مفهومه؛ لأن هذا يعتبر شذوذا أو خروجا عن دائرة الوحى، والتشريع بغير شرع الله، فمن استمرأ ذلك ولم يتب يخشى عليه من سلب الإيمان وتلظيه بسعير النيران، قال ﷺ: «من شذ شُذَّ فى النار» وقال ﷺ: «من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية».

فقد رأينا فى مبحث زيارة القبور: مشروعيتها وإجماع الأمة سلفا وخلفا على هذه المشروعية التى بدأ مسيرتها النبى ﷺ وآله وأصحابه، وهذا التشريع عام لكافة القبور، سواء أكانت قبور أناس قد شهد لهم بالصلاح والورع والتقوى حتى اتخذوا من أهل القدوة، أم كانوا مسلمين عاديين، وسواء أكان القبر فى دائرة مقبرة جماعية، أم كان منفردا، وسواء أضربت عليه قبة كهيئة قبور العارفين، وقبر سيدنا رسول الله ﷺ أم لا، وسواء أكان فى داخل مسجد للصلاة أم خارج المسجد، وسواء أكان القبر فى ناحية القبلة أم ليس فى جهتها؛ لأن تحريم ذلك تشريع بغير دليل، فحديث تحريم زيارة القبور كان فى مبدأ الإسلام والناس قريبو عهد بالسجود للأصنام، والإسلام دين سيال، ينساب رقراقا متدرجا فى القلوب، فإذا استكن استقر وثبت وانعقد القلب فصار عقيدة وإيمانا راسخا، تتزلزل الجبال ولا يتزلزل وتدلهم الأمور حول الإنسان وما يزداد الإيمان إلا رسوخا وثباتا، فينضح عملا صالحا يسعد البشر من حوله ويعود بطمأنينة ونور إلى القلب مرة الثانية كحركة الدورة الدموية منها وإليها، وكحركة الجهاز التنفسى شهيقا وزفيرا وهكذا دواليك، وكحركة النظام النقدى الذى يدور دورته من قمة إلى قاعدة ومنها إلى القمة، وما أضيف إلا نعم الله فى المطعم والمشرب والملبس والمسكن والحركة... إلخ» فهذا هو الجديد فى لعبة الزمن ودورانه فى عجلة الحياة إنه باختصار شديد «فضل الله على خلقه» ومن هذا الفضل بل وعلى قمته «نتح» قطرات الهداية وأشعتها من القلب على الجوارح والأعضاء، فينصرف كل عضو فيما خُلق لأجله، قال ﷺ - كما ورد فى الصحيح - «ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب» وقديما قالوا: «ما فيك يظهر على فيك».

ولنأت إلى حديث «شد الرحال» الذى ظُلِمَ فعلا، وكم فُرِّقَ شملُ الأمة بسبب الفهم الخاطئ له، وكم ثار حوله جدل عقيم أفسد قلوب المسلمين، وأوقفها

عن السير فى طريق رضاء الله سبحانه، وذلك بسبب العداء والخصومة التى أثارها من لا يفهم الحديث إلا تلقينا من جاهل أخرق أو عدو مختف متحفز لا يريد للمسلمين إلا الدس والوقيعة وعدم صعود الدعاء والعبادة إلى السماء، فقد قال ﷺ: «ثلاثة لاترفع صلاتهم فوق رءوسهم شبرا: أخوان متصارمان. . . الحديث» فأول من ترد عليه صلاته فلا تقبل ولا ترفع إلى السماء بل تكون إسقاطا للفريضة فقط، : هما أخوان يدينان بالإسلام لكن العداء فى قلبيهما وبذلك ينجح أعداء الأمة فى القضاء على الأثر الإيجابى للعبادة والدعاء والدعوة إلى الله. فلقد تحول الهدى النبوى الذى يدعو إليه الحديث وهو:

مضاعفة الثواب لمن صلى فى المسجد الأقصى على أساس أن: ثواب الركعة بخمسمائة فى غيره، وثواب الركعة فى المسجد النبوى بألف ركعة فى غيره، وثواب الركعة فى المسجد الحرام بمائة ألف ركعة فى غيره.

الحديث والزيارة

إن هدف الحديث الشريف الذى من أجله قد سيق هو: بيان فضل الصلاة فى هذه المساجد وزيادة الثواب فيها، حتى ولو شدت إليها الرحال، كماتشد الرحال إلى التجارة بقصد كسب المال، فهذه تجارة مع الله سبحانه بقصد استثمار الصلاة فيها لمضاعفة الثواب كما هو معروف.

ولكن أى مسجد غير الثلاثة فثواب الركعة بركعة فما فائدة التأهب للسفر والغربة ومفارقة الأوطان وشد الرحال للصلاة فى مسجد غير الثلاثة.

وأما شد الرحال بقصد الزيارة أو صلة الرحم، سواء أكانت رحم المسلم الزائر، أم هى رحم النبى ﷺ، وسواء أكانت تلك الرحم فى عداد الأحياء أم المنتقلين، فإن النبى ﷺ قال: «حسين منى وأنا من حسين أحب الله من أحب حسينا» فليس الحب قاصرا على حياة الإنسان فى الدنيا فقط فإن الحب عطاء مستمر، فإذا كان لله دام واتصل وإن كان لغرض فَان انقطع وانفصل، وقد رأينا مما سبق أن الميت يرى زائره ويأتنس به كما كان فى الدنيا ويرد عليه تحيته ولو كانت السلام، ويؤمن على دعائه إن كان رجلا صالحا غير مشغول بنفسه. وقد بلور ذلك الرسول ﷺ ليفتح الباب للزيارة ولكأنه يرى بنور النبوة ما يحدثه أهل الجدل والعشى القلبى من أن شد الرحال إلى مسجده عليه السلام للصلاة فيها، فيرد

عليهم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا فيقول ﷺ: «من زار قبرى وجبت له شفاعتى» رواه الدار قطنى والبيهقى وغيرهما.

وقد قال ﷺ: «من جاءنى زائرا لا يعمله حاجة إلا زيارتى كان حقا على أن أكون شفيعا له يوم القيامة» رواه الطبرانى فى معجمه الكبير والدار قطنى فى أماليه وابن المقرى فى معجمه وصححه سعيد بن السكن.

وقد قـال ﷺ: «من حج فزار قبـرى بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حـياتى». رواه الدار قطنى فى سننه وروى من غير طريقه.

وروى البـغوى بسنده عن ليث عن مـجاهد عن ابن عـمر رضى الله تعـالى عنهما قال: قـال رسول الله ﷺ: «من حج فزار قبرى بعد مـوتى كان كمن زارنى فى حياتى وصحبنى».

وروى ابن عدى فى الكامل قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج ولم يزرنى فقد جفانى» وغير ذلك كثير، ومنها مـا ورد فى عشر طرق كلها صحيحة فيعجب المسلم ويحار حينما يسمع أن هناك من هذه الأمة من يقول:

إن مشروعية شد الرحال إلى مسـجد الرسول ﷺ إنما هى للصلاة فيها فقط وليس للزيارة فمن أين أتى بهذا القيد؟ ولمصلحة من ذلك؟ وكيف يتحمل مسئولية التشريع بغير شرع الله؟!!

ثم يأتى ليحرم شد الرحال إلى مساجد غـير الثلاثة مساجد المعروفة؛ وذلك ليحرم الصلاة فى مـساجد فيها قبور الصـالحين ومزاراتهم ويحرم الزيارة وذلك لا يعتمد على دليل واضح من كتاب أو سنة.

بل إن حديث شد الرحال لا يشم منه ذلك الـتحريم للزيارة، لا من منطوقه ولا من مفـهومه. إن الحديث لا يهـدف إلا لشىء واحد - كما ذكـرنا - هو فضل الصلاة فى هذه المساجد الثلاثة ومضاعفة ثوابها فقط.

والدليل على ذلك نص الحديث نفسه.

فقد قال ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد. . . الحديث» فنرى أن أسلوب الحديث لغويا هو ما يسمى بأسلوب الاستثناء.

وأسلوب الاستثناء يبنى من ثلاثة أشياء: مستثنى منه وهو ما قبل أداة الاستثناء وأداة الاستثناء والمستثنى وهو ما بعد الأداة ـ فأسلوب الحديث قد أتى على نسق الكلام البليغ بالإيجاز الذى عرف به من أوتى جوامع الكلم ﷺ لأنه استثناء مفرغ فلم يذكر من أسلوب الاستثناء إلا أداة الاستثناء «إلا» والمستثنى «ثلاثة مساجد» ولكن المستثنى منه غير موجود، فباستطاعتنا أن نقدره وفقا للاستثناء المتصل الذى يشترط فيه أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، فإذا كان المستثنى «ثلاثة مساجد» فإنه المستثنى منه هو «مساجد» ويكون الحديث على ذلك: «لا تشد الرحال إلى مساجد إلا إلى ثلاثة مساجد... الحديث» فأين تحريم زيارة الأولياء من منطوق الحديث أو مفهومه؟!! وأين تحريم الصلاة فى مساجد فيها قبور ومزارات؟ إن ذلك الهراء لا يحتمله منطوق الحديث ولا مفهومه، فليتق الله هؤلاء فى دين الله، ولا يكونوا كالببغاوات التى تهرف بما لا تعرف ولا تملك إلا الألفاظ التى تُمْلَى عليهم!! دون الرجوع إلى عقل سليم أو رأى سديد أو اطلاع على ما قاله الشرع الشريف وعمل به سلفنا الصالح وليس المتسلف الذى يركب رأسه ويحرك وفق أهواء من يحركونه ويظن أنه «حر» وما هو بحر إنه ينفذ حرفيا ما يملى عليه ويقرأ فقط ما حددت له قراءته مهما كان خطورته على وحدة الأمة وتمزيق شملها، إنهم أرجعوا هؤلاء إلى عصر «النخاسين» فأين هذا الوباء الفكرى من حرية المعتقد الذى تضفيه عقيدة «لا إله إلا الله» أى لا خالق ولا رازق ولا نافع ولا ضار ولا مهيمن ولا مسيطر ولا محيى ولا مميت إلا الله وحده لا شريك له. فكيف يسمح المسلم الذى لا رقيب عليه إلا الله بأن يكون حلقة فى سلسلة يحكم قبضتها دعاة السوء وعباد المال والجاه، ليكون تابعا لكوادر الإذلال التى ليس فى جعبتها إلا ألفاظ ترتفع فى أمواج الأثير هى صياح ونقد وتجريح وتكفير لخاصة المسلمين وعامتهم بعصا الإرهاب الفكرى الذى نجحت كنانة الله أخيرا فى تبديده، والإجهاز عليه، لكنا بعون الله تعالى نحاول إزالة ما تبقى فى العقول من آثار العدوان السابق عليها والله من وراء القصد.

ولكى يستفيد كل مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها؛ لأن هذه الفتن قد انتشرت فى سائر أرجاء المعمورة وباسم الدعوة والجهاد وتحكيم كتاب الله: ينقضون

عرى الإسلام عروة عروة لأنهم - أى القاعدة - لا يفكرون فيما يقولون ولا يسمح لهم سادتهم بقراءة غير ما يملى عليهم أن يقرأوه وحسبنا الله ونعم الوكيل!!

حديث «لا تجعلوا قبرى عيدا ولا تتخذوا بيوتكم قبورا وصلوا علىَّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغنى» رواه عبدالرزاق فى مصنفه بسنده إلى الحسن بن الحسن ابن على كرم الله وجهه أنه رأى قوما عند القبر فنهاهم وقال: إن النبى ﷺ قال... فذكر الحديث السابق» فأما قوله ﷺ: «لا تجعلوا قبرى عيدا»، فرواه أبوداود السجستانى وفى سنده عبدالله بن نافع الصائغ روى له الأربعة ومسلم، قال البخارى: تعرف حفظه وتنكر، وقال أحمد بن حنبل: لم يكن صاحب حديث: كان ضعيفا فيه، وقال أبو حاتم الرازى: ليس بالحافظ هو: لين تعرف حفظه وتنكر، ووثقه يحيى بن معين وقال أبو زرعة: لابأس به.

وقال ابن عدى: روى عن مالك غرائب، فإن لم يثبت هذا الحديث فلا كلام فيه ولكن إن ثبت وهو الأقرب فقد قال الشيخ زكى الدين المنذرى: يحتمل أن يكون المراد به الحث على كثرة زيارة قبره ﷺ وألا يهمل حتى لا يزار إلا فى بعض الأوقات كالعيد الذى لا يأتى فى العام إلا مرتين.

قال: ويؤيد هذا التأويل: ما جاء فى الحديث نفسه «لا تجعلوا بيوتكم قبورا أى لا تتركوا الصلاة فى بيوتكم حتى تجعلوها كالقبور التى لا يصلى فيها»[1].

قلت: ويحتمل أن يكون المراد: لا تتخذوا له وقتا مخصوصا لا تكون الزيارة إلا فيه كما ترى كثيرا من المشاهد لزيارتها فى يوم معين كالعيد.

ولكن زيارة قبره ﷺ لا ينبغى أن تكون فى يوم بعينه بل فى أى يوم كان.

ويحتمل أيضا: أن يراد أن يجعل كالعيد فى العكوف عليه وإظهار الزينة والاجتماع وغير ذلك مما يعمل فى الأعياد بل لا يؤتى إلا للزيارة والسلام والدعاء ثم ينصرف عنه. والله أعلم بمراد نبيه ﷺ.

إذًا بعد تلك الآراء التى قيلت حول هذا الحديث الشريف لم نر تحريما للزيارة ولا للصلاة فى الروضة الشريفة وعند القبر الشريف فبطل استدلال المتشددين من خوارج الأمة به على ذلك.

---

(١) شفاء السقام لتقى الدين السبكى ص٧٩، ٨٠.

حديث «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

يستدل بهذا الحديث هؤلاء المخالفون لأحباب الله، الذين لا يرغبون إلا فى الجدل وإثبات ذواتهم بمخالفة أهل الحق، حيث يستدلون به على:

١ ـ تحريم الصلاة فى المساجد التى فيها قبور الصالحين.

٢ ـ تحريم زيارة الأضرحة واعتبار ذلك شركا وخروجا عن الملة والعياذ بالله.

٣ ـ لعن من يتخذ مسجدا على القبر وإلحاقه باليهود والنصارى.

ولتفنيد ما ذهب إليه هؤلاء فإنه يعرض الآتى:

أولا: لابد من معرفة سبب ورود الحديث حتى نعيش فى جوه الحقيقى.

سبب ورود الحديث: أن الصحابة رضوان الله عليهم الذين سافروا إلى الحبشة قد وجدوا أن الأحباش يهتمون بقبور صالحيهم فيزخرفونها ويبنونها بناء محكما قد رفعت أعمدته وزهت ألوانه، ورسمت صور أصحاب القبور بشكل كبير يوحى بتعظيمهم لهم بل وسجودهم للقبر أو للصورة التى على باب القبر وهى بحجم المتوفى الذى تخيلوا صورته.

بدليل قوله ﷺ: لما أخبر بكنيسة بأرض الحبشة فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا فيه ـ أى فى المسجد ـ تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله».

ثانيا: إن اللعن فى الحديث وارد على اليهود والنصارى وليس فيه للمسلمين شىء.

ثالثا: إن العلة فى اللعن غير موجودة عند المسلمين لما يأتى:

١ ـ إن اليهود والنصارى قد خالفوا فى العقيدة، فسجدوا للقبر من دون الله تعالى أو سجدوا للصورة التى تخيلوها لصلحائهم، والمسلمون فى زيارتهم لصلحائهم لا يسجدون إلا للواحد القهار لا لساكن القبر ولا لصورته بل إنه لا توجد صورة على قبره أصلا.

٢ ـ إن اليهود والنصارى، قد خالفوا شريعتهم فى مكان العبادة؛ لأن جميع الديانات والرسل قبل الإسلام كانت توجد لهم أماكن خاصة للعبادة والصلاة فلا

تجوز الصلاة فى غير البيعة أو الدير أو الكنيسة، فلا تصح فى بيوتهم ولا فى الشارع ولا فى مكان العمل، فقد ترك اليهود والنصارى مكان العبادة المخصص لهم فى شريعتهم وصلوا عند قبور صلحائهم، وليس كذلك المسلمون فإنه من خصائص هذه الأمة أن جعل الله لنبيها ولها الأرض كلها مسجدا وتربتها طهورا، قال ﷺ: «جعلت لى الأرض مسجدا وتربتها طهورا فحيثما عبد أدركته الصلاة فى مكان فليصل فيه».

إذًا يجوز للمسلم أن يصلى فى أى مكان فى الأرض، سواء أكان مخصصا للعبادة أم غير مخصص، فيه قبرٌ أم ليس فيه قبر، المهم أن يكون المكان طاهرا حتى ولو ألجأته ضرورة أن يصلى فى داخل كنيسة للنصارى؛ لأن عقيدة التوحيد راسخة فى وجدان المسلمين فلا تتزلزل بمكان أو مكين فشعار المسلمين إذًا أنَّ «من كان مع الله فلا يشغل بشىء سواه».

ونستدل على ذلك بما كان من أمر الخليفة الملهم العادل سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما دخل الكنيسة ليعقد صلحا للمسلمين مع قائد الروم، فقد حضرته صلاة الظهر فوقف داخل الكنيسة واستقبل القبلة وأمامه الصلبان المعلقة، ولكن قلب المسلم الموحد يعيش مع الله وحده فى نطاق: ﴿... **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ...** ﴿١١٥﴾﴾ [**البقرة**].

ولكن الخليفة الذكى قبل أن يكبر للصلاة تذكر أنه إن صلى داخل الكنيسة فسوف يأتى المسلمون ويقولون: ما دام صلى عمر فى هذا المكان فهو لنا، وبذلك ينتقض الصلح وتعود المشاكل من جديد.

ولكنه رضى الله عنه خرج إلى باب الكنيسة فصلى الظهر خارجها وأمامه الكنيسة والصلبان وأصحاب الكنيسة. فاتقوا الله يا ذوى الخيالات المريضة واتقوا الله فى إسلامكم وفى المسلمين من عباد الرحمن الذين يدعون إلى الله على بصيرة الإيمان من أصحاب الإيمان الراسخ القوى وليس الإسلام الضعيف الهش الذى كأحلام العصافير.

٣ - إن اليهود والنصارى قد خالفوا أيضا فى الجهة - أى القبلة - فإن قبلتهم كانت المسجد الأقصى - فتركوها وتوجهوا فى صلاتهم صوب قبور صلحائهم،

وليس المسلمون كذلك؛ لأن المسلمين يتوجهون إلى الكعبة قبلتهم فى الصلاة سواء أكانت فى مواجهة القبر أم ليست فى جهته؛ لأنهم مع القبلة وجودا وعدما.

إذًا اللعن منصب على اليهود والنصارى وليس للمسلمين فيه شىء؛ لأن اليهود والنصارى قد خالفوا فى ثلاثة أشياء: ١ - فى العقيدة؛ حيث سجدوا لمن فى القبر أو لصورته المتخيلة من دون الله، ٢ - فى المكان؛ حيث تركوا مكان العبادة المخصص لهم، وصلوا عند القبر ٣ - فى الجهة؛ حيث تركوا قبلتهم واتجهوا نحو القبر.

والمسلمون لم يخالفوا فى العقيدة ولا فى القبلة ولا فى المكان فجميع الأرض لهم محل سجود كعطاء خاص من الله تعالى.

والخلاصة أن هذا الحديث الشريف ليس فيه أدنى استدلال على ما ذهب إليه المحاربون لوحدة المسلمين والمتهمون لأحباب الله بالخروج عن حدود الشريعة ولكنه «الإسقاط النفسى»، وما الله يريد ظلما للعباد، ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)** ﴾ [**فصلت**].

العبادة والدعاء

تشترك العبادة والدعاء فى أن كلا منهما: تذلل وخضوع واستكانة لله عز وجل، بل إن هذا المعنى يظهر بصورة أوضح فى الدعاء، ولهذا كان الدعاء أصل العبادة بل روحها.

قال ﷺ: «الدعاء مخ العبادة».

فالعبادة هى الحكمة الأساسية من إيجاد الإنسان فى هذه الحياة.

قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)** ﴾ [**الذاريات**] أى ليعرفون.

العبادة الحقيقية: هى الإتيان بشىء من الطاعات والقربات ابتغاء وجه الله تعالى وأملا فى مرضاته، والاعتقاد الجازم بأنه سبحانه المستقل بالنفع والضر، فليس لمخلوق أيا كان من الأمر شىء وما تشاءون إلا أن يشاء الله، فما شاءه كان

وما لم يشأ لم يكن. كل المخلوقات قهر عظمته: ﴿ ... **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴿٥٤﴾ ﴾ [**الأعراف**].

حكم السجود للمخلوق: لا ينبغى الركوع والسجود إلا لله وحده فهو سبحانه مالك الملك ذو الجلال والإكرام.

ولهذا لا يسمى سجود الملائكة لآدم عليه السلام عبادة، فالعبادة لا تكون إلا لله وحده. وإنما هو سجود تشريف، وفى الحقيقة هو سجود للآمر سبحانه دون سواه.

وأما سجود يعقوب وبنيه ليوسف عليه السلام فإنه أيضا لا يسمى عبادة لعدم اعتقادهم فى أحقيته ليوسف عليه السلام، وإنما هو سجود لمن شرعه سبحانه حينذاك.

معنى ﴿ ... فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن] وما شابهها من الآيات.

إن معنى ﴿ ... **فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴿١٨﴾ ﴾ [**الجن**] أى ولا تعبدوا مع الله أحدا آخر فلا يستحق العبادة إلا هو؛ ولهذا كان أساس الإسلام والإيمان اعتقاد وقول «لا إله إلا الله» أى لا معبود بحق إلا الله.

فمعنى «لا تدعوا» فى جميع الآيات أى لا تعبدوا: فلا تسجدوا ولا تركعوا ولا تعملوا شيئا من الطاعات لمخلوق معتقدين مشاركته لله.

فهذه الصلاة مثلا تعتبر من أكبر شعائر العبادة، فإننا لم نر مسلما يصلى ركعتين لمخلوق حيا كان أو ميتا، مثل: أن يقول: نويت صلاة ركعتين لفلان لأنه أكبر، حاشا لله. فالعبادة مختصة بالخالق المعبود، وبالتالى: الدعاء لا يكون إلا لمن يملك كل شىء.

﴿**قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ...** ﴿٨٨﴾ ﴾ [**المؤمنون**].

دعاء الخلق لبعضهم:

إن دعاء الأحياء لبعضهم البعض جائز بل يعتبر من الأمور الضرورية لكل واحد فى المجتمع المسلم وذلك لمصالح الحياة. وخصوصا دعاء المسلم لأخيه بظهر

الغيب فهو دعاء مقبول عند الله ولا يرد، حتى لو قل صلاح الداعى عن المدعو له، فقد طلب النبى ﷺ الدعاء من عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما عزم على أن يؤدى عمرة.

وأما الدعاء عند الأنبياء والأولياء والاستغاثة بهم فإن ذلك من أنواع التوسل وهو جائز عند جمهور العلماء وقد أمر به النبى ﷺ الأعمى كما رواه عثمان بن حنيف وفعله سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما استسقى بالعباس رضى الله عنه كما فى صحيح البخارى والصيغة فى الحديثين لم تخل من لفظ «التوسل».

وفى القرآن الكريم يقول الله عز وجل:

﴿ ... وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [النساء].

وقد يحدث من بعض العوام أن يدعو الولى، فيقولوا يا فلان: اعمل كذا وكذا أو عليك بعَدُوىّ فلان فاعمل فيه كذا وكذا فإن اعتقد أن المدعو يستقل بالنفع أو الضر كان ذلك شركا، ولكنه بحمد الله غير موجود عند أهل القبلة، وذلك تصديق لخبر الصادق المصدوق ﷺ الذى يقول فيه:

«والذى نفس محمد بيده إنى لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدى بالله شيئا ولكن أخوف ما أخاف عليكم أن تبسط عليكم الدنيا فتتنافسوها كما تنافسها من كان قبلكم فتهلككم كما أهلكتم» رواه البخارى فى صحيحه فى باب الفتن والملاحم.

نداء المنتقل إلى رحمة الله

إن نداء الميت أو مخاطبته ليس بحرام بل هو جائز وقد يكون واجبا.

فالموت ليس موت فناء للروح بل هو انتقال من حياة الفناء إلى حياة البقاء. فالروح لا تفنى أبدا وهى أساس الإدراك، بل إنها بعد الموت تكون أكثر شفافية لعدم انشغالها بمطالب الجسد فهى فى البرزخ أقوى مما كانت عليه فى الدنيا.

ومالنا نذهب بعيدا وسيدنا محمد ﷺ قد خاطب الموتى من المشركين فى بئر القليب، فقال: يا أبا جهل، يا عتبة بن ربيعة، يا وليد... لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فقال عمر رضى الله عنه: يارسول الله، أتكلم الجيف البالية والعظام النخرة؟ قال: «ما أنتم بأسمع لى منهم».

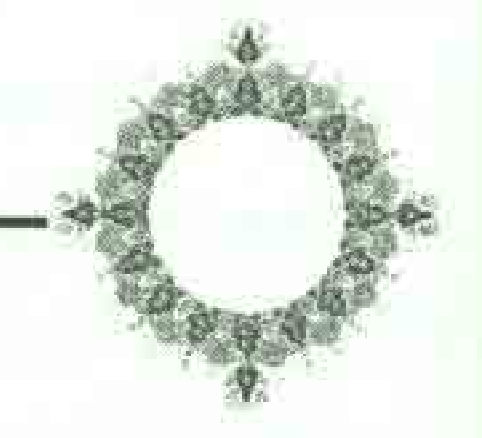
وقد علمنا رسول الله ﷺ أن نلقى السلام على الأموات حينما نمر بقبورهم: ونقول: السلام عليكم... إلخ بكاف الخطاب.

هذا، وقد افترض الإسلام على كل مصل أن ينادى سيدنا محمدا ﷺ وأن يسلم عليه فيقول: السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، وقد شرعت هذه الصيغة من فوق سبع سموات: ليلة العروج إلى السماء.

وبناء على ذلك فالرسول ﷺ يرد السلام على المسلمين عليه كما صح فى الحديث الشريف وأجمعت الأمة عليه، فالكاف للخطاب، فالمصلى يسلم عليه سلام المخاطب، فيقول: السلام عليك، ويعتقد أنه يسمع نداءه صلى الله عليه وآله وسلم ويرد عليه، قال ﷺ: «ما من مسلم يسلم على بعد موتى إلا رد الله علىّ روحى فأرد عليه السلام».

وبناء على هذا فإن من ادعى أن نداء الميت أو مخاطبته حرام أو شرك: فإن دعواه باطلة من أساسها ولا تقوم على أى دليل، وما أخطر أن تعلن الأحكام جزافا دونما حياء من الله.

الفصل السابع



الشفاعة

من الألطاف الإلهية والهبات الربانية «الشفاعة» فهى محض فضل من الله تعالى، ورحمة من الرحيم الرحمن، توضح فى جلاء أن الله تعالى أرحم بعبده من الوالدة على ولدها، وكيف لا؟!!

ونحن صنعة الله تعالى الذى أحبنا محبة الصانع لصنعته، فيعاملنا معاملة الحبيب لحبيبه، وآية ذلك:

أنه سبحانه قد امتن على هذه الأمة بالشفاعة بإجماع المسلمين؛ حيث إنها ثابتة بالكتاب والسنة الثابتة الصحيحة المتواترة.

ومع ذلك فإنها تُعَارضُ من قبل الخارجين على إجماع المسلمين، الذين يضللون عباد الله، بأن الأمور الغيبية التى منها «الشفاعة»: لا تعلم لأحد: ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ ... **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [**البقرة**].

ويضيفون إلى ذلك قوله سبحانه: ﴿ **يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً** ﴿١٠٩﴾ ﴾ [طه].

وقوله سبحانه: ﴿ **وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** ... ﴿٢٣﴾ ﴾ [سبأ].

على أن حديث البخارى فى «الشفاعة» صريح فيها وللمؤلف فى ذلك باع طويل وسيل جارف ينساب عليلا رقراقا، ترتوى منه النفوس العطشى، كما ترتوى الأكباد المتحرقة من ذى الغلة الصادى بماء لسلسبيل.

إنه من المتفق عليه: أن الأمر عنده تبارك وتعالى فله الخلق والأمر، وأن للأنبياء والرسل عنده سبحانه درجات وجعل أعلاها سبحانه وتعالى: درجة أولى العزم من الرسل، كما أوضح ذلك لحبيبه ﷺ، وأخذ بذلك فى محكم آياته بقوله عز من قائل: ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ... ﴿٣٥﴾ ﴾ [**الأحقاف**].

وأولوا العزم من الرسل هم: من كان اختبارهم وتمحيصهم فى محن الدنيا من أشد الخلق بلاء مع تحملهم وصبرهم على ذلك فنالوا بها أعلى درجة عند ربهم الكريم الحليم قال الله تعالى مبينا ذوى الدرجات العليا من أولى العزم وذاكرا له ﷺ فى مقدمتهم مع أنه آخرهم فى الوجود وذلك لعلو درجته على الجميع، فيقول جل شأنه: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴿٧﴾ ﴾ [**الأحزاب**].

وبهذا فقد نالوا درجة التجاء العباد إليهم فى شدة الموقف فى الآخرة، ولكن الناس قصدوا آدم عليه السلام لأنه أول البشرية، فيتنحى منها وعنها بما صدر منه من النسيان فيما أمر به.

ثم نوحا؛ لأنه أبو البشر الثانى، وقد سماه ربه عبدا شكورا، ولانشاء الخلق بعده منه، كما هو صريح حديث البخارى الذى يرويه فى الشفاعة، فيتنحى نوح عليه السلام لما صدر منه، ثم يأتون إبراهيم عليه السلام: فيتنحى أيضا لما صدر منه، ثم يأتون موسى عليه السلام، لتكليمه ربه جل وعلا، فيتنحى ويذكر ما صدر منه، ثم يأتون عيسى عليه السلام فيتنحى ويذكر ما صدر من قومه، ولشبهتهم إليه بالألوهية، فيأتون حضرته صلى الله عليه وآله وسلم: فيقول: أنا لها أنا لها فيشفع ويشفع.

وهذا الحديث الصحيح هو أكبر دلالة على الخارجين على إجماع المسلمين، الذين يضللون عباد الله تعالى البرآء بأن الأمور الغيبية التى منها شفاعة الشافعين لا تعلم لأحد، ويستدلون بالآيات التى ذكرت آنفا.

مع أن هذا الحديث السابق يقطع ألسنتهم فى استدلالهم الكاذب الذى لا يعقلون معناه؛ لأن الله تبارك وتعالى أبان لعباده عز وجل على لسان حضرته ﷺ: أنه قد أذن لحضرته فى الشفاعة العظمى بهذا الحديث السابق.

وفى الحديث المتفق عليه المروى عند البخارى ومسلم وجميع أصحاب السنن والمسانيد، ولفظه الشريف هو: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى من الأنبياء، نصرت بالرعب من مسيرة شهر، وأحلت لى الغنائم، وجعلت لى الأرض مسجدا وتربتها طهورا، فأيما امرئ من أمتى أدركته الصلاة فليصلها، وكان النبى يرسل لقومه خاصة وأرسلت للناس كافة، وأعطيت الشفاعة العظمى».

فهذا كاف فى ردعهم وتبكيتهم لتضليلهم لعباد الله؟!!

وغير ذلك كثير فى السنة من شفاعة الشافعين التى يشهد لها ويؤيدها ويقوى صحتها، ما قصه تبارك وتعالى علينا فى محكم التنزيل عن أحوال المجرمين بقوله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المدثر] فيستفاد من هذه الآية أن هناك شفعاء فتنفع شفاعتهم.

وقوله تعالى: ﴿ ... وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء].

فمن قرأ هذه الآيات والأحاديث الثابتة: لابد أن يرجع وجود الشفاعة معتقدا.

إنكار الشفاعة:

إن إنكار الشفاعة شيء عجيب وخاصة إذا صدر من رجل يؤمن بالله واليوم الآخر ثم إنها ثابتة بالكتاب والسنة، فأما ما يثبتها من كتاب الله تعالى فآيات كثيرة منها ﴿ ... مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة].

فالاستفهام هنا فى «من ذا» للإنكار والنفى أى لا يشفع عنده أحد إلا بأمره، وذلك أن المشركين كانوا يزعمون أن الأصنام تشفع لهم، وقد أخبر الله عنهم بأنهم يقولون: ﴿ ... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ... ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر]. وقولهم (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) ثم بين سبحانه أنهم لا يجدون هذا المطلوب، فقال سبحانه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ ... ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس] فأخبر الله تعالى أنه لا شفاعة عنده لأحد إلا من استثناه بقوله سبحانه (إلا بإذنه). ولا يأذن الله لشفاعة فى الكفار.

قال القفال الشاشى: إنه تعالى لا يأذن فى الشفاعة لغير المطيعين؛ لأنه لا يجوز فى حكمته التسوية بين أهل الطاعة وأهل المعصية، ويرد على القفال المعتزلى: إن كان المراد أنه لا يجوز التسوية بين المطيع والعاصى فى كل الأمور فالمطيع يكون آمنا من العقاب غالبا لكن المذنب يكون خائفا من العقاب وربما يدخل النار فعلا ويتألم مدة ثم يخلصه الله تعالى من ذلك العذاب بشفاعة الرسول ﷺ.

﴿ ... يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة] المراد أنه سبحانه عالم بأحوال الشافع والمشفوع له فيما يتعلق باستحقاق العقاب والثواب؛ لأنه

سبحانه عالم بجميع المعلومات، لا يخفى عليه خافية والشفعاء لا يعلمون من أنفسهم أن لهم من الطاعة ما يستحقون به هذه المنزلة العظيمة عند الله تعالى، ولا يعلم المشفوع لهم من الله تعالى هل أذن لهم فى تلك الشفاعة أم أنهم يستحقون المقت والزجر على ذلك، وهذا يدل على أنه ليس لأحد من الخلائق أن يقدم على الشفاعة إلا بإذن الله تعالى.

من الشفعاء عند الله المأذون لهم فيها؟

الشفعاء المأذون لهم فى هذه الآية يحتمل أن يكون هم الملائكة، وسائر من يشفع يوم القيامة من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين أ هـ من تفسير الفخر الرازى جـ٣ ص٥٤٤، ٤٤٥. فبالنسبة لسيدنا محمد ﷺ له شفاعات كثيرة.

منها شفاعته للمصلين عليه بعد الأذان، فقد روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء - الأذان - اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد حلت له - أى وجبت - له شفاعتى يوم القيامة».

وأما الشهيد فهو من استشهد فى مقاتلة مع الكافرين لإعلاء كلمة الله تعالى، وقد ورد أن الشهيد يشفع فى سبعين من أهل بيته، وأما الصِّدِّيق فهو الولى العارف بالله وهو شهيد الجهاد الأكبر فهو يشفع لعدد أكبر من شهيد الجهاد الأصغر السابق.

وأما الصالح فهو يشفع لمن صاحَبَهُ فى الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «استكثروا من صحبة الإخوان فإن لكل أخ شفاعة».

أدلة الشفاعة القرآنية:

رأينا أن الشفاعة ثابتة بآيات قرآنية، ففى آية تثبت أنها لمن أذن له الله، وفى آية أخرى لمن ارتضى الله شفاعته وفى آية ثالثة لمن أذن له وارتضاه.

وحيث إنه سبحانه قد قيدها بالإذن فإن الشفاعات تكون تكريما يكرم الله تعالى بها من يشاء من عباده.

هذا، وإن الشفاعة الربانية تختلف عن الشفـاعة البشرية البحتة لأنه فى باب العقوبات قد يشفع وجيه من الوجهاء لدى إنسـان فَيُقِيلُهُ من ورطته ولكن الشفاعة التى من هذا النوع مستحيلة فى حق الله سبحـانه؛ لأنه سبحانه إذا أراد شيئا نفذه، فالشفاعة الأخروية أزلية فى علم الله القديم.

أدلة الشفاعة من السنة:

إن أدلتها من السنة كثيرة جدا، فمنها حديث الشفاعة العظمى والمقام المحمود الذى اتفق على روايته البخارى ومسلم ورواه غيرهمـا وفيه يقول: «يا محمد ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفـع». ومنها أيضا: «شفاعتـى لأهل الكبائر من أمتى» رواه الترمـذى عن سيدنا جابر بن عـبدالله رضى الله عنهما ورواه كـذلك النسائى وأبو داود وأحمد وابن حبان والحاكم.

وروى ابن مـاجه أن النبى ﷺ قـال: «يشـفع يوم القيـامـة ثلاثة: الأنبيـاء والعلماء والشهداء» وقـال ﷺ: «يشفع الشهيد فى سبـعين من أهل بيته». وروى الشيخـان وغيرهما من حديث طويل منه قوله ﷺ: «. . . . . ثم يـضرب الجسر ـ الصراط ـ على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ، قيل يا رسول الله وما الجسر؟ قـال: دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة يقـال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العـين وكالبرق وكالريح وكالطير وكـأجاويد الخيل والركاب، فناج مـسلم ومـخدوش مـرسل ومكدوس مـدفوع فى نارجـهنم حـتى إذا خلص المؤمنون من النار فو الذى نفسى بيده ما من أحد منكم بأشد منا شدة فى استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الـذين هم فى النار، فيقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحـجون فيقال لهم: أخرجوا من عرفـتم فتحرم صورهم ووجوههم على النار فـيخرجون خلقـا كثيـرا، ومنهم من أخذت النار إلى نصف ساقه وإلى ركبته، ثم يقولون: ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبـه مثقال دينار من خير فأخـرجوه، فيخرجون خلقـا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فـيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نر فيهـا مما أمرتنا به أحدا ثم يقول: ارجـعوا فمن وجدتم فى قلبه مـثقال ذرة من خير فأخرجوه، فـيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نر فـيها خيرا، وكان

أبو سعيد راوى هذا الحديث يقول: إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرأوا إن شئتم ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء] فيقول الله تعالى: شَفَعَت الملائكة وشَفَعَ النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها أقوام لم يعملوا خيرا قط يعنى غير الإيمان قد عادوا حمما فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة بذور البقل فى حميل السيل وما يحمله السيل من الطين، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ويكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض، فقالوا: يا رسول الله كأنك ترعى البادية؟ قال: فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين، فيقول لكم عندى أفضل من هذا، فيقول: أحل عليكم رضائى فلا أسخط عليكم بعده أبدا».

الشفاعات التى لسيدنا محمد ﷺ:

إن هذه الشفاعات تكون فى الآخرة، وهى خمسة أنواع كلها ثابتة لنبينا ﷺ، وبعضها خاص به ﷺ والبعض الآخر ثابتة ولكن يشاركه فيها غيره من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ـ كما بينا قبل ذلك ـ وإن كانت الشفاعات كلها راجعة إلى شفاعته ﷺ قال القاضى عياض: الأولى: مختصَّة بنبينا ﷺ وهى: الإراحة من طول الوقوف وتعجيل الحساب لا يقترب إليها غيره وهى الشفاعة العظمى التى لم ينكرها أحد.

الثانية: الشفاعة فى إدخال قوم الجنة بغير حساب وهى التى جاء فيها: «فأقول يارب أمتى أمتى، فيقال يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ـ وهم أيضا شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب».

وحديث دخول قوم الجنة بغير حساب رواه البخارى ومسلم من طرق شهيرة عن النبى ﷺ فى بعضها: يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفا بغير حساب. فقال رجل: يا رسول الله: ادع الله أن يجعلنى منهم، فقال: اللهم اجعله منهم ـ والرجل هو: عكاشة.

وفى حديث آخر، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولايكتوون وعلى ربهم يتوكلون.

وفى حديث آخر، «عرضت على الأمم، فرأيت النبى ومعه الرهط، والنبى ومعه الرجل والرجلان والنبى وليس معه أحد، ورفع لى سواد عظيم وتمنيت أنهم أمتى، فقيل لى: هذا موسى وقومه عليه السلام، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا هو سواد عظيم، فقيل لى انظر إلى الأفق الآخر فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لى هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

وفى حديث آخر: وهؤلاء سبعون ألفا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب.

وفى حديث آخر: يدخل من أمتى زمرة هم سبعون ألفا تضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر.

فهذه الأحاديث كلها فى الصحيح.

وفى حديث آخر فى الصحيح: لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم - وهو إشارة إلى سعة باب الجنة.

فالخصوصية ثابتة لنبينا ﷺ فى إدخال أول زمرة من أمته الجنة بشفاعته، فإن شفاعته المذكورة تكون فى أول مقام الشفاعة قبل أن تجعل الشفاعة لغيره ويترتب عليها الإذن فى إدخال الزمرة المذكورة وهى أول من يدخل الجنة - وهذا المعنى لا يشاركه فيه أحد.

الشفاعة الثالثة: الشفاعة لقوم استوجبوا النار فيشفع فيهم نبينا ﷺ ومن يشاء الله، وأشار بذلك إلى حديث أبى سعيد: «ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة... إلخ».

الشفاعة الرابعة: فيمن دخل النار من المذنبين، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بإخراجهم من النار بشفاعة نبينا ﷺ وسائر الأنبياء والملائكة وإخوانهم من المؤمنين، ثم يخرج الله تعالى كل من قال: لا إله إلا الله كما جاء فى الحديث ولا يبقى فيها إلا الكافرون. وهذه الشفاعة والشفاعة العظمى قد تواترت الأحاديث بهما واختصاصه ﷺ بالعظمى، وأما هذه فقد جاء فيها شفاعة الملائكة والنبيين والمؤمنين، وإن الله تعالى بعد ذلك يخرج برحمته من قال: لا إله إلا الله.

وإذا ثبت ذلك فاختصاصه ﷺ من هذا النوع بإخراج عموم أمته حتى لا يبقى منهم أحد وهذا هو الموافق لعموم قوله ﷺ: «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى».

الشفاعة الخامسة: فى زيادة الدرجات فى الجنة لأهلها وإن كنا لم نجد فى الأحاديث تصريحا بها. وفى كتاب شعب الإيمان لعبد الجليل القصرى تفسير للوسيلة التى اختص بها النبى ﷺ على أنها التوسل وأن النبى ﷺ يكون فى الجنة بمنزله الوزير من الملك بدون تمثيل فلا يصل إلى أحد شىء إلا بواسطته ﷺ فهذه أيضا خاصة به. فهذا توضيح الشفاعات الخمس والله الموفق.

تفضُلُ الله تعالى على رسوله الشفيع:

لقد تحدث الرسول ﷺ بفضل ربه عليه: ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴿١١﴾ ﴾ [**الضحى**].

وذلك لنغترف من هذا الفضل وندرك موقعنا من هذه الملة الحنيفية فنعتز بإسلامنا ونبينا ﷺ، ويناجى كل منا ربه بلسان المقال أو بلسان الحال:

«كفانى فخرا أن تكون لى ربا وكفانى عزا أن أكون لك عبدا».

فالحمد لله تعالى أن جعلنا من أهل ملة نبى قال: «أنا أول الناس خروجا إذا بُعِثُوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا يئسوا، لواء الحمد بيدى، وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر) أخرجه الترمذى عن أنس وقال حديث حسن.

وعن أبىّ بن كعب رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر» رواه الترمذى وقال: حسن وعن أبى سعيد رضى الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وبيدى لواء الحمد ولا فخر، وما من نبى يومئذ: آدم فمن سواه إلا تحت لوائى». رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «أنا حبيب الله ولا فخر» وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لى فيدخلنى ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر» أخرجه الترمذى فى سننه

وقال: حديث صحيح. وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: سألت النبى ﷺ أن يشفع لى يوم القيامة، فقال: أنا فاعل، قال: قلت: يا رسول الله فأين أطلبك؟ قال: اطلبنى أول ما تطلبنى على الصراط. قال: قلت: فإن لم ألقك عند الصراط؟ قال: فاطلبنى عند الميزان. قلت فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: فاطلبنى عند الحوض، فإنى لا أخطئ هذه الثلاث مواطن» أخرجه الترمذى وقال: حديث حسن.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحدا أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث. «إن أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة، من قال: لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه» أخرجه البخارى. وعن أبى سعيد الخدرى رضى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أُذِنَ لهم فى دخول الجنة» أخرجه البخارى.

وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لاإله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار، من قال: لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة» البخارى، فالأحاديث فى الشفاعة وفى فضل نبينا ﷺ كثيرة ومجموعها يبلغ مبلغ التواتر فى المعنى لا فى اللفظ الواحد، وقد تضمنت هذه الأحاديث من المناقب الشريفة والفوائد الجمة ما لا يسعه هذا السفر ولكننا نشير إلى شىء منه على سبيل الاختصار والبركة بالنور المحمدى.

الاستغاثة بأحباب الله تعالى عند الشدائد

مما لاشك فيه أن كل مسلم يعتقد اعتقادا جازما لاشك فيه أن الأصل فى الاستعانة والاستغاثة والطلب والنداء والسؤال هو: أن يكون لله سبحانه وتعالى.

فهو المعين والمغيث والمجيب. يقول الله عز وجل: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ... (٦٠) ﴾ [غافر]. فمن استعان بمخلوق أو استغاث به أو ناداه أو

سأله أو طلبه، سواء أكان حيا أو ميتا معتقدا أنه لا ينفع ولا يضر بنفسه استقلالا، لكنه مجرد سبب فقط بل الفاعل المؤثر الخالق الرازق المحيى المميت هو «الله» وحده فلا شىء عليه ولا إثم.

فالله تعالى قد أجاز للخلق أن يستعين بعضهم ببعض وأن يغيث كل منهم من احتاج إلى الغوث، والأحاديث على ذلك كثيرة والآيات القرآنية.

فقد قال الله تعالى: ﴿ ... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ... ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة].

وقال ﷺ: «من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر فى الدنيا يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه» وقد جعل الرسول ﷺ من السبعة الذين يستظلون تحت عرش الرحمن من أنظر معسرا ومن أغاث ملهوفا.

وقد كان الصحابة يستغيثون به ﷺ ويطلبون منه الشفاعة، ويشكون حالهم إليه من الفقر والمرض والبلاء والدَّين والعجز. ويفزعون إليه عند الشدائد ويطلبون منه ويسألونه معتقدين أنه ليس إلا سببا فى النفع والضرر وإن كان الفاعل حقيقة هو «الله».

فهذا قتادة يستغيث به لإصلاح عينه

لقد ثبت أن قتادة بن النعمان أصيبت عينه فسالت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فقال: لا - حتى أستأمر رسول الله ﷺ، فاستأمره - استأذنه - فقال: «لا» ثم وضع راحته على حدقته ثم غمزها فعادت كما كانت فكانت أصح عينيه. رواه البغوى وأبو يعلى وأخرجه الدارقطنى وابن شاهين والبيهقى فى دلائل النبوة، ونقله الحافظ ابن حجر فى الإصابة جـ٣ ص٢٢٥ - والحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ٤ ص٢٩٧ والسيوطى فى الخصائص.

الاستغاثة والاستعانة به إلى الله فى البلاء:

لقد زادت النصوص الصحيحة وكثرت التى تنطق بأنهم كانوا إذا أصابهم القحط وانقطع عنهم المطر فزعوا إليه ﷺ مستشفعين متوسلين طالبين مستغيثين به إلى الله فيعرضون حالهم عليه ويتمسكون بأسباب الفرج ويشكون ما نزل بهم من البلاء والشر.

فهذا أعرابى يناديه وهو ﷺ يخطب يوم الجمعة فيقول:

«يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله أن يغيثنا فدعا الله وجاء المطر إلى الجمعة الثانية، فجاء الرجل وقال: يا رسول الله تهدمت البيوت وتقطعت السبل وهلكت المواشى يعنى من كثرة المطر فدعا ﷺ فانجاب السحاب وصار المطر حول المدينة».

رواه البخارى فى كتاب الاستسقاء باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا.

الاستغاثة جائزة بالحى وبالميت:

يقول البعض: إن الاستغاثة به ﷺ وشكوى الحال إليه وطلب الشفاعة وكل ما يكون فى هذا الباب إنما يصح فى «حياته» أما بعد «موته» فهو كفر، وربما تسامح فقال: «غير مشروع» أو قال: «لا يجوز».

فيكون الرد على هؤلاء: إن الاستغاثة به ﷺ والتوسل إن كان المصحح لطلبها هو «الحياة» كما يقولون فإن الأنبياء والأولياء والشهداء أحياء فى قبورهم عند ربهم يرزقون.

فلو لم يكن للمفتى فى هذه المسألة إلا الدليل على صحة الاستغاثة والتوسل به ﷺ بعد وفاته إلا قياسه على التوسل والاستغاثة به فى حياته الدنيا لكفى ذلك؛ لأنه حى فى الدارين، دائم العناية بأمته. متصرف بإذن الله تعالى فى شؤونها، خبير بأحوالها، تعرض عليه صلوات المصلين عليه من أمته ويبلغه سلامهم مع كثرتهم. ومن اتسع علمه بمعرفة المدد والإمداد وشئون الأرواح وما جعلها الله عليه من الخصائص، لاسيما العالية منها، فإنه يتسع قلبه للإيمان بذلك، فكيف به ﷺ وهو: روح الأرواح ونور الأنوار نبينا ﷺ.

فلو كان طلب الشفاعة أو الاستغاثة أو التوسل به عليه الصلاة والسلام: شركا أو كفر، كما توهمه البعض ـ لما جاز إطلاقا فى أى حال من الأحوال: لا فى الحياة الدنيا ولا فى الحياة الأخرى، لا يوم القيامة ولا قبلها، فإن الشرك ممقوت عند الله فى كل حال.

أمر مستبعد وغريب عقلا وشرعا:

إن اعتبار استغاثة الناس بأحباب الله شرك وكفر أمر بشع ومستقبح وهو عين البدع والزيغ عن الحق لوروده فى دنيـا الناس عادة وشرعـا. وهل يوجد أبشع ممن ينكر أمـرا يقـول به الشـرع ويقره العـقل وتجنده سنـة الكون. إن هذا الإنكار فى حقيقته ما هو إلا إنكار للناموس الطبـيعى، والمحور الذى تدور عليه مصالح العباد فى هذه الحياة، بل إنه ينكر ما جبلت عليه الفطرة من مبدئها إلى منتهاها. فإن الله عز وجل قد أمرنا أن نتـعاون على البر والتقوى، ووعد من امـتثل أمره هذا وعدا يُطْرِبُ الآذان لسماعـه، وتطير القلوب شوقا إليه، ولا تذكـره الجوارح إلا اندفعت إليه اندفاع السـهم إلى غرضه ألا وهو تلك القيمة الاجـتماعية التى عليـها عمران الكون وهى: [التعـاون] بوعد كريم من رب كـريم وهو: أن يكون الله ـ بجلاله وقدسيته ـ فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه.

نعم إن رب الآخـرة والأولى مع كل عبـد يعين أخـوانه ويرعى مصـالحهم ويغيث ملهوفهم ويؤمن حـائرهم فالله معه بمعونته ونصرته وتوفيقـه وستره فالجزاء من جنس العمل.

وهكذا يتـبادل الـناس هذا التعـاون فى ليلهم ونهـارهم، فى سـرائهم وفى ضرائهم فى مسـارعة إلى امتثال أمـر الشرع الشريف فقـد قال ﷺ: «من سعى فى حاجـة أخيه قـضيت على يديه أم لم تقض كان كـمن اعتكف فى مسـجدى هذا سنتين».

سر الوجود وقطب رحاه تعاون الخلق مع بعضهم البعض:

إن الاستـغاثات والإغـاثات لو منعت بين الناس لوقـفت الحركـة وتعطلت مصالح العباد فأصبحنا نرى الناس ينظرون بأعينهم إلى من يراق دمه أو ينهب ماله أو يهتك عـرضه فلا يلتـفتون إليـه إذا كان يحـرم الاستغـاثة بالآخرين وفى ذلك القضاء النهائى على الإنسانية وتعطيل حركة الوجود.

فأنعم بدين يربط بين أبنائه برباط الإخاء والمحبـة والتعاون. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات].

وقال ﷺ: «المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله».

وقال ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر».

فنخلص من ذلك إلى أن الاستغاثة جائزة ولا شىء فيها، سواء أكانت بحى أم بميت، لحى أو لميت والاستغاثة للميت جائزة فقد يكون الميت عليه دين أو حرم أحد الورثة من ميراثه أو عليه حج أو زكاة، فيأتى فى الرؤيا مستغيثا بالحى الذى كانت له به صلة أو قرابة - فى هيئة من العذاب والنكال - فيخلصه الحى بقضاء دينه أو رد الميراث لمستحقه.

وقد رأينا الصحابى الذى سُرِق متاعه بعد استشهاده كيف أتى فى الرؤيا لصديقه وطلب معونته له بأخذ متاعه من سارقه وطلب من خالد بن الوليد رضى الله عنه أن يساعده فى ذلك ووصف المكان الذى فيه متاعه، وطلب تسديد ديونه بإشراف الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه وتم للميت الصحابى الشهيد ما أراد.

نعم، إن أئمة هذا الدين وهم رجال الصدر الإسلامى الأول قادة الخلق وورثة النبوة قد استغاثوا فى عصورهم المتعاقبة برسول الله ﷺ وبغيره من الأنبياء والصالحين وهم أعلم الناس بالدين وبأسراره، وما يجيزه وما يمنعه، وقد نقل إلينا ذلك عنهم. فلنسمع شيئا من ذلك:

روى الطبرانى أن سيدنا سواد بن قارب قد أنشد بين يدى رسول الله ﷺ قصيدته التى فيها:

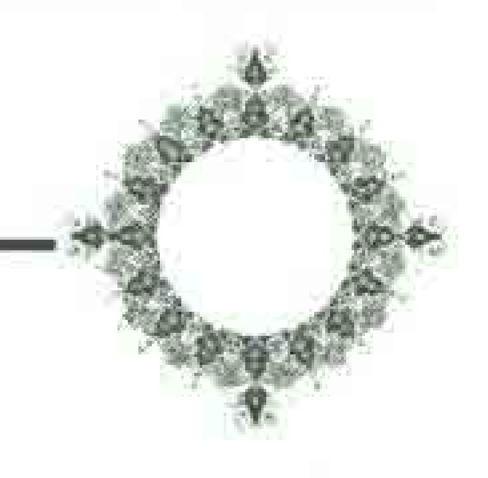
فأشهد أن الله لا رب غيره ... وأنك مأمون على كل غائب

وأنك أوفى المرسلين وسيلة ... إلى الله يا ابن الأمجدين من الأطاليب

فمرنا ما يأتيك يا خير مرسل ... وإن كان فيما فيه شيب الذوائب

وكن لى شفيعا يوم لاذ وشفاعة ... بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

الفصل الثامن



المدد والإمداد

مقدمة:

هناك ألفاظ يستعملها السالكون طريق الله من مريدين وشيوخ وأحباب فمنها: النَّفَسَ ـ الخاطر ـ الوارد ـ الشاهد ـ النفْس ـ الروح ـ السر ـ المدد. فما معنى هذه الاصطلاحات وأثرها فى سلوك الطريق؟

١ ـ النفَس: ترويح القلوب بلطائف الغيوب.

فصاحب الأنفاس: أرق وأصفى من صاحب الأحوال، إذ أن صاحب الوقت مبتدئا، وصاحب الأنفاس منتهيا، وصاحب الأحوال بينهما، إذ إن الأوقات لأصحاب القلوب، والأحوال لأرباب الأرواح، والأنفاس لأهل السرائر.

فأفضل العبادات: عَدُّ الأنفاس مع الله سبحانه وتعالى.

فقد خلق الله القلوب وجعلها معادن المعرفة، وخلق الأسرار وراءها ـ أى بعدها ـ وجعلها محلا للتوحيد: فكل نَفَس حصل من غير دلالة المعرفة وإشارة التوحيد على بساط الاضطرار فهو ميت وصاحبه مسئول عنه.

وقد قال الأستاذ أبو على الدقاق: العارف لا يسلم له النفس؛ لأنه لا مسامحة تجرى معه والمحب لابد له من نفس، إذ لولا أن يكون له نفس لتلاشى؛ لعدم طاقته.

وأنفاس العارفين: إشعاعات مركزة نورانية تنتشر كصدى الصوت لتغطى بلدة بأكملها بجذب قلوب أهلها إلى حنان رب العالمين.

فقد قال أرباب القلوب والأسرار: إذا دخل العارف بالله بلدة وتنفَّس فيها سكن قلب كل مؤمن فيها، أى اطمأن إلى حنان الله وتذوق نور مولاه؛ ولذا لَزِمَت الصحبة لأولياء الله؛ لنعيش دائما مع الله.

٢ ـ الخاطر: خطاب يرد على الضمائر، وهو موجود لدى كل إنسان لكنه يختلف اختلافا شديدا باختلاف المصدر أو الملقى أو جهاز الإرسال.

الخاطر أربعة أنواع: ١ ـ الإلهام: إذا كان مصدره الملك.

٢ ـ الهاجس: إذا كان مصدره النفس.

٣ ـ الوسواس: إذا كان مصدره الشيطان.

٤ ـ الحق: إذا كان مصدره من قِبَلِ الله.

فإذا كان الخاطر من قبل الملك فإنه يعلم صدقه بموافقة الكتاب والسنة.

وان كان من قبل الشيطان فأكثره يدعو إلى المعاصى. فليحذر المريد منه.

وإن كان من قبل النفس فأكثره يدعو إلى اتساع شهوة أو استشعار كبر، فليحذر المريد منه.

وإن كان من قبل «الله» فهو ينعش القلب ويقويه على قطع المسافات نحو عالم الملكوت.

خطورة أكل الحرام على الخواطر:

إن من أخطر معوقات السير إلى الله تعالى: أكل الحرام، لأنه يكبل القلب فى قيود الظلمة فيداهمه الوسواس وسوء الظن فييأس من الوصال ويتكبر فى الحال هروبا من النقص الباطنى ليتخيل أن له كمالا فى الظاهر، فصاحب هذا الحال: لا يفرق بين الإلهام والوسواس؛ لأن جهاز الاستقبال اختل ومال.

٣ ـ الوارد: هو ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة، مما لا يكون بتعمد العبد.

أنواع الوارد: أ ـ وارد من الحق ب ـ وارد من العلم.

والواردات أعم من الخواطر؛ لأن الخواطر تختص بنوع الخطاب، أو ما يتضمن معنى الخطاب.

والواردات كثيرة: وارد سرور، وارد حزن، وارد بسط، وارد قبض إلى غير ذلك من المعانى التى ترد على قلب السالك، وسبحان من يغير ولا يتغير!!

٤ ـ الشاهد: الحاضر، الشهود: الحضور ـ (عالم الغيب والشهادة) أى الحالة الحاضرة. فالمراد بالشاهد: ما يكون حاضر قلب الإنسان أى ما يغلب عليه ذكره حتى كأنه يراه ويبصره وإن كان غائبا عنه، فكل ما يستولى على قلب صاحبه ذكره فهو شاهده.

فإن كان الغالب عليه العلم فإنه يشاهد العلم، وإن كان الغالب عليه الوجد فهو يشاهد الوجد. ولما سئل الشبلى عن المشاهدة، قال:

من أين لنا مشاهدة الحق؟ الحق لنا شاهد. ما فقد مشاهدة الحق إلا كونه المستولى على قلبه.

والغالب عليه من: ذكر الحق والخاطر فى قلبه دائما من ذكر الحق.

فالمحبة توجب دوام ذكر المحبوب واستيلائه عليه.

هذا وقيام السالك بأحكام بشريته إما شاهد له، أو شاهد عليه.

٥ ـ النفْس: ما كان معلولا ـ ذا علة وصفة ذميمة ـ من أوصاف العبد، ومذموما من أخلاقه وأفعاله.

معلولات النفس نوعان: أ ـ ما كان كسبا له كمعاصيه ومخالفاته.

ب ـ ما كان من أخلاقه الدنية الطبيعية فهى فى أنفسها مذمومة.

والنوع الأول: ما نهى عنه نهى تحريم أو تنزيه.

النوع الثانى: سفساف الأخلاق والدنىء منها دمثها. والمقصود بها مثل: الكبر ـ الغضب ـ الحقد ـ الحسد وسوء الخلق ـ قلة الاحتمال ـ الغرور ـ الرياء ـ الظلم ـ الطمع . . .

أصعب وأشنع شىء فى النفس: هو: توهمها أن شيئا منها حسن، أو أن لها استحقاقا وقدرا. ولهذا عَدُّوا ذلك من الشرك الخفى.

ومعالجة الأخلاق الدنيئة فى: ترك النفس وكسرها، أكمل من مقاساة الجوع والعطش والسهر.

النفس والروح: النفس: لطيفة مودعة فى هذا القالب هى محل الأخلاق المحمودة فتكون الجملة مسخرا بعضها لبعض وكون الروح والنفس من الأجسام اللطيفة فى الصورة، ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطائفة.

فمحل الأوصاف الحميدة القلب والروح، ومحل الأوصاف المذمومة النفس.

٦ ـ الروح: هى: الحياة ـ عند بعضهم ـ أو هى: أعيان مودعة فى هذه القوالب.

لقد أجرى الله العادة بخلق الحياة فى القالب ما دامت الأرواح فى الأبدان، فالإنسان حى بالحياة، ولكن الأرواح مودعة فى القوالب، ولها تَرقٍّ فى حال النوم ومفارقة للبدن ثم رجوع إليه.

فالإنسان: هو: الروح والجسد؛ لأن الله سبحانه وتعالى سخرها فى الجملة لبعضها البعض، والحشر يكون للجملة، المثاب والمعاقب الجملة، والأرواح مخلوقة ومن قال بقدمها فهو مخطئ خطأ عظيما، والأخبار تدل على أنها أعيان لطيفة.

٧ ـ السر: لطيفة مودعة فى القالب كالأرواح.

السر: محل المشاهدة، والأرواح محل للمحبة، والقلوب محل للمعارف.

السر: مالك عليه إشراف، وسر السر: ما لا اطلاع عليه لغيرالحق.

السر: ألطف من الروح والروح أشرف من القلب.

السر: معتق عن رق الأغيار من الآثار والأطلال.

السر: «ما يكون مصونا مكتوما بين العبد والحق سبحانه فى الأحوال؛ لأن صدور الأحرار قبور الأسرار» ا هـ الرسالة القشيرية جـ١ ص٢٤١، ٢٤٥.

٨ ـ المدد: تترد هذه الكلمة كثيرا على ألسنة السالكين جميعا، ويكثر الاعتراض عليها من الرافضين إلى درجة اللعن والتكفير،

فما معنى المدد فى لغة العرب، وما المعنى المراد لدى السالكين.

المدد فى لغة العرب: طلب النصرة والعون والزيادة.

والمدد لدى السالكين له معنيان معنى عام وهو: أن يطلب من شيخه زيادة البركة والرعاية على أنه ممدود من الله لنفسه ولمن حوله:

لأن الشيخ إذا ظهرت عليه بوارق الأنوار وأحاطت به الأسرار مُدَّتْ له طوالع الهنا وتفجر من قلبه وروحه السنا، فإنه يوليه الله حتى يشرب الراح من نبينا.

وإن كان المدد بمعناه الخاص الذى لأجل الخاصة هو:

نور يسرى فى القلب فيسير فى جنبات النفس يحرق آثار الغفلة والذنوب ويقرب السالك إلى علام الغيوب.

مصدر المدد وكيفية الإمداد:

إن المدد من الله جل شأنه فى كل أنواعه ولاسيما - مدد النور - أو نور المدد الذى يغمر القلب ويزيل غياهب الران والحجاب فيكون العبد مستغرقا فى جمال الله وجلاله. أواها، رجاعا إلى الله لا يبتغى إلا رضاه.

شعاره ودثاره:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

فيا ليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

فالمعطى هوالله سبحانه لكل شىء يكن فيكون لأن أمره بين الكاف والنون.

والذى يتمكن من استقبال المدد النورانى هو نبى الهدى والنور ﷺ.

قال ﷺ: «إنما أنا قاسم والله معطى».

وقال الله سبحانه مخاطبا نبيه سليمان عليه وعلى نبينا السلام: ﴿ **هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴿٣٩﴾ ﴾ [ص].

فقد أعطى الله سبحانه من فضله: التصرف فى العطية بما يرى.

وليس معنى ذلك أن الله تعالى قد أشركك معه فى الملك؟ لا. لا.

كما أنه سبحانه منذ الخليقة قد أمر الملائكة المقربين، أن يسجدوا لآدم، وهم أجساد نورانية أن تسجد لأبى البشر آدم عليه السلام وهو مخلوق من طين، وعلم آدم الأسماء التى جهلتها الملائكة المقربون: ﴿ **قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ ...** ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة] وقد قالوا قبل ذلك: ﴿ **قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة] إنه العطاء الإلهى.

فالله تعالى قادر على أن يعلم الملائكة تعليما مباشرا لما يجهلون ولكنه سبحانه أرانا صورة بارزة من صور الأسباب التى يسوقها بعطاء من عنده.

يصر البعض على أنه لا يجوز أن يطلب السالك «المدد» إلا من الله تعالى مباشرة، ويرمون من خالف ذلك بالشرك والكفر واستفحل أمر هذه الفرية بسبب الأمية القلبية حيث وجد من بين الناس من هو جهول القلب عليم اللسان.

وانتشر وجود هؤلاء هم وأدعياء الدعوة الذين يتاجرون باسمها ويكفرون مخالفيهم بلا خوف من الله تعالى ولا وجل.

نعم إن العطاء والمدد من الله تعالى، لكن لابد من الأسباب الموصلة إلى هذا العطاء والله تعالى يكرم البعض بالبعض ليظل عمران الحياة.

قضية التأثير والتأثر:

ليس الموت فناء وانتهاء؛ لأن الروح لا تفنى ولا تبلى فهى عطاء من أمر ربى، وإنما الموت عبارة عن: خروج الروح من البدن لترجع إلى مكانها الأول فى الملأ الأعلى الذى هبطت منه، ودليلنا على ذلك قول الله سبحانه:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر].

فمعنى «ارجعى» أى عودى إلى مكانك الحقيقى فى عالم القدس.

إذًا الموت عبارة عن انتقال من حال إلى حال.

فحياة البرزخ حياة خاصة فيها النعيم لمن رضى الله عنهم، وقد حكى القرآن الكريم عن رجل لقى الله تعالى وأحس بنعيمه فى حياته البرزخية أى فى القبر - وهو ميت فى داخل القبر وأحس أيضا وهو فى قبره أن قومه مازالوا كافرين، فتمنى أن يعلم قومه ما ناله من خير على يد الكريم المنان، فأبلغنا الله عنه، وقال ما تمناه لقومه بعد موته: **﴿... يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾** [يس].

الصلة القائمة بين الأحياء والأموات:

ومن هذه القصة القرآنية يدلنا القرآن الكريم على أن الصلة قائمة بين الأحياء والأموات برغم مايبدو ظاهرا ممن يناقض ذلك:

وكذلك حكى الله عن إكرامه لذرية الرجل الصالح فقال معلما لنا أن هذه الصلة بآثارها باقية لم تنقطع، فقال جل شأنه: **﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ**

في الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ... ﴿٨٢﴾ [الكهف] وتلك دلالة قاطعة على أن الحى ينتفع من صلاح الميت، وأن بركة الميت تعود على الحى.

فإذا خاطب المريد شيخه على أنه من ذريته الروحية وقال: مدد ياعم. فإنه يطلب أسباب الهداية من السبب الذى أراده الله لهدايته، كما يقول الولد لأبيه: اكسنى أو أطعمنى أو اسقنى، فهو لايريد إشراكا بالله؛ لأن الكاسى والمطعم هو الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ** ﴿٧٩﴾ **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء] ولكن هذا من باب السبب والله هو المسبب فلا ضَيْر فى هذا إطلاقا ولا إشراك فيه، وإذا كان المؤمنون منذ أن جاءتهم الرسالة المحمدية يقولون فى التشهد: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمدا عبده ورسوله، وذلك مجاز.

إن هؤلاء يعتقدون فى أساس التوحيد الخالص من أنه لا إله إلا الله وسيدنا محمد رسول الله وهم يكررونها فى كل أذان للصلاة إعلانا لتوحيدهم.

فكيف يظن بهم غير ذلك؟ فالله تعالى أمرنا أن نأخذ من الناس ظواهرهم والبواطن عليه سبحانه والحديث الصحيح «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله».

فرية الأوثان:

يقول هؤلاء المغرورون المارقون: إن المريدين حين يطلبون المدد من شيخهم مثل عبدة الأوثان الذين قال الله فيهم: ﴿ ... **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ** ... ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر].

مع أن المريدين من أبناء الطريق الصادقين الذاكرين لايعبدون الأولياء بل إنما يحبونهم ويرجون مددهم أى بركتهم، وفرق كبير بين العبادة والحب.

أثر أرواح الأولياء فى مريديهم أحياء ومنتقلين:

إن المريدين حينما يزورون الأولياء فى قبورهم أو فى بيوت الأحياء منهم أو ساحاتهم فإنهم يقفون بعقائد راسخة بأن الله هو الذى أماتهم وأقبرهم وهو الذى أمدهم بنورهم هم والأحياء منهم.

ولكنه سبحانه جعلهم فى واسع رحمته ورضوانه؛ حيث تشرق أرواحهم مما أفاء الله عليها من النور المبين على محبيهم وزائريهم كما يشرق المصباح المنير على نفسه وعلى من حوله.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل بركة فى قميص سيدنا يوسف وهى قطعة قماش حين قال عليه السلام لإخوته: ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ... ﴿٩٣﴾ ﴾ [يوسف].

فكيف تنكر بركة الأرواح على أهل الإيمان والله تعالى يقول فى حقهم:

﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ... ﴿٧١﴾ ﴾ [الإسراء].

ولقد رأيت فى الصحاح أن الإمام المتبوع على الهدى يمد الله فى طوله يوم القيامة ستين ذراعا ويتلألأ نورا، فيقول متبوعه ومريدوه: «ياليت لنا مثل هذا» فينادى ربهم (لكل منكم مثله).

فالحى ينتفع من الميت والميت ينتفع من الحى، وذلك من باب ارتباط الأسباب بمسبباتها، والمسبب هو الله تعالى، والمعطى هو الله تعالى، سواء أكان العطاء مباشرة أم بالواسطة، فقد علم الملائكة بواسطة آدم، وعلم النبى ﷺ مباشرة فقال: ﴿ ... وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ... ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء].

وعلمنا نحن معشر المؤمنين بواسطة نبينا ﷺ فقال جل شأنه: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران] سبحانه وتعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم.

فالمدد هو النور الذى أعطاه الله للولى - المنتقل والحى - وهو من المنتقل: لمعة نورانية يسوقها الله لقلب المحب الزائر، يستجاب الدعاء من خلالها لأنها تحيى القلب فيستجيب الله الدعاء منه، وأما «المدد» من الولى الحى فهو نور يفتح خطا روحيا بينه وبين المريد ليهذب له نفسه ويربيها ويرقى له روحه ويزكيها ويصفى قلبه وينقيه فيصبح فى عداد عباد الرحمن الذين لاخوف عليه ولا هم يحزنون.

السقى النورانى:

من المسلم به أن الإنسان مادة مشعة، وأنه لابد للمنسوب الأكثر أن يفيض

على المنسوب الأقل من تلك الإشعاعات المتزاحمة التى يفيض بها. إن هذا الإشعاع يأخذ أبعادا ثلاثة:

١ ـ أشعة نورانية تتهادى من روح صافية وقلب نقى يزداد بنور الإيمان فإذا ما وجدت قلبا لديه استعداد للتلقى والاستقبال حلت فيه على قدر استعداده.

٢ ـ أشعة سوداء ورمادية تهبط من روح سقيمة وقلب منكوس مغلف بظلمة المعصية والفسق فتحل فى وعاء منسوب الخير فيه أقل من منسوب الظلمة فتزداد الأشعة المظلمة وتخفت صوت الخير بل قد تقضى عليه فيغدو عاصيا متمردا.

٣ ـ أشعة نارية تنقدح من نفس خبيثة وقلب سقيم تشتعل فيه نار الحسد والحقد فيتجه شعاع نارى منها إلى الشىء فيتلفه أو يَعْطُبُه.

فالأشعة الأولى هى المعنية بالسقى النورانى والمنهج الصوفى الحقيقى الذى على إثره تتبدل الصفات الذميمة بالصفات الحسنة، وينتقل الإنسان من دائرة الشقاء إلى دائرة السعادة كما سيتضح بعد إن شاء الله ومصدرها الجليس الصالح والعارف الناجح، وأما الأشعة السوداء أو الرمادية فهى على العكس: تبدل الصلاح إلى فساد والإنسان السوى إلى غر منحرف ـ وسيأتى تفصيل ذلك إن شاء الله أن مصدرها الفاسق المتمرد.

وأما الأشعة النارية فمصدرها صاحب النفس الخبيثة: الحاسد المعادى لنعم الله فإذا انطلق شعاع منها من العائن فربما أردى المعيون قتيلا أو معطوبا على الأقل، قال ﷺ: «العين تورث البعير القدر والرجل القبر».

الأشعة المظلمة وأثرها

يحذر الإسلام من رفيق السوء من الجنسين؛ لأن تأثيره على سلوكيات الإنسان سريع وخطير، فعدوى الأخلاق أسرع وأقوى تأثيرا من عدوى الأمراض الجسدية فما انحرف إنسان عن مساره الطبيعى إلا برفيق سوء من رجل أو امرأة، شاب أو شابة، ومن أجل ذلك يرغب الإسلام بل يشدد فى اختيار الصديق والصاحب بأن يكون مستقيما صالحا، قال رسول الله ﷺ: «خير الأصدقاء من يعينك إذا ذكرت ويذكرك إذا نسيت» وقال ﷺ: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كبائع المسك ونافخ الكير».

الإنسان والنزعات الميولية:

إن كل إنسان تتناوشه نزعات للخير وأخرى للشر، وبذلك يكون عرضة للتصارع والتضارب المستمر بين ميول خير الفضيلة ورغائب الرذيلة، متأرجحا بين هذه وتلك. حتى يثبت على واحدة منهما، فإما أن يغلب عليه طابع الخير فيكون قد التزم باب الاستقامة، وإما أن تغاليه نزعات الشر وهى كثيرة وسهلة على النفس ومحببة، وأما وسائل تدعيم الخير الإنسانية فنادرة فى عصرنا هذا وغير مقنعة لمعظم العقلاء والمتفيقهين إلا لمن وقع فى مذاقها فإنه يعتز بأهل النور الإيمانى ولايهمه اعتراض الناس عليه؛ لأن دليل توفيقه فى مسيرته إلى ربه فى «قلبه» مذاقا نورانيا يتجدد ويزداد كلما زار شيخه وشرب من نوره مايحقق زاده إلى ربه ومتعته فى وصله، فمهما اعترض المعترضون عليه فلن يغيروا مسيرة توجهت إلى الله وارتبط بنور النبوة، فإن هؤلاء السالكين طريق الحق والهدى ينطبق عليهم ما ورد عن سيدنا رسول الله ﷺ فى قوله: «لاتزال طائفة من أمتى قائمة على الحق لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون». إنهم نصراء دين الله تعالى وهو وليهم بما كانوا يعملون، بنشر الحب بين الناس، والسكينة والاطمئنان والراحة النفسية فتتعلق قلوب السعداء بهم.

علاج القلق النفسى وأمراض العصر:

لقد انتشر القلق والحيرة، واضطراب المسيرة النفسية لدى الإنسان المعاصر مع مواكبة الترف المعيشى والحياة المطورة التى زخرفتها المدنية الحديثة والتفوق العلمى العالمى فخسر الإنسان راحته النفسية والقلبية، وتناوشته أمراض مستحدثة لم يكن ليسمع بها هو وأسلافه وذلك بسبب الغفلة عن ذكر الله والابتعاد عن رجال الله الذين يحققون التوازن النفسى للإنسان، ويعملون على تنفيذ المعادلة العادلة بين مطالب الجسد ومطالب الروح.

قال رسول الله ﷺ فى إجابته على من سأله فى آية: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ...** ﴿١٢٥﴾﴾ [**الأنعام**] حينما قال: مامعنى الشرح يارسول الله؟ قال ﷺ: «الشرح نور يقذفه الله تعالى فى القلب».

ذلك النور هو العلاج لأمراض العصر، وللقلق النفسى والاضطرابات والحيرة.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

فالعلاج الحقيقى لأدواء المعاصى والعلل النفسية والقطيعة عن الله إنما تكون: بهدى شيخ عارف بالله تتقاطر روحه نورا محمديا على مريديه ومحبيه وهو فى الواقع طبيب ماهر يجرى العمليات الربانية لأهل الران والقلوب الغلف حتى يتمزق الران والأغلفة، وبذلك يصرف له الدواء الناجع الذى يقضى تماما على جذور الداء ويربط قلبه بالسماء فيعيش مابقى من عمره فى حب وسمو وصفاء وفى عافية شمولية يشعر خلالها بالسعادة الأبدية والعافية الجسمانية وذلك الدواء فى التوبة والذكر الكثير.

حاجة الناس إلى نور الأولياء ومددهم:

يعيش الناس الآن عصر المتناقضات، وكما يقال: اختلط الحابل فيه بالنابل، وتغيرت بنية المجتمع الإنسانى سلوكيا واقتصاديا واجتماعيا.

فلا باعث على حركة الإنسان الآن إلا: المال والجاه والشهوة: هذا الثالوث الخطير قَوَّضَ مابقى لدى الأمة من مبادئ ومثل ومشاعر إنسانية خيرة.

حتى تنكرت الحياة للأحياء واستفحل الداء وعز الدواء ولم يبق إلا لطف الله متمثلا فى أحبابه الأولياء الذين يمثلون دائرة الأمل فى الله والرجاء.

إنهم يوجدون فى كل زمان ومكان. كجبال راسيات تحفظ للأرض توازنها وللنفوس بهجتها وكيانها وللقلوب صفاؤها وعزتها. إنهم سفينة النجاة إذا ادلَهَمَّ الخطب وعَظُم البلاء، وتهددت اليابسة بطوفان جديد، فهم نعم السفينة التى ليس القائد لنجاتها نوحا عليه السلام بل هو نبينا خير الأنام.

روى الحاكم والبزار أن رسول الله ﷺ قال: «مثل أهل بيتى مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق».

فمن نظر إلى مانحن عليه الآن كأمة إسلامية: بكى وإلى ربه اشتكى من نضوب معين الإيمان، وانتشار خراب الذمم فى كل مكان، وقول الحرام وفعل الحرام والكسب الحرام والتفكير فى الحرام يسيطر على حركة الإنسان.

والكلام كثير والعمل قليل والإخلاص أقل وأندر من الندرة، وحفظ النصوص لايغنى اللصوص، ولقد سيطرت الأهواء وشح الإنسان على أخيه الإنسان بكل شيء ودَاخَلَ الناسَ العجبُ والغرور والرياء والوساوس و. . . . و .

إذًا لابد من العودة إلى الله تعالى، والسير على منهج الأولياء والصالحين، وعلى كل مسلم يهمه رضاء الله عليه وتهمه الأمة الإسلامية فعليه أن يبحث عن هؤلاء القوم، وأن يكون من أحبابهم وتلامذتهم، بل يجب ذلك على كل مسلم ويتعين عليه لأنه من الضروريات ليتخلق بأخلاقهم، ويتأدب بآدابهم ويعامل ربه معاملة إخلاص وحب ووفاء.

فلقد حث الشرع الكريم على إزالة أمراض الباطن، ووردت بذلك الآيات والأحاديث؛ لأنه لم يسلم من هذه الأمراض إلا من رزقه الله السلامة فى الدين كالأئمة المجتهدين الذين عملوا بما علموه على وجه الإخلاص؛ إذ أن هؤلاء القوم قد تواصوا فيما بينهم وتبايعوا على العودة الكاملة إلى الله تعالى. ولقن العارفون بالله منهم الآخرين لا إله إلا الله. وتوارثوا هذه البيعة جيلا بعد جيل وذلك من عهد سيدنا رسول الله ﷺ حتى الآن ـ كما سيأتى ـ فكانت خلافة الدعوة الصادقة إلى الله تعالى بأن يظهر فى كل عصر من يجددها بخوارق العادات امتدادا للمعجزات التى كانت تظهر على سيد السادات سيدنا محمد ﷺ ليعلم الناس أنهم مؤيدون من الله تعالى فيتبعوهم فى الهداية إلى الله سبحانه؛ حيث كانت ـ وما زالت ـ تظهر على أيديهم الكرامات كرما منه سبحانه لتلفت القلوب إليهم وتجتمع عليهم الناس الذين يريدون وجه الله والدار الآخرة.

طبقات الأولياء:

إن طبقات الأولياء مشحونة بأعمالهم النورانية التى كم هَدَتْ من عُصاة، وكم أصلحت نفوسا آبقة فهرعت إلى الله، وكم أسعدت ألوفا من أهل الشقاء فارتاحوا وزال العناء، وكم مسحوا بحنانهم المحمدى دموع البؤساء، فلله دَرُّهم من رجال هم ـ حقيقة ـ أولياء!!.

أولئك مصابيح الهدى وكواكب الإخلاص، وشموس اليقين؛ حيث يسطع نورهم فى كل عصر.

ـ ولو كان هذا العصر ـ فما بعد العسر إلا اليسر.

فسبحان من بيده الخلق والأمر، والنفع والضر، وأعطى أولياءه المدد والسر.

وأمدهم بالمناقب العالية والكرامات الظاهرة، قال رسول الله ﷺ:

«يبعث الله على رأس كل مائة سنة رجلا من أهل بيتى. يجدد لها أمر دينها» رواه الإمام أحمد.

فمن نهج منهجهم ـ وماهو إلا منهج الشرع الشريف ـ وتأدب بآدابهم ـ وماهى إلاّ آداب النبى ﷺ، وتعلم من علمهم ـ وماهو إلا ما علمه الله لهم ـ فاز بالرضا وحسن الختام.

«الإلهام»

الإلهام: عبارة عن نفث فى الروح بوحى من الله تعالى فى القلب بنور المعرفة والهداية إلى الصواب ليثمر علما لَدُنِّيًا من علم الله تعالى.

والعلم اللدنى: هو الذى لا واسطة فى حصوله بين الروح وبين الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ **... وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** ﴿٦٥﴾ ﴾ [**الكهف**] «من لدنا» أى بدون واسطة.

بل يكون هذا العلم كالضوء من النار يفرغه الله على قلب صاف فارغ من: الأغيار، ومن هوى النفس، ومن حب الدنيا بمالها وجاهها ومتاعها، ومن الأمراض القلبية التى تحجب العبد عن ربه، إذ تهبط الأنوار على قلب لطيف تشغله بخط الأنوار الأحدية والتجليات الصمدانية، فيكون واسطة العبد بربه، فلا ينطق إلا حقا، ولا يقول إلا مايريده الله تعالى.

وقد قال شيخنا سيدى أبو خليل رضى الله عنه: «لايأتى من الذكر غير الحق لأن القلب الصافى المشغول بالله يذكر الحق ولايقول إلا حقا».

وقال الله تعالى: ﴿ **... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [**البقرة**].

وقال الله سبحانه: ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ...** ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [**البقرة**].

العلم اللدنى والأنبياء:

قال الله تعالى: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ** ... ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة]، فإنه يعلم من ذلك أن علم آدم عليه السلام كان: «علما لدنيا» فليس بتعليم ملك بل هو علم موهوب؛ لأنه تعالى قال: ثم عرضهم على الملائكة».

وعلم الأنبياء نوعان: ١ ـ علم موروث من آدم عليه السلام ٢ـ علم موهوب لهم يختصون به بواسطة أو بغير واسطة، فبواسطة كالوحى بواسطة الملك، وبغير واسطة كالوحى فى الروع.

كما أن النبى ﷺ بعث للأمة بالنور الموروث والموهوب له خاصة.

الغزالى والعلم اللدنى:

قال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالى: العلم اللدنى يكون لأهل النبوة والولاية كما حدث للخضر عليه السلام، فقد قال الله سبحانه: ﴿ ... **وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** ﴿٦٥﴾ ﴾ [الكهف] أى الخضر عليه السلام.

والوحى بالملك: قد انقطع بكمال النبوة وتمام الرسالة وكمال الدين قال الله تعالى: ﴿ ... **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ... ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة].

الإلهام والمدد:

وإن كان الوحى بملك للتشريع قد انتهى بكمال الدين وتمامه إلا أن النفوس فى حاجة ضرورية إلى ما يقوى النفوس ويأخذ بيدها إلى حيث التذكير الدائم وتجديد الروح الإسلامية على الدوام ولضمان النمو القلبى والروحى مع النمو الجسدى المادى لإيجاد التوازن النفسى والعقدى والمعرفى دائما.

وهذا ما جعل باب «الإلهام» مفتوحا، ومدد نور النبوة لا ينقطع رحمة منه سبحانه وتعالى بهذه الأمة لكيلا تستغرق النفوس فى الغيبوبة الروحية بل لتنشط القلوب والمهج مع الله سبحانه فتنقضى الوساوس وتذوب الرغبة فى الشهوات، ولتظهر ينابيع الحكمة فى الروح وتأثير المؤثر عليها، ولأجل النظر فى إبداع الصنع والتفكر فى مخلوقات الله.

الإلهام والمد الخليلى:

حينما يتحدث: قاص أو شاعر أو روائى أو كاتب فمن حقه أن يميل صوب الخيال، والخيال المجنح.

لكن حينما يتحدث سالك إلى الله عن رجال الله، فالموقف يختلف تماما، إذ لابد من النزوع إلى الحقائق المجردة بحيث لا يعرف الاختراع والخيال بل والمبالغات فى سرد الحقائق سبيلا إلى قلبه فضلا عن قلمه.

فإن القضية تصبح مقامرة بـ «الدين» وعقوبتها: سوء الخاتمة بالموت على غير دين الإسلام والعياذ بالله تعالى؛ لأن من ادعى فتحا ولم يفتح عليه حرم منه وقد يحرم كل شيء.

إن الإلهام فتح من الله تعالى على يد شيخ «واصل مُوَصِّل» بل: جيد التوصيل وهو: عبارة عن نور يلمع فى قلب الذاكر المؤمن النقى السريرة المحب لله وأحبابه والذى أسلم قياده لخالقه، وامتزجت روحه بروح شيخه امتزاج الفرع بأصله، فشرب من راحه بقدر استعداده وما يحفظ عليه الأدب مع شيخه وربه فلما اشتاق إلى الله انجذب قلبه إليه فقذف الله فى قلبه من نور المعرفة وألهمه الصواب وأزاح عن قلبه الران فرأى شيخه يلقنه ويرويه ومن مداد الحب يسقيه، فصدع بالإلهام ليوقظ النوام.

إن المد الخليلى:

نفحة ربانية فى عالم الولاية والتصوف وقد وجد كآية من آيات الله تعالى منذ أكثر من قرن من الزمان، وعن هذا الفتح الربانى حدث ولا حرج فهو من محض فيض فضل الله تعالى، وهو قبسة من نور سيدنا رسول الله ﷺ.

وهو الآن ـ على مشارف الألفية الثالثة ـ بأكثر مما كان نظر للكثرة العددية تعداد عاما وخاصا ونسأل الله أن يزيد إخواننا فى الله فتوحا وأن يجنبهم الأغيار، وأن يحفظهم من غيرة الأشرار.

الحركة الديناميكية للإلهام:

تصاغ حركة البث الإلهامى عن طريق الاتصال بين جهازين: جهاز إرسال «الشيخ، جهاز استقبال «المريد الملهم».

المادة أو المحصلة الإلهامية: ١ ـ شعر قد يكون فصيحا موزونا ومقفى، وقد يكون مزيجا من الفصحى والدارجة من القصيد أو الشعر المرسل وذلك ارتجالا سريعا بلا تحضير أو تفكير أو مطالعة كتب يتناول هذا الشعر: التوحيد الخالص بأسلوب نورانى يؤثر فى الأرواح تأثيرا كليا فتسرى فيها عوامل الحب ويورثها أنسا وجمالا روحيا لم يعهد له نظير من قبل وكأن الشيخ رضى الله عنه ينتهزها فرصة فينقش فى الأرواح والقلوب ما شاء الله من ترقية بِسر يُدَارُ فى وضح النهار فى ستر كلام من الواحد القهار ـ وقد يكون الملهم أميا أو شبه أمى والمهم انه غير متخصص فى معرفة شىء من الشعر، ولكن إذا فتح الفتاح وبدأ من أول الليل ـ وترك ـ فإنه يظل حتى الصباح فلله الفضل والمنة.

وفى هذه الفرائد النورانية ما يكون تفسيرا لبعض آيات القرآن وشرحا للأحاديث المتصلة بموضوع الإلهام الذى يحلق بالسامعين فى عالم الملكوت. والقرينة الدالة على أنه إلهام أنه قد يَرِدُ على الخواطر بنفس القافية التى صيغ عليها الإلهام حتى ولو كان صاحب الخاطر يجلس بعيدا عنه أو خلفه وقد يبشر الحاضرين بأشياء ينتظرونها ولايعرفها إلا الله وذلك تشجيعا لهم على كثرة الذكر ولهداية العاصى ـ الذى جلس لأول مرة ـ إلى الله وفيه دعوة وإرشاد من مستوى رفيع يعج بالأنوار والنفحات.

وقد يتكلم الملهمون فى مدح المصطفى ﷺ بروح تظهر عليها ملامح الدهشة فى الحضرة النبوية فيتكلم بلسان الحاضر مع المصطفى ﷺ فيجذب له الناس على اختلاف مشاربهم وثقافاتهم ليسمعوه ولينهلوا من رحيق العلم اللدنى الذى يغسل القلوب من أدرانها وقد يكون ذلك سببا فى هداية كثير من الخلق إلى الله تعالى.

المزية لاتقتضى الأفضلية فى المريدين:

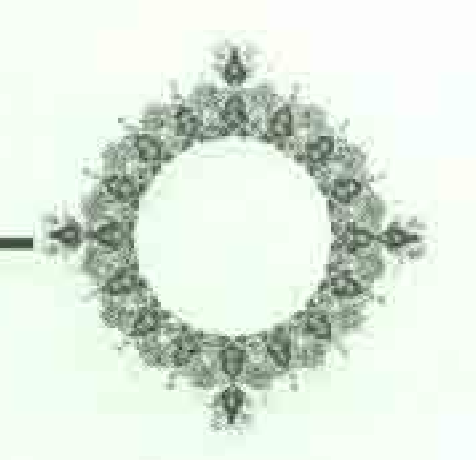
إن بعض السالكين قد يأتى الشيطان ويشككهم فى سلوكهم وأنهم لن يصلوا إلى شىء فى الطريق ما داموا لم يلهموا ولم يعرفوا العلم اللدنى كبعض إخوانهم.

إن هذا الفهم خطأ كبير؛ لأن أكبر كرامة هى الاستقامة، فما دمت تسير على النهج وتترك المعاصى وتكثر من الذكر والصلاة على خير الأنام ﷺ وتزور شيخك محبة فى الله وقلبك صاف مع إخوانك وأهلك فأنت ناجح فى الطريق وما عليك بعد ذلك أن تلهم أو لاتلهم، فمن الخطأ الجسيم أن ينخرط إنسان فى

الطريق لِيُلْهم أو أن يذكر الله ليكون وليا أو ليرى رؤيا مبشرة أو ليعرفه الناس ويلتفوا حوله أو. . . . . . إلخ.

إن هذا كله خطأ فعلى السالك طريق الحق أن يعرف الحق فقط ليعرف رجاله وأن يكون هدفه: رضاء الله جل شأنه وحبه والموت على الإسلام ومرافقة النبى ﷺ فى الجنة مع آله الأطهار ومن كان سببا فى الأنوار من مشايخه الأبرار. فقد يوفق الله الشيخ لاختيار بعض المريدين للإلهام، فيسقيهم من روح الفتح المحمدى ما يريد توصيله إلى المريدين، فإن اغتر أحدهم وظن أن هذا عطاء خاصا به فإنه يسلب منه وكذلك إن استغله لمنافع مادية خاصة به فإنه ينقطع عنه المدد وقد يطرد من الطريق. وربما يقول قائل: كيف يسلب هذا العطاء ومن المعروف أن الله تعالى إذا أعطى لا يسلب عطاءه؟ نعم لا يسلب عطاءه لأن هذا العطاء هو عطاء للشيخ فهو من الله تعالى بسريان روح الشيخ المشرقة فى روح المريد بخط النور المحمدى ويزيد دائما مع زيادة المريدين، ولكن المريد الملهم أخذ من عطاء الشيخ بَعْضًا لمصلحة نشر طريق الله وتثبيت المريدين على النهج وغسل القلوب وترقية أرواحهم عن طريق خط التشغيل الواصل بين الشيخ والمريد الذى كلما جرد قلبه من الأغيار وعرف من الذى يلقن روحه، اتضح الإلهام وبرق لمعانه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

الخاتمة



وبعد: فقد اتضح الحق وبدرت بوادره، وكثرت جنوده وعساكره فالله مؤيده والله ناصره

فما أجـمل الصلة بالله تعالى!! وما أعـذب الحب فى الله!! وما أروع حب رسول الله وآله وعترته الأطهار.

إنها جنة الوصول ـ ذات أشجار فينانة وأغصان بالأنوار مزدانة

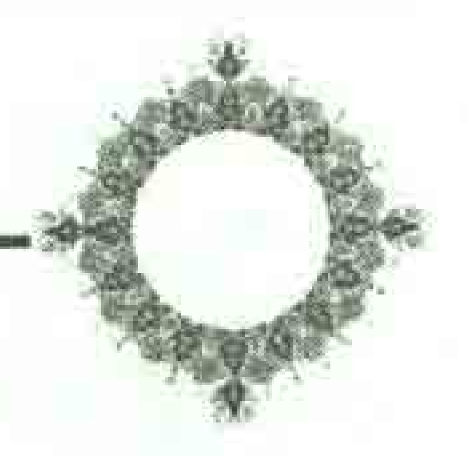
﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا** ... (١٢٥) ﴾ [**الأنعام**] فالسعيد من عرف الله ولاذ بحماه، والشقى من غفل عن الإله فتاه واحتار فَضَلَّ عن مسعاه. وكل شىء فى الكون قلاه وما ظلمهم الله.

اللهم لا تحرمنا من: «لا إله إلا الله» وحققنا بنور سـيدنا رسول الله وسيلتنا إليك يا ألله وشفيعنا أمامك يا من لا عين تراه.

والله أسأل أن يأخذ بيـدنا دائما كى نتأب مع الله، ولنعيش فـى كنف سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ وأن يحفظ بلادنـا من الفتن ما ظهر منها وما بـطن ـ إنه سميع الدعاء سخى العطاء

آمين

المراجع



١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ تفسير ابن كثير.

٣ ـ تفسير الفخر الرازى.

٤ ـ تفسير الآلوسى.

٥ ـ تفسير البغوى.

٦ ـ تفسير الجلالين.

٧ ـ تفسير النسفى.

٨ ـ تفسير الكشاف.

٩ ـ تفسير الخازن جمال الدين الأفريقى.

١٠ ـ تفسير فريد وجدى.

١١ ـ تفسير فريد النيسابورى.

١٢ ـ الترمذى فى التفسير جـ٩ .

١٣ ـ تفسير فتح القدير جـ٤ .

١٤ ـ صحيح البخارى.

١٥ ـ صحيح مسلم.

١٦ ـ صحيح الترمذى.

١٧ ـ مسند الترمذى (باب الزهد).

١٨ ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان.

١٩ ـ مسند الإمام أحمد.

٢٠ ـ سنن ابن ماجه.

٢١ ـ مسند البزار.

٢٢ ـ الاستيعاب لابن عبد البر.

٢٣ ـ روضة الطالبين.

٢٤ ـ مجمع الزوائد لابن حجر الهيثمى.

٢٥ ـ القاموس المحيط جـ٣، لسان العرب.

٢٦ ـ مقدمة الفتوحات الإلهية لابن عجيبة.

٢٧ ـ أوراق مطوية فى التصوف والصوفية جـ١ ، د. محمد حسين الغزالى.

٢٨ ـ طريق الله تعالى، جـ١ لفضيلة العارف بالله الشيخ أحمد الشافعى أبوخليل.

٢٩ ـ المنقذ من الضلال لأبى حامد الغزالى، تحقيق د. عبد الحليم محمود.

٣٠ ـ الملل والنحل لعبد الكريم الشهرستانى.

٣١ ـ طريق الله تعالى، جـ٢ لفضيلة العارف بالله الشيخ أحمد الشافعى أبوخليل.

٣٢ ـ الرسالة القشيرية للإمام القشيرى.

٣٣ ـ الإنسان الكامل للعلامة عبد الكريم الجيلى.

٣٤ ـ خصائص النبى ﷺ للمحب المكى.

٣٥ ـ قواعد التصوف للشيخ الفاسى.

٣٦ ـ تأييد الحقيقة العلية للسيوطى.

٣٧ ـ عوارف المعارف جـ١ للسهروردى.

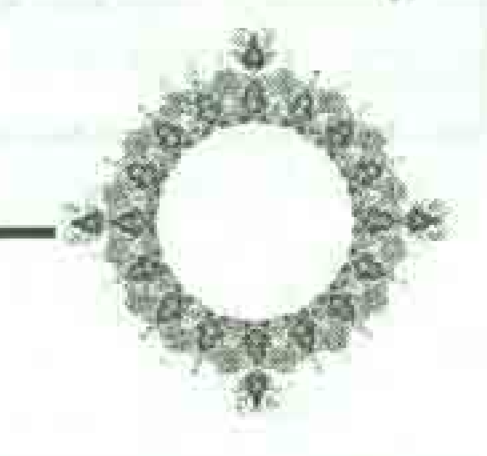
٣٨ ـ شفاء السقام فى زيارة خير الأنام.

٣٩ ـ الشفا فى أحوال المصطفى ﷺ للقاضى عياض.

٤٠ ـ شواهد الحق للنبهانى.
٤١ ـ الإيمان والإسلام، د. عبد الحليم محمود.
٤٢ ـ الصواعق لابن حجر.
٤٣ ـ المناقب لابن المغازلى.
٤٤ ـ المناقب الخليلية لمحمد لطفى خشبة.
٤٥ ـ السيرة الخليلية للشيخ عبد السلام الحلوانى.
٤٦ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه.
٤٧ ـ الحلية لأبى نعيم الأصفهانى.
٤٨ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد.
٤٩ ـ أسد الغابة لابن الأثير.
٥٠ ـ الدر المنثور للسيوطى.
٥١ ـ إيقاظ الهمم لابن عجيبة.
٥٢ ـ الخطط للمقريزى.
٥٣ ـ تذكرة الأنطاكى جـ٢ .
٥٤ ـ الهوامل والشوامل لأبى حيان وابن مسكويه.
٥٥ ـ الروح لابن القيم.
٥٦ ـ الكشكول للبيهقى.
٥٧ ـ تهذيب الأخلاق لابن مسكويه.
٥٨ ـ شجرة الكون لابن عربى.
٥٩ ـ رجال حول الرسول ﷺ لعبد الرزاق نوفل.
٦٠ ـ تمييز الطيب من الخبيث لابن الديبغ الشيبانى.
٦١ ـ الخصائص الكبرى للإمام جلال الدين السيوطى جـ١ .

٦٢ ـ المواهب اللدنية للقسطلانى جـ١ .
٦٣ ـ الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى جـ١ .
٦٤ ـ الأمالى لأبى سهل القطان.
٦٥ ـ الإنسان الكامل لمحيى الدين بن العربى.
٦٦ ـ الرد المحكم المنيع، أ. يوسف الرفاعى.
٦٧ ـ الحكم لابن عطاء الله السكندرى.
٦٨ ـ الحب فى القرآن الكريم، د. محمود بن الشريف.
٦٩ ـ الروض الأنف للسهيلى، جـ٢ .
٧٠ ـ إحياء علوم الدين للإمام الغزالى.
٧١ ـ إشراقات فى طريق الله تعالى لفضيلة العارف بالله الشيخ صالح أحمد الشافعى أبوخليل.

الفهرس



الموضوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

الفصل الثانى

«الروح الإنسانى»

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

رقم الإيداع	٢٠٠٠/٥٣٩٧
I. S. B. N الترقيم الدولى	977-10-1324-6